

ارنست همنغواي

عبر الشمر وتحوّل الجار

نقله إلى العربية
منير البعلبكي

دار الطليقة - بيروت



عَبْدُ الْكَفَرَةِ
وَنَحْمُ الْإِلَهَ شَجَارَةَ..

**ACROSS THE RIVER
AND
INTO THE TREES
BY : ERNEST HEMINGWAY**

الطبعة الأولى
نوار (مايو) ١٩٦٣

أُرْسِتَ لَهْمَنْفَرَايُ

عَبْدُ الْكَفَرِ وَنَحْوِ الْأَشْجَارِ..

نَقَلَهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
مَنْزِلُ الْعَلْبَسِيِّ

مَنْشُورَاتُ دَارِ الطَّلَيْفَةِ - بَيْرُوت

لقد انطلقا قبل ساعتين من انبلاج الفجر ، وفي بادىء الأمر لم يكن من الضروري ان يُكسّر الجليد عبر القنال ، باعتبار ان زوارق اخرى كانت قد تقدمتها . وفي كل زورق كان السواري^١ واقفاً ، وسط الدجّة ، عند مؤخر المركب وفي يده مجذافه الطويل ، فليس في ميسورك أن تراه : كان في وسعك ان تسمعه ليس غير . أما القناص فجلس على كرسيّ قنصٍ خفيضٍ مثبت فوق صندوق اشتمل على طعامه وخراطيشه ، وكانت بندقيتا القناص ، او بنادقه "مُسندة" ، الى حمل الطيور الخشبية الخادعة . وفي مكان ما من كل زورق كان عدلٌ يشتمل على بطة برية حيّة أو بطتين بريتين حيتين ، أو على بطة انثى وبطة ذكر . وفي كل زورق كان كلب يتنقل ويرتعد في قلق كلما سمع تصفيق اجنحة البط الذي كان يمرّ فوق رؤوس القوم في الدجّة . كانت أربعة زوارق قد صعدت في القنال الرئيسية نحو اللاغون^٢ الكبير الذي في الشمال . وكان زورق خامس قد انعطف قبيل ذلك نحو قنالٍ جانبية . واستدار الزورق السادس ، الآن ، الى لاغونٍ ضحل ، ولم يكن ثمة مياه محطمة .

١ - نسبة الى سارية السفينة .

٢ - اللاغون ، Lagoon ، المستنقع او البحيرة الضحلة وخاصة ما اتصل منها بالبحر او بالنهر أو كان قريباً منها .

كان كل شيء جليداً ... جليداً انجمد منذ قريب ، خلال زمهرير الليل المفاجيء المقتقر الى الرياح . كان مطاطياً ، وكان ينحني مع طعنات مجذاف المراكبي . ثم انه كان من دأبه أن ينكسر بمثل حدة انكسار لوح من زجاج ، ولكن الزورق لم يحرز غير تقدم ضئيل .

— « أعطني مجذافاً ! » كذلك قال القناص الذي في الزورق السادس . لقد انتصب واقفاً وثبتت قدميه موازناً نفسه في حذر . كان في ميسوره أن يسمع البط ينطلق في الظلام ، ويستشعر ترنح الكلب القلق . وإلى الشمال سمع صوت تحطيم الثلج مقبلاً من الزوارق الأخرى .

وقال السواريّ القناص عند مؤخر المركب : « احترس ! لا تقلب الزورق رأساً على عقب . »

فقال القناص : « أنا ملاح ، ايضاً . »

وتناول المجذاف الطويل الذي قدّمه المراكبيّ اليه وعكّسه بحيث يستطيع الامساك به من نصّله . حتى اذا تشبّث بالنصل ، مال الى أمام وغرز مقبض المجذاف في الجليد . لقد استشعر قعر اللاغون الضحل الثابت ، وألقى بثقله فوق اعلى النصل العريض وامسك به بكلتا يديه ، جاذباً بادیء الأمر ، ثم دافعاً بعد ذلك ، حتى انكفاً سناد السارية الى المؤخرة ، وراح يسوق الزورق قدماً لكي يحطم الجليد . وانكسر الجليد مثل رقاقات من البلور فيما كان الزورق يشق طريقه وسطه ، ويتقدم نحوه . وعند المؤخرة ، دفع المراكبيّ تلك الرقاقات الى أمام نحو المجاز المائع .

وبعد هنيهة التفت القناص ، الذي كان يبذل جهداً قاسياً موصولاً ويتصبب عرقاً في ثيابه الثقيلة ، الى المراكبيّ وسأله : « اين برميل القناصة ؟ »

— « هناك ، الى اليسار . في وسط الخليج التالي . »

— « أيتعين علي ان اتجه نحوه الآن ؟ »

— « كما تشاء . »

— « ماذا تعني بقولك : كما أشاء ؟ انت تعرف المياه . هل ثمة ماء
لحملنا الى هناك ؟ »

— « المدة منخفضة . من يدري ؟ »

— « سوف ينبثق الفجر قبل ان نصل الى هناك إن لم نسرع . »
ولم يجب المراكبي بشيء .

— « حسناً ، أيها الرجل التافه الفظ » ، كذلك قال القناص في ذات
نفسه . إننا في سبيلنا الى هناك . لقد قطعنا ثلثي الطريق الآن ،
وإذا سكنت قلق البال حول اضطرابك الى العمل لكي تحطم الجليد
لتعثر على الطيور ، فذلك مؤسف الى حد بعيد . »
وقال بالانكليزية : « انتقم لنفسك من هذا الوضع ، أيها الرجل
التافه ! »

فسأله المراكبي بالاطالية : « ماذا ؟ »

— « لقد قلت فلنمض . سوف تبزغ الشمس عما قريب . »
وانبلج الصباح قبل ان يبلغا البرميل الكبير ذا الاضلاع السندية
الفارق في قعر اللاغون . كان مطوقاً بحاشية منحدره من الارض يكسوها
العشب ونبسات الخلفاء ، فصعد القناص نحوها متأرجحاً في حذر ،
مستشعراً ان الأعشاب المنجمدة كانت تتكسر تحت قدميه . ورفع
المراكبي كرمي القنص الخفيض المشدود الى صندوق الخراطيش من الزورق
وقدمها الى القناص ، الذي انحنى الى أمام ووضعها في قعر البرميل
الكبير .

وتسلق القناص البرميل ودخل فيه ، وكان يرتدي حذاءه الطويل
الساق المرتفع حتى الوركين ومرة عسكرية قديمة على كتفها الأيسر
كتافة لم يفهمها احد ، مع مواضع ضئيلة خفيفة حيث كانت من قبل
نجوم ثم نزعته . وناول المراكبي بندقيته .

وأسند البندقيتين الى جدار البرميل ، وعلّق كيس خراطيشه الآخر بينهما ، مدلياً اياه على كُلاّبتين مُثبتَتَيْنِ في جدار البرميل الغائر . ثم إنه أمال البندقيتين الى جانبي كيس الخراطيش .

وسأل المراكبي : « ألدّيك ماء ؟ »

فقال المراكبي : « لا ماء . »

— « هل نستطيع ان نشرب ماء اللاغون ؟ »

— « لا . انه غير صحي . »

كان القناص ظمآن من أثر التعب الذي اورثه اياه تحطيم الجليد وقيادة الزورق . وأحسّ بالغضب يملكه ، ولكنه كبّح جماحه وقال : — « هل نستطيع ان اساعدك في الزورق على تحطيم الجليد لاطلاق

الطيور الخشبية الخادعة ؟ »

فقال المراكبي : « لا » ، ودفع الزورق في وحشية مخرجاً اياه الى طبقة الجليد الرقيقة التي انفطعت وانشقت فيما كان الزورق يصعد نحوها . وشرع المراكبي يهشم الجليد بنصل مجذافه ، ثم راح يلقي بالطيور الخشبية الخادعة خلفه والى جانبه .

إن مزاجه اليوم رائق ... كذلك قال القناص في ذات نفسه . وهو بهيمة كبيرة ، ايضاً . لقد عملتُ انا مثل فرس حتى انتهيت الى هنا . أما هو فاكتفى بدفع ثقله ولم يزد . ما الذي يغيظه ، بحق الشيطان ؟ ان هذه هي مهنته ، أليست هي مهنته ؟

وسوّى كرمي القنص الخفيض بحيث ينعم بأقصى القدرة على التمايل ذات اليمين وذات الشمال ، وفتح صندوق خراطيش ، وملاً جيوبه ، وفتح صندوق خراطيش آخر في كيس الخراطيش بحيث يستطيع أن يتناوله في يسر . وقبالتّه ، حيث انبسط اللاغون المتلألئ تحت أشعة الفجر الاولى ، كان الزورق الاسود وكان المراكبي " الفارع الطول الضخم الجثة يهشم الجليد بمجذافه ويلقي بالطيور الخشبية الخادعة الى عرض الماء

وكانه يتخلص من شيء قذر .

كانت خيوط الفجر قد غدت الآن أكثر اشراقاً ، ولقد أصبح في ميسور القناص ان يرى الحدود الخفيفة للنقطة القريبة عبر اللاغون . وكان يعلم أن وراء تلك النقطة مركزي قنص آخرين ، وأبعد الى الورا كانت مستنقعات اضافية ، يليها البحر الطلث . وشحن بندقيته ، وتحركى موقع الزورق الذي كان يقذف بالطيور الخشبية الخادعة .

ومن خلفه ، سمع همس أجنحة وافدة ، فجثم ، وتناول بندقيته اليمنى بيده اليمنى رافعاً بصره من تحت حافة البرميل ، ثم نهض ليطلق النار على البطتين اللتين كانتا تُسِفَّان ، وقد كُيِّحت أجنحتها ، هابطتين على نحو داكن في السماء الرمادية المعتمة ، منحرفتين نحو الطيور الخشبية الخادعة .

وخفض رأسه ، وحرفَ البندقية في منحنى طويل الى ما وراء البطة الثانية بكثير . ثم انه رفع البندقية في رفق ، من غير ان يتحقق من نتيجة طلقاته - رفعها عالياً الى يسار البطة الاخرى التي كانت تحلق الى اليسار ؛ وفيما كان يطلق النار رآها تطوي جناحيها وهي آخذة في الطيران وتسقط بين الطيور الخشبية الخادعة فوق الجليد المهشم . والتفت الى اليمين فرأى البطة الاولى رقعة سوداء على الجليد نفسه . لقد عرف انه اطلق النار في عناية على البطة الاولى بعيداً الى يمين الزورق ، وعلى البطة الثانية عالياً جداً والى اليسار ، تاركاً البطة تحلق منحرفة الى اليسار لكي يستيقن من ان الزورق كان بعيداً عن خط النار . كانت اصابة مزدوجة رائعة ، حققها كما ينبغي له ان يحققها على وجه الضبط ، مع المراعاة والاحترام التامين لموقع الزورق . واستشعر ارتياحاً بالغاً فيما كان يعيد شحن البندقية .

وقال الرجل الذي في الزورق بصوت عال : « إسمع ! لا تطلق النار في اتجاه الزورق ! »

سوف اكون ابن عاهرة فاشلاً ، كذلك قال القناص في ذات نفسه .
سوف اكون من غير ريب .

وقال بصوت عال مخاطباً الرجل الذي في الزورق : « ألقِ طيورك
الخشبية الخادعة في الماء . ولكن ألقها بسرعة . انا لن اطلق النار حتى
تلقيا كلها . إلا فوق سمت الرأس مباشرة . »

ولم يقل الرجل الذي في الزورق اي شيء يمكن ان يُسمع .
انا لا استطيع ان اتصور هذا ، كذلك قال القناص في ذات نفسه .
إنه يعرف اللعبة . ويعرف اني قسمتُ العمل ، واكثر ، عند انطلاقنا .
وانا لم اطلق النار في حياتي على اي بطة اطلاقاً أسلم وأحفل بالعناية
والاحتراس مما فعلت اليوم . فما باله ؟ لقد ابديت استعدادي لمعاونته
في تحطيم الجليد وإلقاء الطيور الخشبية الخادعة الى الماء . فليذهب الى
الجحيم ! »

وهناك ، الى ناحية اليمين الآن ، كان المراكبي لا يزال يهشم الجليد
مغضباً ، ويلقي بالطيور الخشبية الخادعة بروح ترشح ببغضاء تجلّت في
كل حركة من حركاته .

لا تدعه يُفسد عليك يومك ، كذلك قال القناص مخاطباً نفسه .
فلن يكون قنص كثير بحكم هذا الجليد ، اللهم الا إذا أذابته الشمس في
ما بعد . ولعلك لن تفوز بعدُ بغير طرائد معدودات ، فلا تدعه يفسد
عليك قنصك . انك لا تدري كم مرة سوف يقدر لك أن تصطاد البط
منذ اليوم ، فلا تدع اي شيء يفسد ذلك عليك .

وراقب السماء وهي كَثْبَرُوق وراء تخوم المستنقع الطويلة ، ثم استدار
في البرميل الغائر وسرّح بصره عبر اللاغون المنجمد وعبر الارض السبخة ،
فرأى الجبال المكلفة بالثلوج على مسافة قصية ، واذ كان في وضع
خفيض فأن بصره لم يقع على اي سفح من سفوح الهضاب ، ونهضت
الجبال على نحو مفاجيء من سطح السهل . وفيما هو يرنو الى الجبال ،

كان في ميسوره ان يستشعر نسيماً يداعب وجهه ، فعرف آنذاك ان
الرياح سوف 'تقبل من هناك ، ناهضة' مع بزوغ الشمس ، وأن بعض
الطيور لا بد أن تقيدَ من ناحية البحر عندما تزعجها الريح .
وكان المراكبي قد فرغ من اطرّاح الطيوز الخشبية الخادعة ، وكانت
تشكّل عنقودين اثنين ، احدهما قدام القناص والى يساره نحو الموضع
الذي ستشرق منه الشمس ، والآخر الى يمينه . عندئذ دلتى انثى البط
البري مع وترها ومرساتها ، فلم يكن من بطة القنص إلا أن نثرت
رأسها تحت الماء ، ثم رفعت رأسها وغطّسته ، ونضجت ظهرها بالماء .
وصاح القناص مخاطباً المراكبي : « ألا تعتقد ان من المستحسن ان
نكسر مقداراً اضافياً من الجليد حول الحافات ؟ ليس ثمة ماء كاف
لاجتذايها . »

ولم يقل المراكبي شيئاً ، ولكنه شرع يهشم اطراف الجليد المنثمة
بمجدافه . وكان تهشم الجليد هذا غير ضروري ، ولقد عرف المراكبي
ذلك . ولكن القناص لم يعرفه وقال في ذات نفسه : انا لا افهم هذا
الرجل ، ولكن عليّ ان لا ادعه يفسد عليّ هذه الفرصة . ان من
واجبي أن اصونها من العبث ، وأن لا أدعه يُقدم على ذلك . فكل
عيار ناري أطلقه الآن قد يكون آخر عيار مقدّر لي ان أطلقه ،
وليس يجوز ان يُسمح لأي ابن عاهرة ان يفسد عليّ فرصتي هذه . ثم
خاطب نفسه قائلاً : « اكبح جماح غضبك ، ايها الغلام ! »

ولكنه لم يكن غلاماً . لقد كان في الخمسين من عمره ، وكولونيل مشاة في جيش الولايات المتحدة . ولكي يختار فحصاً طبياً كان قد تعين عليه أن يخضع له في اليوم السابق لمضيته الى البندقية (فينيسيا) لقنص البط ، عمد الى ازدراد مقدار كاف من المنيترول هيكسانيترايت ابتغاء ... - حسناً انه لم يكن يعرف لماذا على وجه الضبط - ابتغاء النجاح ، كذلك قال في ذات نفسه .

وكان الطبيب كثير الشكوك . ولكنه دون نتيجة فحص القلب على الجهاز المسجل لحفقاته ، بعد أن اجراه مرتين اثنتين . وقال : «أتدري ، يا «دك» . ان التسجيل لا يشير الى أية علة في القلب . إنه على العكس ينفي وجود العلة بما ينطق به من ارتفاع في الضغط الناشب في البصر والضغط الناشب في طاسة الرأس . » - «لست افهم هذا الذي تتحدث عنه ، » كذلك قال القناص الذي لم يكن قناصاً ، آنذاك ، إلا باعتبار ما سيكون ، والذي كان كولونيل مشاة في الجيش الاميركي ، أنزل من رتبته كجنرال .

وقال له الطبيب : «لقد عرفتك منذ عهد بعيد ، ايها الكولونيل . او لعل معرفتي اياك تبدو وكأنها ترقى الى عهد بعيد . » فقال الكولونيل : «أجل إنها ترقى الى عهد بعيد . » فقال الطبيب : «نحن نبدو مثل ناظمي الاغاني . ولكن حذار ان

تدع نفسك تتأثر بأي شيء ، أو ان تدع أيما شرارة تصيبك ، حين تذكى نشاطك اذكاء شديداً بالنيتروغليسرين^١ . فلا بد ان يجعلك ذلك تجرّ سلسلة حديدية مثل شاحنة تسير ببنزين مغالى في تكريره .

فسأله الكولونيل : « ألم تكن نتيجة تخطيط قلبي حسنة ؟ »

— « لقد كانت نتيجة التخطيط رائعة ، أيها الكولونيل . وفي استطاعتي ان اقول انها تشبه نتيجة تخطيط القلب عند رجل في الخامسة والعشرين بل تشبه نتيجة تخطيط قلب غلام في التاسعة عشرة . »

والواقع ان ذلك المقدار من الميتول هيكسانيترايت كانت تشعره في بعض الاحيان بشيء من الغثيان ، ولقد كان حريصاً على إنهاء تلك المقابلة . وكان تواقاً أيضاً الى ان يضطجع ويأخذ حبة سيكونال^٢ . وقال في ذات نفسه : إن عليّ أن اؤلف كتابي الموجز عن فن الحركات الحربية الثانوية الخاصة بفصيلة المصابين بضغط الدم العالي . ليتني استطيع أن اخبره بذلك ! لماذا لا أسلم نفسي ، بكل بساطة ، الى رحمة القضاء ؟ ولكن المرء لا يفعل ذلك ابداً — هكذا قال في ذات نفسه . المرء يزعم دائماً أنه غير مذنب .

وسأله الطبيب : « كم مرة أصبت في رأسك ؟ »

فأجابه الكولونيل : « انت تعلم انها المرة الحادية بعد المتين . »

— « كم مرة ضربت على رأسك ؟ »

فقال الكولونيل عندئذ : « هل تسألني ذلك لمصلحة الجيش أم

بوصفك طبيبي ؟ »

— « بوصفي طبيبك . أنت لم تعتقد أنني سأعهد الى «تدوير» ساهتك

او تعبثها ، أليس كذلك ؟ »

١ — سائل زيتي ثقيل شديد الانفجار يستعمل في صنع الديناميت . (المعرب)

٢ — السيكونال عقار منوم . (المعرب)

- « لا ، يا ويس . متأسف . ولكن قل لي ما الذي اردت ان تعرفه على وجه الضبط ؟ »
 - « الارتجاجات . »
 - « الارتجاجات الحقيقية ؟ »
 - « جميع المرات التي أحسست فيها بالبرد ثم لم تعد تتذكر شيئاً بعد ذلك . »
 فقال الكولونيل : « لعلها عشرة ارتجاجات . بما في ذلك البول . زد ثلاثة ارتجاجات او انقص ثلاثة . »
 فقال الطبيب : « يا لك من ابن عاهرة بائس عتيق ! » ثم اضاف « يا سيدي الكولونيل . »
 فسأله الكولونيل : « هل تستطيع ان انصرف الآن ؟ »
 فقال الطبيب : « نعم ، يا سيدي . انت في صحة جيدة . »
 فقال الكولونيل : « شكراً . هل ترغب في الاشتراك في صيد البط في المستنقعات التي عند مصب نهر غاليا منتو ؟ قنص رائع . إن بعض الفتيان الايطاليين الممتازين الذين لقيتهم في كورتينا يملكونها . »
 - « أهو المكان الذي يصيدون فيه دجاجات الماء ؟ »
 - « لا ، انهم يصيدون بطاً حقيقياً في ذلك المكان . فتيان صالحون . قنص صالح . بط حقيقي . بط بري ، بلبول ،^١ بط اصلع . بعض الأوز . كمثل تلك التي عرفناها في الوطن حين كنا صغيرين . »
 - « لقد كنت صغيراً في التاسعة والعشرين وفي الثلاثين . »
 - « هذا اول شيء حقير سمعتك تقوله طول حياتي . »
 - « انا لم أعن شيئاً من ذلك . كل ما عنيته هو اني لم أتذكر متى كان قنص البط حسناً . ثم إنني غلام من أبناء المدن . »

١ - البلبول : نوع من البط .

- « وتلك هي علتك اللعينة التي لا علة لك غيرها أيضاً . أنا لم أر في حياتي غلاماً من أبناء المدن يساوي فلساً واحداً . »

- « انت لا تعني ما تقول ، أليس كذلك ايها الكولونيل ؟ »

- « طبعاً لا . وانت تعرف جيداً اني لا اعني ذلك . »

فقال الطبيب : « انت في صحة جيدة ، ايها الكولونيل . أنا آسف لعدم تمكني من الذهاب للصيد . بل انني اجهل حق اطلاق النار نفسه . »

فقال الكولونيل : « يا للجحيم . هذا لا يقدم ولا يؤخر . والواقع أن سائر أفراد هذا الجيش ليشاركونك جهلك ذاك . اني اريد أن اصحبك معي . »

- « سوف اعطيك شيئاً آخر لدعم العقاقير التي تستعملها .. »

- « وهل ثمة شيء من ذلك ؟ »

- « ليس بمعنى حقيقي . ومع هذا ، فالعلماء منكبتون على إعدادة . »

فقال الكولونيل : « دعهم ينكبّون . »

- « احسب أن هذا مسلك مشكور ، يا سيدي . »

فقال الكولونيل : « اذهب الى الجحيم ! اوافق أنت من انك لا تريد الذهاب للقنص ؟ »

فأجابه الطبيب : « إن بطّي لفي «لونشان» بشارع ماديسون . انه مكيف الهواء في الصيف ، دافئ في الشتاء ، وليس يتعين علي هناك ان انهض من فراشي قبل اول خيط من خيوط الفجر ، وان ارتدي ملابس تحتية صوفية . »

- « حسن جداً ، ايها الغلام المديني . أنت لن تنفذ الى كنه الأشياء ، أبد الدهر . »

فقال الطبيب : « أنا لم ارغب في مثل هذا النفاذ قط . انت في صحة جيدة ، ايها الكولونيل . »

- « شكراً ، كذلك قال الكولونيل ، وغادر الحجرة . »

كان ذلك أمس الأول ، أما أمس فكان قد امتطى متن السيارة من ترييستا الى البندقية على طول الطريق القديمة التي امتدت من مونتفالكون الى لاتيسانا وعبر الريف المسطح . كان لديه سائق بارع ، وكان قد استرخى استرخاء كاملاً في مقعد السيارة الأمامي ، وراح يسرح طرفه في ذلك الريف الذي عرفه منذ صباه الأول .

إنه يبدو الآن مختلفاً جداً ، كذلك قال في ذات نفسه . واحسب ان مرد ذلك الى ان المسافات قد تغيرت كلها . ان كل شيء يصبح أصغر بكثير عندما تتقدم بك السن . والى هذا ، فالطرق هي الآن أفضل من ذي قبل ، وليس ثمة غبار . أنا لم اجتزها في ما مضى إلا على متن شاحنة من الشاحنات . أما في سائر الأحوال الاخرى فكان من دأبنا أن نسلكها مشياً على الاقدام . واحسب ان ما بحث عنه آنذاك كان رقع الظل عندما نكصنا على أعقابنا ، والآبار في أفنية المزارع . والحنادق ، ايضاً ، كذلك قال في ذات نفسه . لقد بحثت من غير ريب عن كثير من الحنادق .

وانعظفاً ، وعبرا الى « تاغليامنتو » فوق جسر مؤقت . كانت الضفتان خضراوين ، وكان الناس يصطادون السمك على الشاطئ البعيد حيث يعمق النهر . وكان الجسر المنسوف يصلح بدمدمة مطارق مسمرة . وعلى مبعده ثمانية ياردة بدت المباني والمباني الملحقة التي دمرتها

الحرب والتي كانت الآن مجرد بيت ريفي^١ خرب بناه «لونجينا» في يوم من الأيام .. اقول بدت حيث كانت وسائل التدمير قد أفرغت أحمالها . وقال السائق : « انظر اليها . في هذا البيت تجد جسراً أو محطة للسكة الحديدية . فاذا ابتعدت نصف ميل من هنا ، في أي اتجاه ، تجد كل شيء على هذه الشاكلة . »

فقال الكولونيل : « يخيّل الي ان العظة المستفادة من ذلك هي : لا تبني لنفسك بيتاً ريفياً أو كنيسة أو تكلف « غيوتو »^١ بأن يرسم لك أية لوحات جدارية — اذا كانت لديك كنيسة — على مبعدة ثقل^٢ عن ثمانية ياردة من أي^٣ جسر . »

فقال السائق : « كنت واثقاً من أنه لا بد أن يكون في ذلك عظة ، يا سيدي . »

كانا قد تخطّيا ، الآن ، الدارة المدمرة ، وانطلقا في الطريقة المستقيمة وشجرات الصفصاف النامية على مقربة من الخنادق لا تزال داكنة بحكم فصل الشتاء ، والحقول حافلة^٤ بشجرات التوت . وأمامها كان رجل يدير برجليه درّاجة ، مستعملاً كلتا يديه من أجل قراءة إحدى الصحف . فقال السائق : « اذا كان ثمة مدفعية ثقيلة فيتعين على العظة ان تقول ميلاً واحداً . اليس هذا قريباً الى الصواب ، يا سيدي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « واذا كان ثمة قذائف موجهة يصبح من الأفضل جعل المسافة مئتين وخمسين ميلاً . من الخير أن تزّمر ، الآن ، لراكب الدراجة . »

وامتثل السائق الأمر^٥ ، فتحوّل الرجل الى جانب الطريق من غير ان يرفع بصره أو يمس مقود الدراجة بيديه . وفيما هما يتجاوزانه ، حاول

١ — Giotto رسام ونحات فلورنسي شهير ، ولد حوالي عام ١٢٦٦ وتوفي عام ١٣٧٧ . (المغرب)

الكولونيل ان يرى أية صحيفة كان يقرأ ، ولكنها كانت مطوية . «
- «يخيل اليّ ان من الخير للمرء الآن ان لا يبني لنفسه بيتاً أنيقاً
او كنيسة وأن لا يكلف من ذكرت برسم اللوحات الجدارية له - من
كان هذا الذي ذكرته ؟»

- «لقد ذكرت غيوتو . ولكن من الجائز ان يكون «بيرو ديلا»
فرانيسكا^١ أو «مانتينيا»^٢ . وقد يكون ميكال آنجلو . «
فسأله السائق : «هل تعرف اشياء كثيرة عن الرسامين ؟»

كانا الآن قد انتهيا الى جزء من الطريق ذي امتداد مستقيم ، وكانا
مسرعين بحيث اختلطت المزارع - على نحو مشوش تقريباً - بعضها
ببعض ، وبحيث لم يكن في امكانك ان ترى إلا ما هو أمامك في
المدى البعيد ، وما كان مقبلاً نحوك . كانت الرؤية الجانبية مجرد تكثيف
للريف الخفيض المستوي في الشتاء . انا لست واثقاً من انني احب السرعة ،
كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . ولقد كان خليقاً بـ «بروغهيل»^٣
أن يكون في أسوأ حال لو تحتم عليه أن يرى الى الريف على هذا النحو .
- «الرسامين ؟» كذلك اجاب عن سؤال السائق . «أنا لا اعرف
عنهم إلا النزر اليسير ، يا بيرنهام . «

- «أنا جاكسون ، يا سيدي . ان بيرنهام هناك في مركز الاستراحة
في كورتينا . انه مكان رائع ، يا سيدي . «
فقال الكولونيل : «لقد بدأت أخرف . اعذرني ، يا جاكسون .

١ - Piero Della Francesca رسام ايطالي ولد حوالى عام ١٤٢٠ وتوفي عام ١٤٩٢ (المغرب) .

٢ - Mantegna رسام ونقاش ايطالي ، ولد عام ١٤٣١ وتوفي عام ١٥٠٠ (المغرب)

٣ - Brueghel رسام فلاندري اشتهر بلوحاته التي تمثل جمال الريف ١٥٢٥ ؟ -
١٥٦٩ (المغرب) .

ذلك مكان رائع . وطعام جيد . انت تغالي في الامراع . ان احداً لا يزعجك . »

فأقرّه جاكسون على ذلك قائلاً : « نعم يا سيدي » والآن ، ان السبب الذي من اجله سألتك عن الرسامين هو صور السيدة العذراء . لقد اعتقدت ان عليّ ان ارى بعض اللوحات الفنية فلم يكن مني الا ان ذهبت الى ذلك المتحف الضخم في فلورنسة . »

— « الأوفيزي ؟ البيتي ؟ »

— « ممتّ ما شئت » لقد ذهبت الى اكبر تلك المتاحف . ولقد ظلت انظر الى تلك الرسوم الزيتية حتى شرعت صور السيدة العذراء تجري من اذنيّ . اقول لك ، أيها الكولونيل ، يا سيدي ، ان الرجل غير المتمتع بثقافة فنية حسنة لا يستطيع أن يرى عدداً كبيراً من صور السيدة العذراء من غير أن تثور أعصابه . لقد فهمت نظريتي ؟ أنت تعلم ولوع الناس بالأولاد ، وانه كلما قل الطعام المتوفر عندهم زاد عدد الأولاد الذين أنجبوهم أو الذين سوف ينجبونهم ... حسناً ، يخيل الىّ ان هؤلاء الرسامين كانوا في اغلب الظن محبين كباراً للأولاد ، مثل جميع الايطاليين . أنا لا اعرف اولئك الذين ذكرتهم منذ لحظة ، ومن أجل ذلك لا أدخلهم ضمن نطاق نظريتي ، ولسوف تصحّحني على اية حال . ولكن يبدو لي وكأن صور السيدة العذراء هذه التي رأيت في الواقع كثيراً منها ، يا سيدي ... يبدو لي وكأن رسامي هذه الصور العاديين كانوا ظاهرة ما من ظواهر مسألة حب الأولاد هذه ، ان كنت فهمت ما أعنيه . »

— « مضافاً الى هذه الحقيقة ، وهي انهم قَصَرُوا أنفسهم على الموضوعات الدينية . »

— « نعم ، يا سيدي . واذن ، فأنت تعتقد أن في نظريتي شيئاً من الصحة ؟ »

— « من غير ريب ، ولكنني أحسب أنها معقّدة بعض الشيء . »

- « هذا طبيعي ، يا سيدي . إنها مجرد نظرية تمهيدية . »
- « هل لديك أية نظريات أخرى في الفن ، يا جاكسون ؟ »
- « لا ، يا سيدي . أن نظرية الأولاد تلك هي أقصى ما فكرت فيه . ومع ذلك فأني أتمنى لو يرسمون بعض اللوحات الجيدة التي تمثل تلك الارياف المرتفعة المحيطة بمركز الاستراحة في كورتينا . »
فقال الكولونيل : « لقد وُلِدَ تيتيان ^١ هناك . أو هذا ما يقولونه على الأقل . لقد هبطت ذلك الوادي وشاهدت المنزل الذي يُفترض أنه وُلِدَ فيه . »

- « هل كان موطناً رائعاً ؟ »

- « ليس الى حد بعيد . »

- « حسناً ، لو أنه رسم بعض اللوحات التي تمثل ذلك الريف المحيط بمركز الاستراحة هناك ، مع تلك الصخور المصطبغة بلون الغروب ، ومع شجرات النخيل ، والثلج ، وجميع تلك الابراج المستدقة ... »
فقال الكولونيل : « الكامبانيلات ^٢ . مثل ذلك البرج الذي تراه أمامك عند سيغيا . »

- « حسناً ، لو أنه رسم أيما لوحات جيدة فعلاً تمثل ذلك الريف اذن لحصت كل الحرص على شراء بعضها منه . »

فقال الكولونيل : « لقد رسم بعض النسوة الفاتحات . »
فقال السائق : « لو كنت أملك محششة ، أو 'نزلاً' على الطريق ، أو خاناً من الخانات ، لكان في استطاعتي أن استعمل واحدة من تلك اللوحات . أما اذا حملت الى البيت صورة امرأة ما ، فعندئذ

١ - Titian رسام ايطالي عظيم ، ولد حوالي عام ١٤٧٧ وتوفي عام ١٥٧٦ .
٢ - campaniles لفظة ايطالية تعني ابراج الاجراس ، وقد ابقيناها بلفظها الاجنبي لأن المؤلف عمد الى شرحها على لسان الكولونيل كما يلاحظ القاريء . (المعرب)

تطردني زوجتي من راولتز الى بافالو . ولسوف أكون سعيداً اذا وصلت الى بافالو سالماً . »

- « في استطاعتك ان تقدمها الى المتحف المحلي . »
- « كل ما عندهم في المتحف المحلي نصال سهام ، ونخوذ حربية ، ومُمدى تسليح جلد الرأس ، وجماجم مختلفة ، وسمك متحجر ، وبيبات (أو غلايين) تبغ كان يستعملها الهنود الحمر ، وصور فوتوغرافية لجونستون آكل الأكباد ، وجلد رجل شرير كانوا قد شنقوه وكان احد الأطباء قد سلخه عنه سلخاً . وهكذا ترى أن تعليق أيما لوحة من تلك اللوحات النسوية ، في ذلك المتحف ، هو من باب وضع الشيء في غير محله . »
فسأله الكولونيل : « هل ترى برج الاجراس التالي القائم هناك عبر السهل ؟ سوف أريك مكاناً هناك حيث كان من دأبنا أن نقاتل عندما كنتُ غلاماً . »

- « وهل قاتلت هنا ، ايضاً ، يا سيدي ؟ »
فقال الكولونيل : « أجل . »
- « من كان مسيطراً على تريستا في تلك الحرب ؟ »
- « الكراوتس . ' النمساويين أعني . »
- « وهل استولينا نحن عليها في وقت ما ؟ »
- « لم نستول عليها إلا عند نهاية الحرب ، بعد ان انتهى كل شيء . »
- « ومن كان مسيطراً على فلورنسا ورومة ؟ »
- « نحن . »
- « حسناً ، يخيل اليّ أننا لم نكون في حال رديئة الى حد لعين آنذاك . »

فقال الكولونيل في لطف : « قل سيدي . »

فسارع السائق الى القول : « أنا آسف ، يا سيدي . لقد كنت في
الغرفة السادسة والثلاثين ، يا سيدي . »

— « لقد رأيت الكتافة . »

— « كنت افكر في الرايبدو^١ ، يا سيدي . أنا لم أرِدْ ان اكون
وقحاً أو قليل الاحترام . »

فقال الكولونيل : « لا ، انت لم ترد ذلك . كنت تفكر في
الرايبدو ليس غير . اسمع ، يا جاكسون ، ان كل من سلخ فترة طويلة
في الجندية كان له « رايبدو » خاص به ، أو اكثر من رايبدو واحد . »
— « لم يكن في امكاني أن آخذ اكثر من واحد ، يا سيدي . »

واخترقت السيارة مدينة سان دونا دي بيافا البهيجة . كانت عامرة
وجديدة ، ولكنها لم تكن اكثر قبحاً من مدن الغرب الاوسط في
الولايات المتحدة ، وكانت مزدهرة مبتهجة بقدر ما كانت فوسالتا ،
القائمة هناك على منبع النهر ، بأسة كئيبة ، كذلك قال الكولونيل في
ذات نفسه . ألم تتعافَ فوسالتا من داء الحرب العالمية الأولى البتة ؟
أنا لم ارها قط قبل ان تدمر ، كذلك قال في ذات نفسه . لقد قصفوها
قصفاً عنيفاً قبل الهجوم الكبير في الخامس عشر من حزيران (يونيو)
عام ثمانية عشر . ثم قصفناها نحن قصفاً قاسياً حقاً قبل ان نستردها .
وتذكرَ كيف بدأ الهجوم من موناستيه ، واجتاح فونائيس ، وفي
ذلك اليوم الشتوي تذكرَ كيف جرت الامور ذلك الصيف .

ومنذ بضعة أسابيع خلت كان قد جاس خلال فوسالتا ، وكان قد
مضى فسلك الطريق الغائرة بحثاً عن الموضع الذي كان قد اصيب فيه ،
عند ضفة النهر . ولم يكن من العسير عليه أن يجد ذلك الموضع بسبب
من التواء النهر ، وفي المكان الذي كان مركز المدفعية الثقيلة قائماً فيه

١ - نهر في ايطالية . (العرب)

كانت الفجوة التي أحدثها الانفجار في الأرض مكسوة بعشب ناعم . كانت قد حصدها بعض الخراف أو الماعز حتى بدت أشبه بوهدة اصطناعية في ميدان غولف . هنا كان النهر يجري بطيئاً ، وكان ازرق موحلاً . وقد اكتنف القصب حافته . واذ لم تقع عين الكولونيل على احد فقد جلس القرفصاء ، وراح ينظر عبر النهر من الضفة التي لم يكن في ميسورك ان تطلع فيها رأسك في ضوء النهار ، واسترخى في عَيْن ذلك الموضع الذي كان قد قرّر ، من طريق تحديد المكان بالمسح التلثي ، أنه 'جرح فيه على نحو بليغ' لثلاثين سنة خلت .

- « جهد ضئيل » ، كذلك قال في صوت عالٍ مخاطباً النهر وضفة النهر اللذين كانا كثيبين بسكينة الخريف ، نديئين بمطاره . « ولكنه جهدي أنا . »

ونهض وأجال طرفه في ما حوله . لم يكن في مدى البصر احد ، وكان قد غادر السيارة هناك في الطريق الغائرة قبالة آخر وأحزن بيت اعيد بناؤه في فوسالتا .

- « الآن سوف اتم اقامة النصب التذكاري » ، كذلك قال موجهاً الخطاب الى الموتى ليس غير ، واخرج من جيبه مطواة كبيرة عتيقة من مطاوي سولنجن^١ كتلك التي يحملها 'سراق الصيد' الالمان . وثبتت شفرتها عند الفتح ، فما كان من الكولونيل إلا ان برّمها وحفر حفرة أنيقة في التربة الندية ، ونظف المطواة على فردة حذائه العسكري اليمنى ثم أقحم في الحفرة ورقة نقدية ممراء من فئة العشرة آلاف لير ، ثم طمرها بالتراب ووضع العشب الذي كان قد اقتلعه فوقها .

وقال : « هذه عشرون سنة ، بخمسمئة لير للسنة الواحدة ، من أجل « المداية الفضية للبرالة العسكرية » Medaglia d'Argento al Valore

١ - مدينة في غرب المانيا شهيرة بفولادها ،

Militaire . إن الـ « في . سي » V.C. ^١ ليغلّ عشرة جنيهاً ، في ما أعتقد . والـ « دي . اس . سي » D.S.C. ^٢ عقيم لا ينتج شيئاً . أما النجمة الفضية فمجانبة . ولسوف احتفظ بالباقي . »

إنه رائع الآن ، كذلك قال في ذات نفسه . إنه يشتمل على زبل ، ومال ، ودم . انظر كيف ينمو العشب . والحديد مغروس في الأرض الى جانب رجل جينو ، ورجلي راندولفو الاثنتين ، ورَضْفِي ^٣ اليمنى . انه نُصبٌ رائع . نصب يتمتع بكل شيء . خِصْب ، ومال ، ودم ، وحديد . وهو يبدو لي وكأنه أمة . حيث يوجد الخِصْب ، والمال ، والدم ، والحديد ؛ تلك هي أرض الوطن . ومع ذلك فنحن في حاجة الى فحم حجري . يتعين علينا أن نجيء بشيء من الفحم الحجري .

ثم انه نظر عَبْرَ النهر الى البيت الابيض الذي أعيد بناؤه والذي كان في وقت مضى حجارة صغيرة ، وبصق في النهر . كانت بصقة طويلة ، ولقد افعلها افتعالاً .

وقال : « لم يكن في ميسوري أن أبصق تلك الليلة وما بعدها طوال فترة غير قصيرة . ولكني أبصق الآن أحسن ما يكون البصق بالنسبة الى رجل لا يمضغ اللبان . »

وقال : « استيقظ يا بني . استدر بها واسلكِ الطريق المفضية الى تريفيزو . لن نحتاج الى خريطة في هذا الجزء من البلاد . سوف ارشدك الى الاتجاه عند كل منعطف . »

١ - يقصد وسام « صليب فيكتوريا » Victotia Cross (المعرب) .

٢ - يقصد وسام « صليب الخدمة الممتازة » Distinguished Service Cross (المعرب) .

(المعرب) .

٣ - الرضفة : عظم الركبة المتحرك .

كان الآن في سبيله الى البندقية ، محتفظاً برباطة جأشه على نحو صارم ، غير مفكر في حاجته الملحة إلى ان يكون هناك . وكانت سيارة «بيوويك» الكبيرة قد اجتازت الجزء الاخير من مدينة «سان دونا» ، وتقدمت نحو الجسر القائم فوق نهر «بيافا» .

وعبرا الجسر ، وانتهيا الى الجانب الايطالي من النهر ، فرأى الطريق القديمة الغائرة كرة اخرى . كانت الآن ممهدة وغير جلية ، كما كانت على طول النهر . ولكنه استطاع أن يلحح المواقع القديمة . والآت وعلى كل جانب من جانبي الطريق المستقيمة المستوية المكتنفة بالقناة والتي انطلقا فيها بسرعة بالغة ، كانت شجرات صفصاف القناتين اللتين اشتملتا في وقت ما على جثث القتلى . كانت قد جرت مذبحه عظيمة في ختام الهجوم ، وكان بعضهم قد اصدر أمره - لتحرير الطريق والمواقع القائمة على ضفة النهر ، في ذلك الجو القائظ - بأن تلقى جثث القتلى في القناتين . ولكن أبواب القناتين كانت لا تزال ، لسوء الطالع ، في أيدي النمساويين ، عند مصب النهر ، وكانت موصدة .

وهكذا حُرمت المياه القدرة على الحركة ، إلا قليلا ، فلبثت الجثث هناك فترة طويلة ، طافية "منتفخة" وقد تمدد بعضها على الظهر وبعضها على الصدر ، بصرف النظر عن القومية والجنسية ، حتى تضخمت تضخماً

هائلا . وأخيراً ، بعد انشاء الحكومة ، رفعتها جيوش العمال من هناك ،
تحت جناح الظلام ، ودفنتها على مقربة دانية من الطريق . والتمس
الكولونيل مزيداً من الاخضرار غير بعيد عن الطريق ولكن بصره لم
يقع على شيء من ذلك . بيد أنه كان في القناتين كثير من البط والاوز ،
وكان الناس يصطادون السمك فيها على طول الطريق .

لقد اخرجوا الجثث كلها من هناك على أية حال ، كذلك قال
الكولونيل في ذات نفسه ، ودفنوها في تلك المقبرة الكبيرة المحاذية
للـ « نيرفيزا » .

وقال الكولونيل للسائق : « لقد حاربنا هنا يوم كنت غلاماً . »
فقال السائق : « إنه ريف شديد الاستواء الى حد لعين يجعله غير
صالح للقتال . هل استوليتم على ذلك النهر ؟ »
فأجابه الكولونيل : « أجل . لقد استولينا عليه ، ثم خسرناه ، ثم
استرجعناه كرّة أخرى . »

— « ليس ثمة أي خطّ حديديّ هناك ، على مدى ما يسرح النظر . »
فقال الكولونيل : « تلك كانت هي المشكلة . كان عليك أن تستعمل
حدوداً حديّة لم ترها ، فقد كانت بالغة الصغر ، وخنادق ، وبيوتاً ،
وضفاف قنوات ، ووشائع^١ . كان ذلك الريف اشبه شيء بنورمانديا ،
إلا انه اشدّ منها استواءً . واحسب أن القتال هناك كان اقرب ما
يكون الى القتال في هولندة . »

— « ليس من ريب في ان هذا النهر لا يشبه نهر « رابيدو »
في شيء . »

فقال الكولونيل : « لقد كان نهراً عتيقاً صالحاً . فهناك في عاليته

١ الوشيع : سياج من نباتات يجعل حول الحديقة صيانة لها من الطائرئين .

كان غزير المياه آنذاك ، قبل أن تتفد هذه المشاريع الكهربائية كلها . وكانت له مجارٍ كثيرة معقدة شديدة العمق بين الحصى والحصباء حين يسي ضحلاً . «

كان يعلم كم هو مضجر أن يتحدث أيما امرئ عن الحرب التي خاضها الى أيما امرئ آخر فكف عن الكلام عليها . إن الناس يفهمون الحرب من زاويتهم الشخصية دائماً ، كذلك قال في ذات نفسه . وإن أحداً لا يُعنى بها ، على نحو تجريدي ، ما خلا الجنود ، وما أقلتهم . انك تصنعهم صنعا ، والجنود الصالحون يقتلون في ساحة المعركة . والى هذا ، فهم يبحثون دائماً عن شيء عنيف بحثاً يجعلهم لا ينظرون أبداً ولا يصغون أبداً . إنهم لا يفتأون يفكرون في ما سيقولونه وفي ما قد يعود عليهم به ذلك القول من تقدم أو فائدة . ولم يكن ثمة أي حكمة في إضجار هذا الغلام ، الذي لم يكن - رغم شعار المشاة و « القلب الأرجواني »^١ والأشياء الأخرى التي يحملها - جندياً بآية حال ، لكن مجرد رجل ألبس بالرغم منه بزة عسكرية ، ثم اختار البقاء في الجيش لأغراضه الخاصة .

وسأله الكولونيل : « ماذا كنت تعمل في الحياة المدنية ، يا جاكسون ؟ »

- « كنت شريكاً لأخي في مرأب في راوالتز ، بولاية ويسومنج ، يا سيدي . »

- « وهل ستعود الى هناك ؟ »

فقال السائق : « لقد قُتِل أخي في المحيط الهادئ ، ولم يكن الغلام

١ - Purple Heart مدالية اميركية تمنح لكل من جرح خلال الخدمة العسكرية . (المعرب)

الذي تولى ادارة المرائب غلاماً نافعاً . وهكذا بخسرنا ما كنا قد انفقناه على تأسيسه . »

فقال الكولونيل : « هذا مؤسف . »

— « انت على حق الى حد معين في قولك انه مؤسف . » كذلك قال السائق ثم اضاف : « سيدي . »

ورفع الكولونيل بصره ليرى الى الطريق .

كان يعلم أنها ان واصلا الانطلاق في هذه الطريق فسوف يصلان ، عما قريب ، الى ذلك المنعطف الذي كان ينتظر بلوغه . ولكنه كان نافذ الصبر .

وقال للسائق : « افتح عينيك جيداً وانعطف الى يسارك على الطريق التي تبعد بنا عن بوابة المكوس هذه . »

— « هل تعتقد ان هذه الطرق المنخفضة سوف تصلح لانطلاق هذه السيارة الكبيرة ، يا سيدي ؟ »

فقال الكولونيل : « سوف نرى . يا للجحيم ، أيها الرجل ، ان السماء لم تمطر هذه الاسابيع الثلاثة . »

— « أنا لا اطمئن الى هذه الطرق الجانبية في هذا الريف الخفيض . »

— « اذا ما تعذر علينا السير في تلك الطرق فسوف أكلف الثيران باخراجك منها . »

— « لقد كنت افكر في السيارة ليس غير ، يا سيدي . »

— « حسناً ، فكّر في ما قلته لك ، وانعطف عند أول طريق

تجدها الى يسارك اذا بدا لك أن ذلك امرٌ عمليّ . »

فقال السائق : « ذلك يبدو أشبه شيء بانبثاق المرء ... من الوشائع . »

— « ليس ثمة شيء وراءك البتة . كل ما عليك ان تفعله هو ان

تقود السيارة الى ما وراء المنعطف بقليل ، ولسوف أعبّر والقي نظرة . »

وترجل من السيارة ، ومشى عبر الطريق العريضة الصلبة السطح

والقى نظرة على الطريق الضيقة القذرة ، وقد قامت الى جانبها القنارة
لمتدفقة ، ونهض خلفها الوشييع الكثيف . وخلف الوشييع رأى بيتاً
خفيضاً أحمر قائماً وسط مزرعة ، وعلى مقربة منه عنبر ضخمة . كانت
الطريق جافة . ولم يكن فيها حتى أخاديد عربات نقل . ثم إنه انقلب
عائداً الى السيارة .

وقال : « إنها جادة مشجرة . ألقِ عن القلق . »

- « امرك ، يا سيدي . انها سيارتك ، يا سيدي . »

فقال الكولونيل : « أدري . وأنا لم أفرغ بعد من دفع أقساطها .
قل لي ، يا جاكسون ، هل تعاني دائماً هذا الغنى كله كلما انتقلت من
طريق سلطانية الى طريق ثانوية ؟ »

- « لا ، يا سيدي . ولكن ثمة فرقاً كبيراً بين سيارة جيب وبين
سيارة منخفضة الأحشاء مثل هذه . هل تعرف ما هو ارتفاع هيكل
هذه السيارة وترسها التفاضلي (ديفرنسيال) عن الأرض ؟ »

- « ان عندي في صندوق السيارة مجرفة وبعض السلاسل . انتظر حتى
ترى الى أين نحن ذاهبان بعد أن تغادر البندقية . »

- « وهل سنجتاز الطريق كلها بهذه السيارة ؟ »

- « لست أدري . سوى أرى . »

- « فكر في حواجز الاصطدام التي زوّدت بها سيارتك ، يا سيدي . »

- « سوف نختصر هذه الحواجز ، كما يفعل الهنود الحمر في او كلاهوما . »

انها الآن مثقلة بالحواجز . بل انها مثقلة اكثر مما ينبغي بكل شيء ما
خلا المحرك . ان لها محركاً رائعاً ، يا جاكسون . »

- « انه رائع من غير شك ، يا سيدي . وانه لمن المتعة أن يقود

المرء هذا المحرك الضخم فوق الطرق الصالحة . وهذا هو السبب الذي من
أجله لا اريد أن يصيبها أي شيء . »

- « هذا خدّ جميل منك ، يا جاكسون . والآن كفّ عن التأم . »

— « لست أتألم ، يا سيدي . »

فقال الكولونيل : « حسن . »

ولم يكن هو الآخر متألماً ايضاً . لأنه رأى في تلك اللحظة ، خلف خط الاشجار السمراء المتراصّة القائم أمامه ، مركباً شراعياً يجري . كان مركباً شراعياً كبيراً أحمر ، منحرفاً الى ادنى انحرافاً حاداً ، متهادياً في أناة خلف الاشجار .

لماذا يهز نياط قلبك ، دائماً ، ان ترى شراعاً يجري في الريف ؟ كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . لماذا يهز نياط قلبك أن ترى الثيران الكبار ، البِطاء الشاحبة ؟ لا ريب في ان ذلك راجع الى تهاديها ، بقدر ما هو راجع الى مظهرها ، وحجمها ولونها .

ولكن مشهد بغل ضخّم رائع ، او صفٍ من بغال النقل في حالة جيدة ، خليق به ان يهز نياط قلبك ايضاً . وكذلك شأنُ القيّوط^١ ، كلما قدّر لي أن أرى قيّوطاً ، وشأن الذئب ، الذي يمشي كما لا يمشي ايّ حيوان آخر ، رمادياً واثقاً من نفسه ، حاملاً ذلك الرأس الثقيل ذا العينين الراشحتين بالعداوة والبغضاء .

— « هل قدّر لك ان ترى اياماً ذئب في راولنز ، يا جاكسون ؟ »

— « لا ، يا سيدي . لقد انقرضت الذئاب قبل ايامي . لقد دسّوا

لها السم في الطعام . ولكن القيّوط عندنا كثير . »

— « هل تحب القيّوط ؟ »

— « انا احب ان اسمع صوته في الليل . »

— « وكذلك أنا . إني احب ذلك اكثر من اي شيء آخر ، ما خلا

رؤية مركب شراعي يتهادى في مياه الريف . »

— « هو ذا مركب يفعل ذلك ، هناك ، يا سيدي . »

فأجابه الكولونيل : « في قناة سايل . انه مركب نقل شراعي

١ - القيّوط coyote : ضرب من الذئاب الاميركية .

ذاهب الى البندقية . الريح تهب من ناحية الجبال الآن وهي تدفعه دفعا حسنا . ومن المحتمل ان يشتد البرد الليلة اذا استمرت الريح في الهبوب ، ولا بد ان تجلب عدداً كبيراً من البط . انعطف الى يسارك ، هنا ، ولسوف تنطلق في محاذاة القناة . ان هناك طريقاً جيدة . »

- « لم يكن ثمة ، في مسقط رأسي ، صيد بط يستحق الذكر . ولكن ثمة صيداً وافراً في نبراسكا على محاذاة البلاتا ^١ »

- « اتريد أن تصطاد البط في المكان الذي تقصد اليه ؟ »

- « لست اعتقد ذلك ، يا سيدي . انا لست قناصاً بارعاً ، واني

لأوثر البقاء في تلك السترة القصيرة الفضفاضة . إنه صباح يوم من ايام الأحد ، كما تعلم . »

فقال الكولونيل : « أعلم . في استطاعتك ان تبقى في تلك السترة حتى الظهر ، اذا شئت . »

- « لقد جئت بدوائي المزيل للطفح الجلدي . ان عليّ ان أنام نوماً عميقاً . »

فقال الكولونيل : « لست واثقاً من انك ستحتاج اليه . هل جئت بشيء من جرايات الطواريء أو من « العشرة في واحد » ؟ من المحتمل ان يطنعموا مآكل ايطالية ، كما تعلم . »

- « لقد جئت ببعض المعلبات لأكمال النقص وبأشياء قليلة أخرى لتقديمها اليهم . »

فقال الكولونيل : « هذا حسن . »

كان الآن ينظر قدامه ليرى أين تلتقي طريق القناة بالطريق السلطانية الرئيسية كرة أخرى . وهناك كان واثقاً من انه سوف يراها في يوم صاح كيومه ذاك . وعبر الأراضي السبخة - السمراء مثل تلك

١ - Platte نهر معروف في نبراسكا الوسطى ، بالولايات المتحدة . (المعرب)

الاراضي المنبسطة عند مصابّ المسيسي حول «بيلوت تاون» في الشتاء ،
وقد انحنت قصباتها تحت ريح الشمال العنيفة - رأى برج الكنيسة المربع
في تورشيلو ، و برج اجراس بورانو السامق خلفه . كان البحر ازرق
أردوازيًا ، وكان في ميسوره ان يرى اشرعة اثني عشر مركبًا من مراكب
النقل المتهادية مع الريح في اتجاه البندقية .

سوف يتعين عليّ ان انتظر حتى نعبّر نهر «ديز» فوق «نوغيرا» لأراها
احسن رؤية ، كذلك قال في ذات نفسه . انه لمن الغريب ان أتذكر كيف
قاتلنا بعيداً هناك على طول القناة ، ذلك الشتاء ، لكي ندافع عنها
من غير أن نراها قط . ثم اني وجدت نفسي ، ذات مرة ، على ابواب
نوغيرا ، وكان الجو صافياً بارداً كشأنه اليوم ، ورأيتها عبر الماء .
ولكن لم ادخلها قط . ومع ذلك فهي مدينتي ، لأنني قاتلت من اجلها
يوم كنت غلاماً . والآن وقد بلغت من العمر نصف قرن يعرف الناس
اني قاتلت من اجلها واني شريك لهم في ملكيتها ، وهم يحسنون معاملتي .
وسأل نفسه : «أتحسب ان هذا هو السبب الذي من اجله يحسنون
معاملتك ؟»

ربما ، كذلك قال في ذات نفسه . لعلمهم يحسنون معاملتي لاني كولونيل
غُرّ من رجال المعسكر المنتصر . ولكنني لا اصدق هذا . وعلى اية
حال فلست ارجو ان يكون الأمر كذلك . هذه ليست فرصة ، كذلك
قال في ذات نفسه .

هناك قاتلتَ شاقاً طريقك الى مدينة تحبها .. مدينة تحاذر محاذرة
شديدة ان تكسر فيها شيئاً ، وتحاذر ، فوق هذا - ان كنت حصيفاً
راجع العقل - ان ترجع اليها لانك سوف تلقى فيها بعض الرجال
العسكريين الذين سينقمون منك انك شققت طريقك اليها بقوة السلاح .

عاشت فرنسة وعاشت البطاطا المقلية . حوية ، اوتشاء ، وبلاهة !^١
ذلك هو الصفاء Clarté العظيم الذي يتسم به التفكير العسكري الفرنسي.
إنهم لم يُطلعوا مفكراً عسكرياً منذ «دو بيك» Du Picq . ولقد كان
كولونيلاً فاشلاً لعيناً ايضاً . مانجين Mangin ، ماجينو Maginot
وغاملان Gamlin . اختاروا من يحلو لكم ، ايها السادة . هي ذي ثلاثة
مذاهب . الاول يقول : انا اضربهم على الأنف . الثاني يقول : أنا
اختيء وراء الشيء الذي لا يحمي جناحي الأيسر . الثالث يقول :
أنا اخيء رأسي في الرمل مثل النعامة ، واثقاً من عظمة فرنسة كدولة
عسكرية ثم اولي الادبار .

إن قولي « أولي الادبار » ليؤدي المعنى في كثير من الدعابة والظرف .
وليس من ريب ، كذلك قال في ذات نفسه ، انك كلما غاليت في تبسيط
الاشياء كان حكمك ظالماً . تذكر جميع العسكريين النابهين الذين أطلعتهم
« المقاومة » ؛ تذكر ان « فوش » برع في القتال والتنظيم معاً ، وتذكر
كم كان الناس رائعين . تذكر اصدقاءك الحميمين ، وتذكر موتاك .
تذكر اشياء كثيرة ، وخير اصدقائك كرة اخرى ، وأروع الناس الذين
تعرفهم . لا تكن لاذعاً ولا مغفلاً . وأي صلة لهذا بالجندي كصناعة ؟
عدّ عن هذا ، كذلك قال في ذات نفسه . فأنت تقوم برحلة للترويج
عن النفس .

وقال : « هل أنت سعيد ، يا جاكسون ؟ »

— « نعم ، يا سيدي . »

١ — هذه الجملة المنضدة بحرف اسود اثبتتها المؤلف بلفظها الفرنسي هكذا :

Vive la France et les pommes de terre frites . Liberté , Venalité,
et Stupidité .

- « حسن . سوف ننتهي عما قريب الى مشهد أريدك أن تراه .
وليس عليك الا ان تسرح طرفك فيه . ان العملية كلها سوف تكون
غير مؤلمة البتة . »

لست ادري لأي غرض يُناكدني الآن ، هكذا قال السائق في ذات
نفسه . المجرد أنه كان « بريغادير جنرال »^١ في يوم من الأيام يظن أنه
يعرف كل شيء ؟ ولو قد كان ناجحاً في النهوض بأعباء رتبته العسكرية
تلك فلم لم يحتفظ بها ؟ لقد خُفِقَ خفَقاً شديداً جعله مزيجاً من
بلادة وخبَل .

وقال الكولونيل : « هو ذا المشهد ، يا جاكسون . أوقف السيارة
عند جانب الطريق ، ولنلق نظرة . »

ومشى الكولونيل والسائق الى الجانب البندقي (الفينيسي) من الطريق ،
والقيا نظرة عبر اللاغون^٢ الذي كانت تُلهيه سياط الريح القارسة الهوجاء
المنبعثة من الجبال ... تلك الريح التي جعلت خطوط المباني كلها حادة
الزوايا فهي واضحة من وجهة هندسية .

وأوماً الكولونيل قائلاً : « هي ذي تورشيلو قبالتنا مباشرة » . في
ذلك المكان عاش الناس الذين اخرجهم القوط الغربيون من البر الأصلي .
لقد شيدوا تلك الكنيسة التي تراها هناك ببرجها المربع . وانما عاش
ثمة في يوم من الايام ثلاثون الف نسمة ، وقد بنوا تلك الكنيسة لكي
يمجدوا إلههم ويعبدوه . وبعد أن بنوها غصّ مصبّ نهر « سايل »
بالطمي ، أو غير الطوفان معاله ، فاذا بكامل تلك الارض التي انتهينا

١ - في الجيش الاميركي ، مرتبة بين الكولونيل والجنرال . (العرب)

٢ - المستنقع أو البحيرة الضحلة وخاصة ما اتصل منها بالبحر أو قرب منه .

اليها منذ لحظات مُغرقة ، واذا بها تُطلع البعوض وتُنسى بالملايا .
وشرع الناس كلهم يموتون ، وهكذا اجتمع شيوخ القوم وقرروا الارتحال
الى موطن صحيّ يمكن الدفاع عنه بالمراكب ، موطن يتعذر على
القوط الغربيين وعلى اللومبارديين وغيرهم من قطاع الطرق أن يبلغوه فيه ،
لأن قطاع الطرق هؤلاء لم تكن لديهم أية قوة بحرية . وكان غلمان تورشيلو
كلهم ملاحين ماهرين . وهكذا نقلوا حجارة بيوتهم كلها في مراكب
شراعية ، مثل تلك التي رأيناها منذ لحظة ، وبنوا البندقية .

وأمسك عن الكلام . ثم قال : « هل أوقع الضجر في نفسك ،
يا جاكسون ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي . لم تكن لديّ أي فكرة عن بُناة البندقية
الأولين . »

ـ « انهم غلمان تورشيلو . كانوا قوماً أشداء ، وكان لهم في البناء ذوق
رفيع . لقد اقبلوا من موطن صغير عند الشاطئ يدعى كاوورل .
ولكنهم وُفقوا الى حمل جميع سكان المدن والقرى المجاورة على اتباعهم
عندما اجتاحتها القوط الغربيون . ولقد كان فتى تورشيليا ذلك الذي كان
يهرّب الاسلحة الى الاسكندرية ، والذي وفق الى اكتشاف المكان الذي
دفن فيه القديس مرقس فهرّب جثثه تحت حمل من لحم الخنزير الغضّ
لكي يعجز حرس الكفار عن صدّه . وهذا الفتى حمل رفات القديس
مرقس الى البندقية ، وذلك القديس هو شفيعهم ، ولقد بنوا له كاتدرائية .
ولكنهم كانوا في تلك الفترة قد أوغلوا ، في تجارتهم ، في اتجاه الشرق
الى درجة جعلت الصبغة البيزنطية تغلب على فنهم المعماري في ما يخيّل
اليّ . إنهم لم يبنوا ما هو افضل منها إلا في نشأتهم الاولى في تورشيلو .
انظر . هي ذي تورشيلو هناك حقاً . »

ولقد كانت هناك حقاً .

- « ان ساحة القديس مرقس هي حيث تسرح اسراب الحمام ، وحيث تقوم تلك الكاتدرائية الضخمة التي تبدو وكأنها قصر من قصور السينا . ليست تبدو كذلك ؟ »

- « تماماً ، يا جاكسون . انت على قمة ذلك القصر ، اذا كنت تتصورها هكذا . والآن انظر الى ما وراء تورشيلو فسوف ترى برج الاجراس الرائع فوق بورانو ، ذلك البرج الذي لا يقل ميلاناً عن برج بيزا المائل . ان بورانو هذه جزيرة صغيرة مكتظة بالسكان أكثر مما ينبغي ، حيث النسوة يصنعن وشياً رائعاً ، وحيث الرجال يصنعون صورَ الطفل يسوع ويشغلون طوال ساعات النهار في مصانع الزجاج في تلك الجزيرة المحاذية التي تراهما الى وراء مع برج الاجراس الآخر ، والتي هي جزيرة مورانو . انهم يصنعون في ساعات النهار زجاجاً رائعاً للأثرياء من الناس في ارجاء العالم كله ، ثم يفيثون الى منازلهم بالزوارق البخارية الصغيرة ويصنعون صور الطفل يسوع . ان احداً منهم لا يخرج مع امرأته في الليل . وهم يصيدون البط ، في الليل ، ايضاً ، ببنادق كبيرة ، هناك على طول حافة الاراضي السبخة في هذا اللاغون الذي تنظر عبره الآن . فأنت تسمع طلقات بنادقهم ، في الليالي القمرية ، خلال ساعات الليل بطولها . » وأمسك عن الكلام .

- « والآن حين تنظر الى ما وراء مورانو ترى البندقية . تلك هي مدينتي . ان ثمة اشياء اخرى كثيرة كان في استطاعتي أن أريك اياها . ولكني اعتقد ان من واجبنا الآن ، في اغلب الظن ، أن ننطلق بالسيارة . ولكن ألق نظرة أخيرة وطويلة عليها . هذا هو المكان الذي تستطيع

ان ترى منه كيف حدث ذلك كله . ان احداً لا ينظر اليها من هنا
البتة . ،

– « انه مشهد جميل . شكراً لك ، يا سيدي . ،
فقال الكولونيل : « أو . كي . ١ فلننطلق بالسيارة . ،

١ – O · K . وتعني : حسن .

ولكنه ظل ينظر اليها ، ولقد كانت جميلة في نظره هازة لمشاعره كشأنها يوم كان في الثامنة عشرة ورآها اول مرة غير فاهم اي شيء منها وغير عارف من امرها إلا انها كانت جميلة . كان الشتاء قد أقبل قارساً شديد البرد ذلك العام ، وكانت جميع الجبال بيضاء خلف السهل . وكان النمساويون قد استشعروا ضرورة اقتحام خطوط عدوهم عند الزاوية التي شكّل فيها نهر «ساييل» وقاع نهر بيافا القديم خطوط الدفاع الوحيدة .

لو كنت تسيطر على قاع الـ «بيافا» القديم آنذاك اذن لكان وراءك نهر «ساييل» تنكفيء اليه اذا عجز الخط الاول عن الصمود . ووراء الـ «ساييل» لم يكن شيء غير سهل مترامي الأطراف ، وشبكة طرق جيدة تقضي الى سهل «فينيتو» وسهول لومباريا ، ولقد شنّ النمساويون هجومهم مرةً ومرةً ومرةً في اواخر فصل الشتاء لكي يحاولوا بلوغ هذه الطريق الممتازة التي كانا ينطلقان الآن فيها بسيارتها والتي تؤدي الى البندقية مباشرة . وذلك الشتاء كان الكولونيل - الذي لم يكن يومئذ غير ملازم ثانٍ ، وفي جيش اجنبي ، وهو ما جعله دائماً في ما بعد موضع ارتياب طفيف في جيش بلاده نفسه وجعل حياته العسكرية بعيدة عن النجاح - اقول ذلك الشتاء بطوله كان الكولونيل يشكو

التهاباً في الحنجرة . وانما نشأ ذلك الالتهاب في الحنجرة من المكث في الماء اكثر مما ينبغي . لم يكن في ميسورك آنذاك ان تنجو من البلل ، ولقد كان خيراً لك ان تبطل بسرعة وأنت تظل مبتلاً على نحو موصول .

كان حسن التنسيق يُعوز الهجوم النمساوي ، ولكنهم كانوا يواصلونه في غير انقطاع وكانوا مُحَنِّقِينَ ، فكان عليك بادية الأمر أن تتلقى القصف الذي كان مفروضاً فيه ان يشل نشاطك ، حتى اذا انحسرت موجة القصف القيت نظرة فاحصة على مواقعك وأحصيت رجالك . ولكن لم يكن لديك متسع من الوقت للعناية بالجرحى ، اذ كنت تعلم ان الهجوم سوف يُستأنف في الحال ، ثم انك قتلت الرجال الذين اقبلوا نحوّضين في الاراضي السبخة رافعين غداراتهم فوق الماء ، متقدمين بمثل بطء الخوّض في الماء حتى الحصر .

ولو انهم لم يوقفوا القصف عندما بدأ - كذلك قال الكولونيل ، الذي كان مجرد ملازم ثان آنذاك ، في ذات نفسه في كثير من الاحيان - فلست أدري ما الذي كان في وسعنا ان نفعله . ولكنهم كانوا يوقفونه دائماً ، ثم يستأنفونه بين يدي الهجوم .

ولو قد خسرتنا نهر «بيافا» القديم وانكفأنا الى نهر «ساييل» اذن لصوبوا نيرانهم الى خط القتال الثالث ، على الرغم من ان الاحتفاظ بهذين الخطين كان متعذراً ، وكان الواجب يقتضيه ان ينقلوا مدافعهم كلها الى مقربة دانية جداً وأن يطروها بقنابلهم طوال فترة هجومهم والى ان يتم لهم إحداث ثغرة في صفوفنا . ولكن مجنوناً ذا رتبة رفيعة يكون على رأس الهجوم دائماً ، والحمد لله . كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، ولقد قاموا بذلك على نحو منجّم متقطع .

وطوال ذلك الشتاء ، وفيما كان يشكو التهاباً حاداً في الحنجرة ، قتل رجالاً مزوّدين بأحمال من القنابل معلقة بكلايب شدّت تحت

اكتافهم ، حاملين رزماً ثقيلة مصنوعة من جلد العجل ، وُخَوِّذاً على شكل دلو . كانوا هم العدو .

ولكنه لم يُبغضهم البتة . لا ، ولم يكن بقادر على ان يضر أيّ حقد عليهم . كان يقود رجاله وقد طوّق حجرتة بحورب عتيق نُقِعَ بزيت التريبتين ، ولقد صدّوا الهجمات بنار الغدّارات وبالبنادق الاوتوماتيكية التي كانت لا تزال في متناولهم ، أو التي كانت لا تزال صالحة للاستعمال ، بعد القصف . لقد علم رجاله كيف يطلقون النار ، بالمعنى الحقيقي للتعبير ، وهي براعة نادرة في الجيوش الاوروبية ، وعلمهم ان يكونوا قادرين على النظر الى العدو حين يُقبل . واذ كان ثمة دائماً فترات هادئة يصبح فيها اطلاق النار حراً ، فقد أتعنوا ذلك وبرعوا فيه .

بيد أنه كان عليك دائماً ان تحصي وتحصي سريعاً بعد القصف لكي تعرف كم قانساً بقي لديك . ولقد اصيب ثلاث مرات ذلك الشتاء ، ولكنها كانت كلها جراحات صغيرة اقتصرت على لحم الجسد ولم تكسر العظم ، وكان قد أمسى على أتم اليقين من حصاته الشخصية بعد ان وثق من أنه كان من حقه أن يُقتل في قصف المدفعية الثقيلة الذي كان يسبق الهجمات دائماً . وأخيراً اصيب اصابة حقيقية والى الأبد . ان اياً من جراحاته الأخرى لم يقدر لها ان تفعل به ما فعله هذا الجرح البليغ . بخيل الى أن ذلك لا يعدو ان يكون ضياع الحصانة ، كذلك قال في ذات نفسه . حسناً ، إن هذه لخسارة ضخمة على أية حال .

لقد عَنَتَ هذه البلاد شيئاً كثيراً عنده ، اكثر مما يُحسن أو يستطيع ، أبداً الدهر ، الافضاء به الى احد من الناس ؛ ولقد استوى الآن في السيارة سعيداً لأنه سوف يجد نفسه ، بعد نصف ساعة اخرى ، في البندقية . وأخذ قرصتي « منيتول هيكسانيترايت » فنذ أن غدا قادراً دائماً على البصق ، ابتداء من عام ١٩١٨ ، أصبح في ميسوره ان يأخذ هذه الأقراص من غير ماء .

وسأل السائق : « كيف انت ، يا جاكسون ؟ »

— « عظيم ، يا سيدي . »

— « أسلكُ الطريق الخارجية اليسرى عندما تبلغ المنعطف المفضي الى ميستر ،
ولسوف يكون في ميسورتنا ان نرى المراكب على طول القناة ونجتنب السير
في خط المواصلات الرئيسي هذا . »

فقال السائق : « نعم ، يا سيدي . هل لك ان تنبهني حين
تبلغ المنعطف ؟ »

فأجابه الكولونيل : « طبعاً . »

كانا يقتربان من «ميستر» في سرعة ، وكان ذلك اشبه شيء بالذهاب
الى نيويورك لأول مرة قدر لك ان تذهب فيها الى هناك ، في الأيام
الحالية ، حين كانت مشرقة ، بيضاء ، جميلة . لقد انسلت الى هناك
خلسة ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكن هذا كان قبل ان تصبح
سماؤها ملبدة بالدخان . نحن ذاهبان الى مدينتي ، كذلك قال في ذات
نفسه . وحق المسيح ، انها لمدينة محببة الى القلب .

واستدارا عند المنعطف الأيسر ، وخاذيا القناة حيث شدت مراكب
صيد السمك ، ونظر الكولونيل اليها وكان قلبه مبتهجا بسبب من
الشباك السمراء واشراك السمك المصنوعة من أغصان مجدولة ، وصفوف
السفن الجميلة النظيفة . ولم يكن ذلك لأنها جد مائعة . الى الحجم بكل
ما هو جد مائع . لقد كانت جميلة الى حد لعين ليس غير .

واجتازا صف المراكب الطويل في القناة البطيئة التي حملت الماء من
الـ «برينت» ، وفكر في امتداد الـ «برينت» الطويل حيث كانت الدارات
الضخمة ، بمروجها وحدائقها وشجرات الدلب وشجرات السرو . إني
لأتمنى لو أذفنُ هناك ، كذلك قال في ذات نفسه . أنا أعرف المكان
معرفة حسنة جداً . ومع ذلك فلست أعتقد أن في امكاني ان ارتتب
هذه المسألة . لست ادري . انا اعرف أناساً قد يحيزون لي أن أذفن

في جباتهم . سوف أسأل البرتو . ولكنه قد يظن ان هذا تفكير سوداوي .

وكان قد فكر منذ فترة بعيدة في جميع المواطن الرائعة التي يتمنى لو يدفن فيها ، متسائلاً : 'تري في اية رقعة من رقاع الارض اودة أن أفنى بحيث أشكل جزءاً منها لا يتجزأ ؟ إن القسم المنتن المتعفن من شخصي لن يدوم ، في الواقع ، دهرأ طويلاً ، كذلك قال في ذات نفسه ، وعلى اية حال فأنت مجرد ضربٍ من التبن الذي يُصطنع لوقاية النباتات الصغيرة من الحر أو البرد ، وحتى العظام سوف تكون ذات نفع آخر الامر . إني لأحب أن أدفن عند حافة الاراضي التابعة لذلك البيت العتيق الانيق ، ولكن على مرأى منه ومن الشجرات الكبيرة الفارعة الطول . ولست أحسب ان ذلك سينطوي على كبير ازعاج لهم . ان في ميسوري أن أصبح جزءاً من الارض التي يلعب فيها الاطفال في الأمسيات ، أما في الأصباح فلعلمهم ان يكونوا لا يزالون يدرّبون خيلهم على الوثوب ، ولعل حوافر هذه الخيل أن تقرع ارض الحلبة ، ولعل الاطروط^١ ان يثب في البركة حين يشرع الذباب في التفقيص .

وكانا قد أمسيا الآن فوق الطريق المرتفعة الممتدة من ميستر الى البندقية حيث مصانع « بريدا » البشعة التي تذكرك بمدينة هاموند في انديانا .

وسأله جاكسون : « ماذا يصنعون هناك ، يا سيدي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « الشركة تصنع القاطرات في ميلانو . ان القوم هنا يصنعون قليلاً من كل شيء في الحقل التعديني . »

كان مشهد « البندقية » بشعاً الآن ، وكان الكولونيل يكره دائماً

١ - ضرب من السمك

هذه الطريق المرتفعة ، لولا أنها كانت توقع بعض المتعة في نفسك ، وتتيح لك رؤية القنوات والعوامات الخاصة بأرصاد السفن .

وقال لجاكسون : « هذه المدينة تكسب رزقها بعرق جبينها . لقد كانت في غابر الزمان ملكة البحار ، وابنائوها أولو بأس شديد ، وهم يبالون بالأشياء اقل مما يبالي كل من سوف يُقدَّر لك ابد الدهر أن تلتقيه . انها مدينة أقسى من شين^١ حين تعرفها معرفة جيدة ، وكل امرئ فيها بالغ اللطف والتهديب . »

— « انا لا اميل الى القول إن شين مدينة قاسية ، يا سيدي . »

— « حسناً ، انها أقسى من كاسبر^٢ . »

— « هل تعتبر كاسبر مدينة قاسية ، يا سيدي ؟ »

— « انها مدينة بترولية ، انها مدينة لطيفة . »

— « ولكني لا اظنها قاسية ، يا سيدي . أو أنها كانت في ايما يوم

يوم من الايام قاسية . »

— « حسن ، يا جاكسون . لعلنا ندور في حلقتين مختلفتين . أو

لعل لكل منا مفهوماً للكلمة مختلفاً . ولكن مدينة البندقية هذه ، وكل

من فيها لطيف مهذب ، لا تقل قسوة عن « كوك سيتي » ، بولاية

مونتانا ، في أيام « أولد تايمز فيش فراي »^٣ . »

— « ان ممفيس هي التي تمثل فكرتي عن المدينة القاسية . »

— « انها تمثل هذا الضرب من المدن كما تمثله تشيكاغو . ممفيس ليست

قاسية عليك إلا اذا كنت زنجياً . أما تشيكاغو فقاسية شمالاً ،

١ - Cheyenne عاصمة ولاية ويومنج Wyoming بالولايات المتحدة الاميركية (المعرب)

٢ - Casper مدينة في اواسط ولاية ويومنج بالولايات المتحدة الاميركية (المعرب)

٣ - لعلها أسم حانة أو نحوها . (المعرب)

وجنوباً - ليس هناك شرق - وغرباً . ولكن القوم كلهم يعوزهم التهذيب . أما في هذه البلاد فإذا أردت في أي يوم من الايام ان تعرف مدينة قاسية حقاً ، مدينة يعرف الناس فيها كيف يأكلون ، أيضاً ، فإذهب الى مدينة بولونيا .

- « انا لم اذهب الى هناك قط . »

فقال الكولونيل : « حسناً ، هناك مرأب «فيات» حيث تؤوي السيارة ، في استطاعتك ان تترك المفتاح في المكتب . انهم لا يسرقون . ولسوف امضي الى الحانة ريثما تؤوي السيارة فوق . ان لديهم أناساً سوف يجيئوننا بالحقائب . »

- « هل تحسب ان من الحكمة ان تترك بندقيتك وعدة القنص في

السيارة ، يا سيدي ؟ »

- « من غير ريب . انهم هنا لا يسرقون . لقد قلت لك ذلك مرة . »

- « لقد أردت أن اتخذ الاحتياطات الضرورية ، يا سيدي ، لصيانة

بمتلكاتك الثمينة . »

فقال الكولونيل : « انت نبيل الى حدٍ يجعلك تتنا في بعض الأحيان . ازرع الوسخ من اذنيك واسمع ما اقله لك اول مرة . » فقال جاكسون : « لقد سمعتك يا سيدي . » ونظر اليه الكولونيل نظرة ترشح بالتأمل وبطريقته الفتاكة المألوفة .

ليس من ريب في انه ابن عاهرة جدير ، كذلك قال جاكسون

في ذات نفسه ، وإن في ميسوره ان يكون ظريفاً الى حد لعين .

- « اخرج حقيبتى وحقيبتك وأوقفها هناك . وافحص زيتك ، وماءك ،

وعجلاتك . » قال الكولونيل ذلك ومشى عبر اسمنت مدخل الحانة

الملطخ بالزيت والمطاط .

وحين دخل الحانة كان يجلس الى المائدة الاولى ثري ميلاني^١ من أثرياء الحرب ، بدين "جاف" كما لا يستطيع احد غير ابناء ميلانو ان يكون ، والى جانبه خليلته الفتاة ذات المظهر المترف . كانا يعاقران شراب الـ «نيغرونيس» ، وهو مزيج من الفيرموت وماء سيلتر المعدني ، وتساءل الكولونيل عن مقدار الضرائب التي احتال الرجل لعدم دفعها لكي يشتري تلك الفتاة الناعمة ذات السترة الطويلة المصنوعة من فرو النمس الثمين ، وتلك السيارة المكشوفة التي كان قد رأى سائقها يتقدم بها خلال المنحدر الطويل الملتوي لكي يُقفل عجلاتها ، بعد ، خشية الانزلاق . وحدّق الرجل وصاحبته اليه بتلك الطريقة غير المهذبة التي عُرف بها نوعها ، فألقى عليها التحية ، في فتور ، وقال لهما بالاطيالية : « آسف لكوني ارتدي بزة عسكرية . ولكنها بزة عسكرية ، وليست لباساً رسمياً . »

ثم انه ولاهما ظهره ، من غير أن ينتظر حتى يرى اثر ملاحظته في نفسيهما ، وتقدم نحو المشرب . ومن المشرب كان باستطاعتك ان تراقب امتعتك ، كما كان المتهالكان على الربح المحرم يراقبان امتعتها . أغلب الظن انه «كوماندا تور»^٢ ، كذلك قال في ذات نفسه .

١ - من مدينة ميلانو.

٢ - فارس من ذوي الرتب العالية.

إنها تحفة جميلة الى حد لعين حقا . ليت شعري كيف تكون الحال لو
قدّر لي ذات يوم ان املك من المال ما يمكّني من أن اشترى لنفسى
شبهاتها كلهن ، ومن أن ألبسهنّ فراء النمس الثمين ؟ حسنا سوف
ادفع ثمن التي عندي ، كذلك قال في ذات نفسه ، وفي استطاعتهم
ان يذهبن ويشتنقن انفسهن .

وصافحه الساقى (البارمان) . كان هذا الساقى فوضويا ولكنه لم يجد
حرجا البتة في ان يكون الكولونيل كولونيلا . كان مبتهجا بذلك
معتزا به ودودا من جرّائه ، وكأنه كان للفوضويين كولونيل أيضا .
وخلال الأشهر العديدة التي انقضت على تعارفهما بدا ، بطريقة ما ، وكأنه
يستشعر أنه قد اخترع ، أو على الأقل شيد ، الكولونيل كما يحذر بالمرء
ان يكون سعيدا بالمشاركة في تشييد برج اجراس ، وحق في تشييد
الكنيسة القديمة في تورشيلو .

وكان الساقى قد سمع الحديث ، او بالأحرى التقرير الرتيب الخالي
من الحياة ، الدائر على المائدة ، وكان بالغ السعادة .

وكان الكولونيل قد طلب ، من طريق المنضدة المتحركة ، شيئا من
«جن»^٢ غوردون ومن الكامباري . وقال الساقى : «الشراب آتٍ في
تلك الأداة التي تدفع باليدين . كيف يجري كل شيء في تريستا ؟»

— «على الوجه الذي تتخيله ، تقريبا» .

— «انا لا اقوى حتى على التخيل .»

فقال الكولونيل : «اذن لا تجهد نفسك ، وهكذا لن تصاب بداء
البواسير ابد الدهر .»

— «لو كنت كولونيلا لما باليت بهذا الداء .»

١ - الجن والكامباري campari ضربان من الاشربة المسكرة . (المعرب)

— « أنا لا أبالي به البتة . »

فقال الساقى : « سوف تُسَحِّقَ مثل جرعة من ملح انكليزي . »

فقال الكولونيل : « لا تخبر بإسياردي المبجل . »

وضحك هو والساقى لهذه النكتة لان بإسياري المبجل كان وزير الدفاع في الجمهورية الإيطالية . كان في مثل سن الكولونيل ، وكان قد أبلى في الحرب العالمية الأولى بلاء حسناً ، وكان قد قاتل أيضاً في إسبانية بوصفه قائد كتيبة حيث عرفه الكولونيل عندما كان هو نفسه مراقباً . وكانت الجدّة التي غلبت على بإسياردي المبجل طوال توليته وزارة الدفاع في بلدي لا سبيل الى الدفاع عنه موضع تندّر الكولونيل والساقى معاً . فقد كان كل منها رجلاً عملياً ، وكان في مجرد تخيلها ذلك الرجل يدافع عن الجمهورية الإيطالية ما يثير تفكيرهما .

وقال الكولونيل : « يبدو لي أن الأمر مضحك هناك . ولست أجد أي بأس في ذلك . »

فقال الساقى : « يتعين علينا أن نَمَكِّنْ^١ بإسياردي المبجل . وأن نزوده بالقنبلة الذرية . »

فقال الكولونيل : « ان لديّ ثلاثاً منها في مؤخر السيارة . انها من الطراز الجديد الكامل غير المنقوص . ولكننا لا نستطيع تركه اعزل من السلاح . يتعين علينا ان نزوده بميكروب داء الجذرة وبمسمّات الأطعمة . »

وقال الساقى : « ليس في استطاعتنا ان نخذل بإسياردي المبجل . فلأن يحيا المرء يوماً واحداً مثل أسد من الاسود خير له من ان يحيا مئة عام مثل خروف من الخراف . »

فقال الكولونيل : « خيرٌ لنا ان نموت واقفين على اقدامنا من ان

١ — mechanize ، أي ان تزوده بالعتاد الميكانيكي . (المعرب)

نحيا راكعين على رُكَبنا . على الرغم من انه من الافضل لك ان تسارع الى الانبطاح على بطنك اذا أردت ان تظل على قيد الحياة في مواطن كثيرة . «

ـ « لا تقل أي شيء هدام ، أيها الكولونيل . »

فقال الكولونيل : « سوف نختنقهم بأيدينا العزلاء . ان مليون رجل سوف يسارعون الى حمل السلاح هذه الليلة . »

فسأله الساقى « أي سلاح ؟ »

فقال الكولونيل : « كل ما سيقع في متناولهم . انه مجرد مشهد من مشاهد المسرحية الكبرى . »

في تلك اللحظة بالذات وفد السائق ووقف بالباب . وادرك الكولونيل انه لم يراقب ، فيما كانا يتندران ، باب الحانة ، ولقد كان يضيق دائماً بأية غفلة تبدر منه فتنسيه التعلق بأسباب الاحتراس والأمن .

ـ « ما الذي يبقيك هناك ، بحقّ الجحيم ، يا جاكسون ؟ هيا اشرب كأساً . »

ـ « لا . اشكرك يا سيدي . »

يا لك من غرّة مغالٍ في الغرارة ، كذلك قال في ذات نفسه . ثم اضاف مصحّحاً موقفه : ولكن من الخير لي أن أكفّ عن مناكדתه .

ـ « لن تنقضي دقيقة واحدة حتى نكون قد ذهبنا . » كذلك قال الكولونيل . « لقد كنت اتعلم الايطالية من صديقي هذا . » والتفت ليرى الى الميلانيّين العائشين على الربح المحرّم . ولكنها كانا قد انصرفا . لقد بدأت أصبح فاطر الهمة الى حد رهيب ، كذلك قال في ذات نفسه . ان ايما امرىء سوف يكون قادراً الآن على ان يغلبني في ايما يوم من الايام . وربما باسياردي المبجل نفسه .

وسأل الساقى في اقتضاب : « بكم أنا مدين لك ؟ »

فأنبأه الساقى ، ونظر اليه بعينه الايطاليتين الحكيمتين . انه لم يكن

مرحاً الآن ، برغم أن اسارير المرح كانت واضحة المعالم في حيثما شئت زوايا عينيه . أنا ارجو ان لا يكون قد ألمّ به أيما خلل ، كذلك قال الساقى في ذات نفسه . أنا اضرع الى الله ، أو أيما شيء آخر ، ان لا يكون قد أصابه مكروه حقيقي .

وقال : « الى اللقاء يا زعيمى . »

فقال الكولونيل : « الى اللقاء . جاكسون ، سوف نهبط المنحدر الطويل ثم نتجه الى الشمال تماماً من المخرج الى حيث أُرْسِيت الزوارق البخارية الصغيرة . الزوارق المصقولة أعني . هناك حمال لنقل الحقيبتين . إن من الضروري أن ندعهم يحملونها ما داموا يملكون امتيازاً خاصاً بذلك . »

فقال جاكسون : « نعم ، يا سيدي . »

وخرج من الباب ، ولم يلتفت أي منها الى أحد .

وعند المهبط المفضي الى الماء نفح الكولونيل الرجل الذي حمل الحقيبتين بشيء من المال . ثم أجال بصره في ما حوله بحثاً عن مراكيي يعرفه .

ولم يتبين الرجل الذي كان في اقرب الزوارق البخارية اليه ، ولكن المراكبي قال : « طاب يومك ، يا زعيمى . أنا الأول . »

— « ما الأجرة الى غريتي ؟ »

— « انت تعرف ذلك جيداً كما اعرفه ، يا زعيمى . اننا لا نساوم .

لدينا تعرفه رسمية . »

— « ما هي التعرفة ؟ »

— « ثلاثة آلاف وخمسة لير . »

— « لقد كان في استطاعتنا ان نركب الزورق البخاري الصغير

بستين ليراً . »

فقال المراكبي الذي كان رجلاً متقدماً في السن ، ذا وجه احمر ولكنه غير صفراوي المزاج : « وليس ثمة ما يمنعك من ذلك . انهم لا

يأخذونك الى الـ «غريتي» ، ولكنهم سوف يقفون بك عند المهبط الذي وراء حانة هارتي ، وفي استطاعتك ان تتلفن طالباً من الـ «غريتي» أن يبعث اليك بمن يحمل امتعتك .

وأي شيء سأشتريه بالثلاثة آلاف وخمسمئة لير اللعينة ؛ وهذا رجل رجل عجوز طيب .

- « هل تريدني أن ارسل ذلك الرجل الى هناك ؟ » وأوماً الى رجل عجوز متهدم كان يقوم بمهام غريبة ويسعى بالرسائل حول الاحواض ، مستعداً دائماً لإسداء المعونة غير الضرورية لمرفق المسافر الصاعد او النازل ومستعداً دائماً للمساعدة حين لا تكون ثمة اي حاجة لمساعدة ، بإسطة يده بقبعته اللبادية العتيقة فيما هو ينحني انحناءة الاحترام بعد اداء العمل الذي لا حاجة اليه . « انه سوف يقودك الى الزورق البخاري الصغير . إن ثمة واحداً سيُقبل بعد عشرين دقيقة . »

فقال الكولونيل : « الى الجحيم به ! خذني الى الغريتي . »
فقال المراكبي : « بكل سرور ! »

وخفض الكولونيل وجاكسون رأسيهما ودخلا الزورق البخاري الذي بدا وكأنه مركب من مراكب السباق . كان مصقولاً على نحو مشعّ ، وكان مصوناً بكثير من العناية ، مُستيراً بمحركٍ بحريّ كان في الأصل محرك «فيات» صغيراً خدم طوال مدته المحددة له في سيارة طيب من اطباء الأقاليم ثم اشترى من مقابر السيارات ؛ جبّانات الافيال الميكانيكية تلك التي هي الشيء الذي لا بد أن تقع عليه في عالمنا هذا قرب أيما بقعة آهلة بالسكان . وبعد ذلك اعيد تكييفه وخلق خلقاً آخر ليستهل هذه الحياة الجديدة في قنوات هذه المدينة .

- « كيف تجد هذا المحرك ؟ » كذلك سأله الكولونيل . كان في ميسوره ان يضجّ مثل دبابة ، او مثل مدمرة دبابات ، اثختها الاصابات ، لولا ان ضجيجها كان مُنَعَمَناً بسبب من فقدان القوة .

فأجابه المراكبي : « بين بين » ، وحرك يده الطليقة بإيماء متوازية .
- « يتعين عليك أن تصطنع اصغر طراز تخرجه شركة يونيفرسال . ذلك
هو احسن واخف محرك بحري أعرفه . »
فقال المراكبي : « اجل » ان ثمة بعض الأشياء الصغيرة التي يتعين عليّ
أن آتي بها .

« لعل سنتك هذه ان تكون سنة خصبة . »

- « هذا ممكن دائماً . ان كثيراً من المتهالكين على الريح المحرم
يفدون من ميلانو ليقامروا في « الليدو » . ولكن أياً منهم لا يركب
متن هذا الزورق ، مرتين اثنتين ، عن عمد . وهو ، كمركب ، ممتاز
أيضاً . إنه مركب مليح حسن البنية . طبعاً ، انه ليس جميلاً مثل
غندول . ولكنه يحتاج الى محرك . »

- « قد استطيع أن آتيك بمحرك « جيب » . محركٌ حَكَم عليه
بعدم الصلاح ولسوف يكون في امكانك أن تسويه وتصلحه . »
فقال المراكبي : « لا تتحدث عن أشياء كهذه . أن أشياء مثل
هذه لا تحدث . أنا لا أريد ان افكر في ذلك . »

فقال الكولونيل : « في استطاعتك ان تفكر فيه . أنا اقول
الحقيقة . »

- « انت تعني ما تقول . »

- « من غير ريب . انا لا أضمن أي شيء ، ولكنني سوف ارى
ما الذي استطيع ان افعله في هذه السبيل . كم ولداً لك ؟ »

- « ستة . صبيان وأربع بنات . »

- « يا للبحيم . يخيّل اليّ انك لم تؤمن بالنظام .^١ ستة اولاد فقط ؟ »

١ - يقصد النظام الفاشيستي ، وكان موسوليني قد دعا ابناء الامة الايطالية الى الاكثار من
انجاب الاطفال ووضع الجوائز لتشجيعهم على ذلك ، (المغرب)

— « لا ، انا لم اؤمن بالنظام . »

فقال الكولونيل : « لست مكلفاً ان تتظاهر أمامي بذلك . فقد كان جدّ طبيعي بالنسبة اليك ان تؤمن بالنظام فعلاً . أتخسب أني أضطغن على رجل ما ، بسبب من ذلك ، بعد أن كسبنا الحرب ؟ »

كانوا ينطلقون الآن في الجزء الرتيب من القناة ، الذي يمتدّ من « بياتزال روما » الى « كافوسكاري » برغم أن أياً من اجزائها ليس رتيباً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

ليس من الضروري أن يكون المشهد كله قصوراً أو كنائس . إنه ليس رتيباً من غير ريب ، والتفت الى اليمين ، الجانب الأيمن من الزورق ، كذلك قال في ذات نفسه . أنا فوق الماء . كانت بناية طويلة خفيضة سائغة . وكان الى جانبها مطعم .

يتعين عليّ أن أحيا هنا . ولسوف يكفيني راتب التقاعد للعيش في مجبوحة . لا حاجة بي الى قصر غريقي . كل ما اريده هو حجرة في بيت كهذا والمد والجزر والمراكب الغادية الرائحة . ان في استطاعتي عندئذ ان أطالع الصحف صباحاً ، واطوّف ماشياً في المدينة قبل الغداء ، وامضي كل يوم لأرى لوحات تينتوريتو^١ في الاكاديمية واذهب الى « مدرسة سان روكو » ، وأتناول الطعام في الحانات الرخيصة الجيدة خلف السوق ، أو ربما استطاعت المرأة التي تدبر شؤون البيت ان تطهو في الامسيات .

يخيّل اليّ ان من الافضل لي أن أتناول طعام الغداء في الخارج وأن انعم بشيء من رياضة المشي . إنها مدينة ملائمة للمشي . بل لعلها خير المدن من هذه الناحية ، في ما اعتقد ، فأنا لم أتمش فيها ذات مرة إلا

١ — Tintoretto فنان بندقى (فينيسي) ١٥١٨ - ١٥٩٤ . (العرب)

ونعمتُ بمتعة . هذا شيء استطعت ان اتعلمه على احسن وجه ، كذلك قال في ذات نفسه ، ومن ثم يُلمّ بي ذلك . »
انها مدينة غريبة معقدة ، وان السير من ايما جزء منها الى أي جزء آخر خيرٌ من حل احاجي الكلمات المتقاطعة . وانه لمن الاشياء القليلة التي تشرفهم أنهم احتراموها .

وحق المسيح ، أنا أحبها ، كذلك قال ، واني لاستشعر أعظم السعادة لأنني اسهمت في الدفاع عنها وانا غلامٌ غرٌّ لم تتم له معرفةٌ باللغة وافيةٌ ، ولم اكن قد رأيتها من قبل قط حتى كان ذلك اليوم الصاحي ، من ايام الشتاء ، عندما انكفأت لأضمد ذلك الجرح اليسير ، فرأيتها تنبثق من البحر . يا للبحيم ، كذلك قال في ذات نفسه ، لقد ابلينا بلاءً حسناً ، ذلك الشتاء ، عند ملتقى خطوط السكك الحديدية .
لشد ما أتمنى لو احارب من اجلها كرة اخرى ، كذلك قال في ذات نفسه ، وانا أعرفُ ما أعرف الآن ، ونحن نملك ما نملك الآن . ولكنهم سوف يستولون عليها من جديد ، والمشكلة الأساسية ستظل هي هي ، ولن يكون ثمة من جديد غير هذا السؤال : من الذي يسيطر على الاجواء ؟

وكان طوال هذا الوقت يتأمل مقدّم الزورق المرهق الجليل الصّقال المعلنّم بالنحاس على نحو دقيق - وقد لمّع النحاس كله تلميعاً فاتناً - وهو يشق عباب الماء الأسمر ، ويواجه مشكلات السير الصغيرة .
لقد مضوا تحت الجسر الأبيض ، وتحت الجسر الخشي الذي لم يتمّ انشاؤه بعد . ثم انهم غادروا الجسر الأحمر الممتد الى اليمين وجروا تحت اول جسر أبيض شاهق . وانتهوا الى الجسر الحديدي الأسود المحرّم القائم فوق القناة المفضية الى ريو نووفو^١ ، واجتازوا الدعامتين

١ - Rio Nuovo او «النهر الجديد» (المغرب)

اللتين شدّت كل منهما الى الاخرى بالسلاسل ولكن من غير أن تتأسا :
مثلنا نحن ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . لقد رأى الى تيار
الماء يندفع نحوهم ، ولاحظ كيف ثلّت السلاسل الخشب وأبلكته منذ
ان رأها أول مرة . وقال في ذات نفسه : هذه حالنا نحن . وهاتان
الدعامتان 'نصبان تذكاريان لنا . وما اكثّر النصب التذكارية المشيدة لنا
في قنوات هذه المدينة !

ثم انهم واصلوا تقدمهم في تودة حتى المصباح الكبير القائم عند
مين المدخل المفضي الى « القناة الكبرى » حيث بدأ المحرك يحتضر احتضاره
المعدني الذي أحدث زيادةً طفيفة في السرعة .

عندئذ انحدر تحت الاكاديمية بين الدعائم التي اجتازوها ، وقد كاد ان
يمسّها ، زورق من زوارق الديزل أسود 'مثنقل بأحمال الحطب المقطّع
قطعاً قصيرة غليظة لكي 'تستعمل وقوداً في بيوت « المدينة البحرية »
الرطبة .

وسأل الكولونيل المراكبي : « هذا الحطب من خشب الزان ،
ليس كذلك ؟ »

— « من خشب الزان وغيره من الخشب الأرخص منه والذي لا اذكر
في هذه اللحظة اسمه . »

— « خشب الزان للنار المكشوفة كفحم الانتراسيت للموقد . من
اين يقطعون خشب الزان ذاك ؟ »

— « انا لست جبلياً . ولكنني احسب أنه يأتي مما وراء « باستانو »
على الضفة الأخرى من الـ « غرابّا » . لقد ذهبت الى الـ « غرابّا » لأرى
اين 'دفن اخي . لقد صرّع في حملة شنوها من « باستانو » ، ولقد ذهبنا
الى المقبرة الكبيرة . ولكننا رجعنا من طريق « فيلتر » . كان في استطاعتي
أن ارى ثمة غابات ملتفة عند الجانب الآخر فيما انت تهبط الجبال الى

الوادي . لقد هبطنا تلك الطريق العسكرية ، وكانوا آنذاك يحرّون
مقادير ضخمة من الحطب . »

- « في اية سنة قتل اخوك على نهر الغرابا ؟ »

- « عام الف وتسعمئة وثمانية عشر . كان وطنياً ، ألهبه الاستماع الى
حديث دانونزيو^١ ، ولقد تطوَّع قبل أن يُدعى أترابه الى الخدمة العسكرية .
اننا لم نعرفه في ايما يوم معرفة حسنة جداً لأنه قضى نحبّه في صرعة
بالفة . »

- « كم ولداً كنتم ؟ »

- « كنا ستة . لقد فقدنا اثنين وراء الـ « ايزونزو »^٢ ، وواحداً
على الـ « بينزيّا » ، وواحداً على نجد الكارسو . ثم فقدنا هذا الاخ الذي
أتحدث عنه على الـ « غرابا » ، وبقيت انا وحدي . »

فقال الكولونيل : « سوف آتيك بمحرك الـ « جيب » ، ذاك كاملاً غير
منقوص ، أما الآن فلنقلع عن التفكير السوداوي ولنبحث عن جميع
المواطن التي يقيم فيها اصدقائي . »

كانوا يصعدون الآن في «القناة الكبرى» ، ولقد كان من اليسير عليك
أن ترى اين يقيم اصدقاؤك .

وقال الكولونيل : « ذلك هو قصر الكونتيسا داندولو . »

ولم يقل ، بل فكر مجرد تفكير ، انها تخطت الثمانين ، وانها
بهيجة النفس مثل فتاة في مقتبل العمر ، ولا تستشعر اي خوف من
الموت . انها تصبغ شعرها ليستحيل لونه الى احمر ، وهو يبدو

١ - Gabriele D'Annunzio (١٨٦٣ - ١٩٣٨) مؤلف وجندي ايطالي اشتهر
بغامراته ووطنيته المتهبة . (المغرب)

٢ - Isonzo نهر يؤلف جزءاً من الحدود بين ايطاليا ويوغوسلافيا . (المغرب)

جَمِلاً جِداً . انها رفيق طيب ، وامرأة رائعة .

كان قصرها بهيَّة الطلعة ، شُيِّد على مبعدة غير يسيرة من القناة ،
وُجِعِلت في مقدمته حديقة ، وُبِنِي له مهبط الى البحر خاصٌ به ، حيث
أقبلت في اوقات مختلفة غناديل^١ كثيرة تحمل على متونها اناساً جذلين
مبتهجين لما تنقشع الغشاوة عن أعينهم . ولكن اكثرهم كان مبتهجاً
لأنه كان على وشك الاجتماع بالكونتيسا داندولو .

والآن ، وفيما هم يصعدون في القناة ، في وجه الريح الباردة المقبلة
من ناحية الجبال ، وقد بدت البيوت واضحة حادة الزوايا كشأنها في
يوم من ايام الشتاء - ولقد كان يومهم ذاك شتوياً من غير ريب - رأوا
سحر المدينة وجمالها . ولكن ذلك كان مرتبطاً ، في ذهن الكولونيل ،
بمعرفة كثيراً من الناس الذين عاشوا في القصور ؛ او بمعرفة - إن لم
يكن في تلك القصور من يقطنها الآن - لأي غرض كانت هذه المواطن
المختلفة قد اصطنعت .

هناك يقوم قصر والدة ألفاريتو ، كذلك حدث نفسه ، ولكنه لم
ينطق بهذه الكلمات .

إنها لا تطيل الإقامة هناك ابداً ، وهي تقضي معظم أيامها في البيت
الريفي قرب تريفيزو ، حيث توجد أشجار كثيرة . لقد سمعتُ عَطَل
«البندقية» عن الاشجار . كانت قد فقدت رجلاً ممتازاً ، فليس يثير
شوقها الآن إثارة حقة غيرُ الفعالية والنشاط .

ولكن الاسرة اعارت القصر ، ذات يوم ، لجورج غوردون - اللورد
بايرون^٢ - وليس ينام الآن احد في سرير بايرون او في السرير الآخر

١ - جمع غندول .

٢ - الشاعر الانكليزي المعروف . (المرب) .

الذي في الدور الادنى حيث كان من دأبه ان يضطجع مع زوجة الغناديلي^١ . انها لم يكونا مقدسين أو مختلفين اثريين . لا ، لقد كانا مجرد مريين زائدين لم يستعملا في ما بعد لاسباب مختلفات ، أو ربما احتراماً للورد بايرون الذي كان جدّ محبوب في هذه المدينة على الرغم من جميع الاخطاء التي ارتكبها . ان عليك ان تكون غلاماً طياشاً في هذه المدينة لكي "تحب" ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . انهم لم يبالوا قط ، اقلّ مبالاة بروبرت براوتنغ^٢ ، أو بمسر روبرت براوتنغ ، أو بكلبيها . فهؤلاء لم يكونوا بنادقة برغم كل ما تميّزت به كتاباته عنها من براعة . ولكن ما الغلام الطياش ، كذلك سأل نفسه . إنك تستعمل اللفظة على نحو يعوزه الأحكام الى حدّ يجعل من الخير لك أن تحاول تحديدها . أنا أحسب ان الطياش هو الرجل الذي يضع تمثيلته ثم ينفق عليها المال . أو هو مجرد الرجل الذي ينفق المال على تمثيلته . وأنا لا افكر الآن بالمرح ، كذلك قال في ذات نفسه . برغم كل ما قد ينطوي عليه المسرح من متعة .

ومع هذا ، كذلك قال في ذات نفسه ، وقد بصُرّ الآن بالدارة الصغيرة القائمة على مقربة من الماء جدّ دائية ، فبدت في عينيه بشعة مثل مبنى قد تراه وانت على متن أحد القُطُر الحديدية التي تنقل الركاب من ثغر الهافر أو ثغر تشيربورغ عندما تبلغ في طريقك الى العاصمة تلك الضاحية القائمة على ابواب باريس . كانت مغطاة بأشجار يعوزها التنسيق ، ولم تكن موطناً ترغب في الاقامة فيه اذا ملكت القبول والرفض . ومع هذا فقد عاش هو هناك .

لقد أحبوه لموهبته ، ولأنه كان رديئاً ، وكان شجاعاً . كان غلاماً

١ - الغناديلي : الرجل الذي يحذف في القندول .

٢ - Browning شاعر انكليزي كبير ، ١٨١٢ - ١٨٨٩ . (المرب)

يهودياً لا يملك شيئاً ، ومع ذلك فقد ألهب البلاد بموهبته ، وببلاغته . لقد كان أشدّ بؤساً عن أيما شخصية عرفتُها وأكثر حقارة . ولكن الرجل الذي افكر فيه لأقاربه به لم يقامر قط وقد خاض غمار الحرب ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . والواقع ان غابرييل دانونزيو (لقد تساءلت دائماً تُرى ما اسمه الحقيقي ، كذلك فكر الكولونيل ، لأن أحداً لا يسمّى دانونزيو في بلاد عملية ، ولعله لم يكن يهودياً ، وأية أهمية ليهوديته أو لايهوديته) كان قد تنقل من سلاح من اسلحة الجيش الى سلاح ، كما تنقل من ذراعي امرأة الى ذراعي امرأة .

وكانت جميع اسلحة الجيش التي خدم دانونزيو في صفوفها سائفة مستعذبة ، ولقد انجز رسالته فيها بسرعة ويسر ، ما عدا سلاح المشاة . لقد تذكر كيف فقد دانونزيو احدى عينيه في حادث ارتطام بينا كان يطير - بوصفه مراقباً - فوق ترييستا أو « بولا » وكيف أنه حجب بعد ذلك عينه الضائعة تلك بعصابة ما حجباً موصولاً ، وكيف ان الناس الذين لم يعرفوا حقيقة الأمر ، ذلك بأن احداً آنذاك لم يكن يعرف تلك الحقيقة ، حسبوا أن رصاصة اصابتها في الـ « فيليكي » أو « سان ميشيل » ، أو ايما موطن وخيم آخر وراء « الكارسو » حيث مات كل من تعرفه أو اصاب بعجزٍ مُقعد . ولكن دانونزيو كان ، في الحق يبلي بلاءً بطولياً في الاشياء الاخرى . إن الجندي المنتظم في سلاح المشاة يتقن صناعة غريبة ، كذلك قال في ذات نفسه . لعلها اغرب الصناعات قاطبة . لقد طار غابرييل ، ولكنه لم يكن طياراً . لقد انخرط في سلاح المشاة ولكنه لم يكن جندياً من الجنود المشاة ، وكانت المظاهر دائماً واحدة .

وتذكر الكولونيل ذات يوم عندما وقف دانونزيو ، على رأس فصيلة من فصائل الهجوم ، فيما كان المطر يهطل في احد فصول الشتاء المتطاولة

الى ما لا نهاية ، حين كان المطر لا يفتأ يهطل على نحو موصول ، او على الأقل حين كان يهطل على نحو موصول كلما استعرضت القوات أو وُجِّهت اليها الخطب ، وكان دانوتزيو بعينه المفقودة ، المحجوبة بعصابة ، ووجهه الابيض - الابيض مثل بطن سمكة من «سمك موسى» طازجة قلبت في السوق ظهراً لبطن فليس يرى جانبها البني وقد بدت وكأنها ماتت منذ ثلاثين ساعة يهتف صائحاً : « الموت ليس كافياً ! » ، وكان الكولونيل - وكان آنذاك مجرد ملازم ثانٍ - قد قال في ذات نفسه : « يا للبحيم ! وما الذي يطلبونه منا اكثر من ذلك ؟ »

ولكنه كان قد استمع الى الخطاب في غير انقطاع . وفي الختام ، عندما طلب المقدم دانوتزيو - وهو كاتب وبطل وطني ، بطل حقيقي مشهود له بذلك إن لم يكن بدءاً من أن يكون لنا ابطال ، وكان الكولونيل لا يؤمن بالأبطال - من قواته أن يقفوا دقيقة صمت اجلالاً لموتانا الماجدين ، وقف هو متصلباً وقفة الإجلال والاحترام . ولكن فصيلته التي لم تكن قد تلبعت الخطاب ، اذ لم يكن ثمة آنذاك مكبرات صوت ، وكانت على مبعدة لا تمكنها من سماع الخطيب ، استجابت استجابة رجل واحد خلال فترة الصمت اجلالاً لموتانا الماجدين يهتاف صارخ مدوّ «فليحي دانوتزيو !»

لقد سبق لدانوتزيو ان خَطَبَهُمْ قبل الانتصارات ، وقبل الهزائم ، ولقد عرفوا ان عليهم ان يهتفوا كلما تمهل الخطيب او أمسك عن الكلام . وكان الكولونيل - بوصفه ملازماً ثانياً محباً لفصيلته آنذاك - قد شاركهم وهتف بلهجة الأمر «فليحي دانوتزيو !» صافحاً بذلك عن جميع اولئك الذين لم يستمعوا الى المحاضرة او الخطاب أو الخطبة ، ومحاولاً - بقدر ما يستطيع ملازم ثانٍ ان يحاول أي شيء غير الصمود في موقع يتعذر الدفاع عنه أو أداء دوره الخاص في هجومٍ ما بشيء من الذكاء - ان يشاركهم جريمتهم .

ولكنه كان الآن يمرّ بالمنزل الذي عاش فيه الغلام المضحى العجوز مع
ممثلته الكبيرة ، المحزونة ، التي لم تنعم قط بحبّ الناس كما ينبغي لها
أن تنعم ، وفكرت في يديها الرائعتين ، وفي محبتاهما القلب الذي لم
يكن جميلاً ولكنه كان قادراً على أن يمنحك الحب والمجد والبهجة
والكتابة جميعاً ، وفي الطريقة التي كان باستطاعة منحني زندها أن
يسحق بها قلبك ، وقال في ذات نفسه : يا للمسيح ! لقد ماتا ، ولست
أعرف حتى ذلك الموضع الذي دُفن فيه كل منهما . ولكني أرجو من
غير ريب ان يكونا قد استمتعا بالاقامة في ذلك المنزل .

وقال : « جاكسون ، هذه الدارة الصغيرة القائمة الى اليسار كانت
ملكاً لغابرييل دانوتزيو ، الذي كان كاتباً عظيماً . »
فقال جاكسون : « نعم ، يا سيدي . أنا سعيد بأن اعرف ذلك
عنه . إني لم اسمع به قط من قبل . »

فقال الكولونيل : « سوف احيطك علماً بما كتب اذا ما رغبت في
يوم من الأيام في قراءة آثاره . إن ثمة بعض الترجمات الجيدة لآثاره . »
فقال جاكسون : « شكراً ، يا سيدي . اني لأحب ان اقرأه كلما
وجدت متسعاً من الوقت . ان له لمنزلاً جميلاً عملياً السّمة . ما الاسم الذي
قلت لي إنه كان يحملّه ؟ »

فأجابه الكولونيل : « دانوتزيو . كاتب . »

واضاف في ما بينه وبين نفسه - غير راغب في أن يشوش جاكسون ،
أو أن يعقد الأشياء كما قد عقدها على صاحبه مرات عديدة في ذلك
اليوم : كاتب ، شاعر ، بطل وطني ، صانع جدلية الفاشية ، معجب
بنفسه الى حد فظيع ، طيار ، آمر - أو راكب - في طليعة مراكب
الهجوم النسافة السريعة ، مقدّم (ليوتنان كولونيل) في سلاح المشاة من
غير ان يعرف كيف يقود سرية بل من غير ان يعرف كيف يقود فصيلة

على نحو صحيح ؛ مؤلف الـ Notturmo ١ العظيم المحبوب الذي نحبه ،
ورجل غرّ .

وأمامهم الآن كان مَعْبَرٌ للغناديل عند الـ « سانتا مارييا ديل جيغليو » ،
ووراء ذلك كان حوض الـ « غريتي » الخشبي .
- « هذا هو الفندق الذي ستنزل فيه يا جاكسون . »

وأشار الكولونيل الى القصر الحلو الصغير الوردي اللون ، المؤلف من
ثلاثة ادوار ، والمتاخم للقناة . كان من قبل تابعاً « للفندق الكبير » ،
ولكنه امسى الآن فندقاً مستقلاً - فندقاً ممتازاً أيضاً . ولعله كان خير
الفنادق ، اذا كنت غير راغب في من يتملكك ، أو يضايقك من طريق
المغلاة في العناية بك ، أو من طريق المغلاة في التذلل لك ، في مدينة
حافلة بالفنادق الكبرى . ولقد كان الكولونيل يحب ذلك الفندق .

وقال جاكسون : « ينحيل الي أنه جيد . »

فقال الكولونيل : « اجل ، انه جيد . »

ومضى الزورق البخاري ببسالة في محاذاة دعائم الحوض الخشبية . إن
كل حركة يقوم بها ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، هي انتصار بسالة تلك
الماكينة المعمّرة . اننا لا نملك اليوم خيول حرب مثل « المترحل » ،
العجوز old Traveller أو مثل « ليزيت » Lysette ماربوت الذي قاتل ،
شخصياً ، في معركة « ايلو » . ان لدينا بسالة القضبان البالية التي تأبى
أن تنقصم ، وبسالة رأس الاسطوانة الذي لا ينفجر ، على الرغم من ان
له ملء الحق في الانفجار وما اليه .

وقال جاكسون : لقد « انتهينا الى الحوض ، يا سيدي » .

١ - وتعني بالاطالية : ليليّ ، أو ذو صلة بالليل .

- « يا للجحيم ، والى اين تريدنا ان ننتهي اذن ايها الرجل ؟ اقفز الى اليابسة ريثما ادفع الى هذا الرياضي حسابه . »
والتفت الى المراكبي وقال : « لقد اتفقنا على ثلاثة آلاف وخمسمئة لير ، أليس كذلك ؟ »

- « نعم ، يا زعمي ! »
- « انا لن انسى مسألة محرك الـ «جيب» الطاعن في السن . خذ هذه واشترِ لفرسك بعض الشوفان . »
وسمع الحمال ، الذي كان يحمل الحقيبتين من جاكسون ، هذا الكلام وضحك .

- « ليس ثمة بندي واحد مستعد لأن يُصلح من شأن فرسه . »
فقال المراكبي : « إنها لا تزال تجري . »
فقال الحمال : « ولكنها لا تكسب اي سباق . كيف انت ، يا زعمي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « في حال لا استطيع ان تكون على خير منها . كيف حال اعضاء المنظمة ؟ »

- « جميع الاعضاء بخير . »
فقال الكولونيل : « حسن . سوف أدخل وأرى المايسترو الأعظم . »
- « انه ينتظرك ، يا زعمي . »

فقال الكولونيل : « فلنوفرّ عليه الانتظار ، يا جاكسون . في استطاعتك أن تمضي الى الردهة ، مع هذا السيد ، وتطلب اليهم ان يسجلوني بين نزلائهم . » ثم التفت الى الحمال وقال : « حاول ان تؤمّن للرفيق (السرجانت) حجرة . إننا سنقضي هذه الليلة فقط في هذا المكان . »

- « كان البارون ألفاريتو يبحث عنك هنا . »
- « سوف التقيه في حانة هاري . »

- « حسن ، يا زعيمى . »
- « اين المايسترو الأعظم ؟ »
- « سوف ابحت لك عنه . »
- « قل له انه يستطيع ان يجدني في المشرب . »

٧

وكان المشرب يقع عبر ردهة الـ «غريتي» مباشرة» ، على الرغم من أن لفظة «ردهة» - كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه - لم تكن هي التعبير الملائم لوصف ذلك المدخل الأنيق . وفكّر : ألم يصف غيوتو دائرة ؟ لا ، لقد كان ذلك في الرياضيات . وكان خير ما تذكره وأحبّه من النوادر المتصلة بذلك الرسام قول غيوتو ، وهو يرسم الدائرة الكاملة : «لقد كانت سهلة» . من الذي قال ذلك - بحق الجحيم - وأين ؟

- «طاب مساؤك ، أيها المستشار الخاص .» كذلك قال للساقى الذي لم يكن عضواً في المنظمة مدفوعَ الراتب على نحو كامل ، والذي لم يكن الكولونيل راغباً مع ذلك في اغضابه . «أية خدمة تستطيع أن أسديها إليك ؟»

- «اشرب يا زعمي .»

وأطل الكولونيل من نوافذ المشرب وبابه وسرّح بصره في مياه «القناة الكبرى» . كان في استطاعته ان يرى مَرَبَطَ الغناديل الكبير الأسود ، وظلالَ أضواء الأصيل المتأخر الشتوية على صفحة الماء الذي عبثت به الريح . وعَبَّرَ القناة كان القصر العتيق ، وكان مركب شراعي اسود عريض من مراكب نقل الخشب يصعد في القناة ، وكان يجذافها

الاماميان العريضان يناضلان ضد موجة ما ، على الرغم من أن الريح كانت تدفع المركب من خلاف .

فقال الكولونيل : « إسقني كأساً من المارتيني المزّاء الى أبعد حد . مارتيني مزدوج . »

في تلك اللحظة وفد المايسترو الاعظم من الحجرة . كان يرتدي ملابسه الرسمية كنادل أكبر ، وكان وسيماً حقاً كما ينبغي للرجل ان يكون ، وكانت انفعالاته الباطنية مسطورة على محياه ، فابتسامته تنبعث من فؤاده ، أو من أيما مكان يمكن اعتباره مركز جسده ، وتطفو في صراحة وجمال على السطح ، الذي هو وجهه .

كان ذا وجه وسم وانف طويل مستقيم كالذي يتميز به أبناء ذلك الجزء من فينيتو^١ الذي هو موطنه . وكانت له تانك العينان الرقيقتان البهيجتان الصادقتان وذلك الشعر الابيض الوقور المتسقة مع سنّه ، وكانت أعلى من سنّ الكولونيل بستتين اثنتين .

وتقدّم متبسّماً ، ودوداً ، وعلى نحو تأمريّ برغم ذلك كله ، اذ كان كل منها يشارك الآخر كثيراً من أسرارهِ ، وبسط يده التي كانت يداً ضخمة طويلة ، قوية ، ذات اصابع شبيهة ببسّط^٢ الصيدلي ، مصونة في عناية على نحو لائق بمركزه ، أو قل على نحو يجتمة مركزه . وبسط الكولونيل ، بدوّره ، يده التي اصابها الرصاص مرتين فشوها تشوهاً طفيفاً . وهكذا تمت المصافحة بين اثنين من سكان « فينيتو » السابقين ، وكلاهما أخ للآخر بوصفه عضواً في الجنس البشري ، ذلك النادي الوحيد الذي يدفعان الرسوم اليه دون ايّ نادٍ آخر ، وكلاهما أخ للآخر ايضاً في

١ - Veneto مقاطعة في شمال شرقي ايطالية . (المغرب) .

٢ - اداة اشبه بسكين عريضة يبسط بها الصيدلي عقاقيره ويخلطها .

حبه لبلدٍ عريقٍ كثيراً ما يتقاتل الناس من اجل الاستيلاء عليه فيخرج دائماً منتصراً في هزيمته ، بلدٍ كانا كلاهما قد دافعا عنه في شبابه .

وكانت مصافحتها طويلة الى حد كافٍ لإشعارهما ، في قوة ، متعة اللقاء وحرارته ، ثم قال رئيس النُذُل : « يا زعيمى ! »

فقال الكولونيل : « أيها المايسترو الأعظم ! »

ثم ان الكولونيل سأل المايسترو الأعظم أن يشاركه الشراب ، ولكن المايسترو الأعظم قال إنه لا يستطيع لانشغاله في أداء عمله . كان ذلك متعذراً ، وكان محظوراً أيضاً .

فقال الكولونيل : « المحظور ! »

فقال المايسترو الأعظم : « طبعاً . ولكن على كل امرئ أن يذعن لأحكام واجبه ، والقواعد هنا معقولة ، وعلينا جميعاً أن نعمل وفقها ؛ أنا على الخصوص . انها مسألة وصية . »

فقال الكولونيل : « إنهم لم يجعلوك مايسترو أعظم لغير ما سبب . - اعطني كأساً صغيرة من « الكاربانو » ، كذلك قال المايسترو الأعظم للساقى الذي كان لا يزال خارج المنظمة لسبب صغير غير محدد وغير منصوص عليه . « لكي اشربه على صحة المنظمة . »

وهكذا كرع الكولونيل والمايسترو الأعظم كأسيهما في سرعة خاطفة مخالفتين في ذلك الأوامر ، منتهكين مبدأ الوصية والمثل في القيادة . انهم لم يتعجلا ذلك ، وإن القلق لم يعصف بالمايسترو الأعظم . لقد اصطنعا السرعة في ذلك بكل بساطة .

وقال الكولونيل : « والآن فلنناقش شؤون المنظمة . »

فقال المايسترو الأعظم : « إننا نفعل هذا . وإلا أعلنت ان ذلك كذلك . »

١ - هنا موضع شتيمة مقذعة مخدوفة في الاصل الانكليزي ايضاً . (المعرب)

فقال الكولونيل : « تابع . »

وكانت المنظمة ، وهي جمعية خيالية "محض" ، قد انشئت إثر سلسلة من المحادثات بين المايسترو الأعظم ، والكولونيل ، وكان اسمها El Ordine Militar, Nobile y Espirituoso de los Caballeros de Brusadelli أي المنظمة العسكرية النبيلة والمقدسة لفرسان بروساديلي . وكان كل من الكولونيل ورئيس النُذُل يتكلم الأسبانية ، واذ كانت هذه اللغة خير اللغات لإنشاء منظمات الفرسان فقد اصطنعناها في تسمية هذه المنظمة التي دُعيت على اسم رجل ميلاني متكالب على الريح المحرم ، من أصحاب البليارات المتهرين من دفع الضرائب ، الرديئي السمعة الى أبعد الحدود . رجل كان - خلال نزاع على الملكية - قد اتهم زوجته الشابة ، على نحو علنيّ وأمام هيئة المحكمة ، بأنها حرمته القدرة على التمييز من طريق مطالبها التناسلية المتطرفة الى حد استثنائي .

فقال الكولونيل : « ايها المايسترو الأعظم ، هل جاءتك اية رسالة من قائدنا ، قائدنا الموقر ؟ »

- « ولا كلمة . انه صامت في هذه الايام .. »

- « لا ريب في أنه يفكر . »

- « لا ريب . »

- « لعله يضع الخطة لأعمال جديدة أشد إمعاناً في الحزبي والعار . »

- « لعله . إنه لم يكتب الى اية كلمة . »

- « ولكن في ميسورنا أن نثق به . »

- « الى ان يموت . » كذلك قال المايسترو الأعظم . « وبعد ذلك

سيكون في ميسوره ان يتحمّص في جهنم ، ولسوف ننجّد ذكراه . »

وقال الكولونيل : « جيورجي ! قدّم الى المايسترو الأعظم كأساً

صغيرة اخرى من الكاربانو . »

وقرعا الكأس بالكأس .

وصاح الكولونيل : « جاكسون ، انت الآن على ارض المدينة ، وفي استطاعتك ان توقّع هنا من اجل الطعام . انا لا اريد ان اراك جقى الساعة الحادية عشرة ، غداً ، في الردهة إلا اذا اصابك بلاء ما . هل لديك مال ؟ »

— « نعم يا سيدي ، كذلك قال جاكسون ثم اضاف في ما بينه وبين نفسه : ان ابن العاهرة هذا مخبول كما يقولون ، من غير ريب . لقد كان في استطاعته ان يناديني بدلاً من ان يعود الى الصباح . وقال الكولونيل : « لا اريد ان اراك . »

كان جاكسون قد دخل الحجرة ووقف أمامه متظاهراً بالانتباه .
— « لقد شئت النظر اليك ، لأنك مستسلم للهم ، ولأنك لا تعرف المرح . امرح بعض الشيء اكراماً للسيح ! »
— « ممعاً وطاعة ، يا سيدي . »

— « هل تفهم ما قلت ؟ »

— « نعم يا سيدي . »

— « أعدّه على مسمعي ! »

— « روتالد جاكسون ، ت ٥ ، الرقم المتسلسل ١٠٠٦٧٨ ، سوف يثبت وجوده في ردهة فندق غريتي هذا في الساعة ١١،٠٠ غداً صباحاً ، ولست ادري التاريخ يا سيدي ، وسوف يغرب عن وجه الكولونيل ، ويأخذ بأسباب المرح . أو ، ، كذلك اضاف ، « سوف يبذل كل جهد ممكن لبلوغ هدد الغاية . »

— « انا متأسف ، يا جاكسون . ، كذلك قال الكولونيل .

« اتي ... »

١ - موضع شتيمة مقدعة محذوفة في الاصل ايضاً .

فقال جاكسون : « ارجو ان اخالف الكولونيل في رأيه بنفسه . »
فأجابه الكولونيل : « شكراً ، يا جاكسون . ربما لم اكن كذلك .
أرجو أن تكون على صواب . والآن اخلع عن نفسك ادرانها . ان
لك حجرة هنا ، او يجب ان يكون لك ، وفي استطاعتك ان توقع
من اجل الطعام . والآن حاول أن تخرج بعض الشيء . »

فقال جاكسون : « سماعاً وطاعة ، يا سيدي . »

حق اذا . انصرف قال المايسترو الاعظم للكولونيل : « من الغلام ؟
أحد اولئك الأميركيين المحزونين ؟ »

فأجابه الكولونيل : « نعم . وحق المسيح ان لدينا عدداً منهم
كثيراً . انهم محزونون ، منافقون ، متخمون ، يعوزهم التدريب . واذا
كان التدريب يعوزهم فالذنب في ذلك ذنبي انا . ولكن لدينا نفرأ من
المتأزين ، ايضاً . »

ـ « هل تعتقد ان في استطاعتهم ان يخوضوا غمار معارك الـ «غرابا» ،
والـ «باسويو» ، والـ «باسوبيافا» كما خضناها نحن ؟ »

ـ « المتأزون منهم يستطيعون . وربما على نحو افضل . ولكنك
تعرف انهم ، في جيشنا ، لا يذهبون الى حد اطلاق النار لأحداث
الجراح المتعمدة إحداثاً ذاتياً . »

فقال المايسترو الأعظم : « يا للمسيح ! » لقد تذكر هو الكولونيل
اولئك الجنود الذين قرروا انهم لا يريدون أن يموتوا ، غير مفكرين ان
من يموت يوم الثلاثاء غير مضطر الى ان يموت الجمعة ، وكيف كان احد
اولئك الجنود يلف بكيس رمل رجل زميل له مطوقةً بعصابة ساق
لكي لا يترك اي اثر لحروق بارود ، ثم يطلق النار على صديقه من
مسافة يعتقد ان في استطاعته ان يصيب منها ربة ساقه من غير ان

يصيب العظم ، ثم يطلق النار مرتين فوق المتراس تبريراً لتلك الاصابة .
كان كل منها يعرف ذلك ، ومن اجل هذا وبسبب من كره حقيقي عميق لكل الذين افادوا من الحرب وربحوا المغانم من ورائها عمدا الى انشاء تلك المنظمة .

لقد عرفا كلاهما - وهما اللذان أحبّ كل منهما الآخر واحترمه - كيف كان الفتيان الفقراء الذين لم يكونوا راغبين في الموت يقتسمون محتويات علبة من أعواد الثقاب لإيذاء أنفسهم على نحو ينجيهم من المشاركة في الهجوم الدموي التالي على خط النار .

لقد عرفا اشياء عن الفتيان الآخرين الذين كانوا يضعون قطع العشرة سنتيمات النقدية تحت آباطهم لكي يصابوا بالبرقان . وعرفا ، ايضاً اشياء عن الفتيان الأثرياء الذين كانوا يعمدون في مختلف المدن الى حَقْن البارافين تحت رَضَفَات رُكبهم لكي يمتنبوا الذهاب الى الحرب .

ولقد عرفنا كيف كان الثوم يُصطنع لاحداث بعض الآثار التي تمكن المرء من التخلف عن القيام بهجوم ما ، وعرفا جميع الحيل الأخرى او الكثرة العظمى من الحيل الأخرى . ذلك بأن احدهما كان رقيباً (مرجانت) والآخر كان ملازماً ثانياً في سلاح المشاة ، وكنا قد حاربنا في المواقع الرئيسية الثلاثة ، على الـ «باسوبيا» والـ «غرابا» والـ «بيافا» ، حيث كان ذلك كله مفهوماً .

وكنا قد شاركنا ، ايضاً ، في المجزرة المحقاة الأقدم عهداً والتي دارت رحاها في الـ «ايوزوزو» والـ «كارسو» . ولكنها كانتا كلاهما خجلتين بأولئك الذين أمروا بأحداث تلك المجزرة ولم يفكرا بها إلا كشيء احمق 'مخزٍ يجب أن يُنسى' ، وتذكرها الكولونيل تقنياً كشيء يتعلم منه اشياء وأشياء . وهكذا انشأ الآن منظمة فرسان بروساديلي ، تلك المنظمة النبيلة المقدسة ، وكانت تضم خمسة اعضاء ليس غير .

وسأل الكولونيل المايسترو الأعظم : « ما أنباء المنظمة ؟ »

- « لقد رقبنا الطاهي في الـ «ماغنيفيشانت» Magnificent الى رتبة كوماندا تور^١ لقد تصرف تصرف رَجُلٍ ثلاث مرات في عيد ميلاده الخمسين . ولقد قبلتُ تقريره من غير تحقيق . انه لم يكذب طول عمره . »

- « اجل ، انه لم يكذب طوال عمره . ولكنها مسألة يجب عليك ان لا تطلق العنان فيها لتزعتك الى التصديق . »

- « لقد صدقته ، كان يبدو منهوك القوى . »

- « في استطاعتي ان أتذكره يوم كان غلاماً طيئاشاً ، ولقد دعواته آنذاك الرجل الضخم ذا اللون الكرزي . »

- « وأنا ايضاً . » Anch'io

- « هل لديك أية خطط بعينها تستطيع المنظمة أن تقوم بتنفيذها خلال الشتاء ؟ »

- « لا ، ايها القائد الأعلى . »

- « هل تعتقد أن علينا أن نرفع آيات الولاء لباسياردى المبجل ؟ »

- « كما تشاء ؟ »

فقال الكولونيل : « فلترجىء ذلك . » وفكر الكولونيل لحظة ثم طلب كأساً آخر من المارتيني الصُرف .

- « هل تعتقد ان في امكاننا ان ننظم مظاهرة ولاء في موقع تاريخي ما ، مثل سان ماركو (القديس مرقص) او الكنيسة العتيقة في تورشيلاو تكريماً لشفيعنا العظيم ، بروساديلي ، الموقر ؟ »

- « لست واثقاً من ان السلطات الدينية سوف تجيز ذلك في هذه اللحظة . »

١ - فارس عالي الرتبة .

- « اذن فلنطرح كل فكرة تقول بالقيام بمظاهرات عامة خلال هذا الشتاء ، ولنعمل ضمن نطاق ملاكاتنا العسكرية ، لمصلحة المنظمة . »
فقال المايسترو الأعظم : « هذا هو الموقف الأسلم . سوف نعيد تنظيم قواتنا . »

- « وكيف انت ، شخصياً ؟ »
فقال المايسترو الأعظم : « هائل ! ان لديّ ضغط دم واطشاً ،
وقرح معدة ، وعليّ ديون . »
- « هل انت سعيد ؟ »

فقال المايسترو الأعظم : « دائماً . أنا احب عملي حباً شديداً ، واني
لألتقي شخصيات استثنائية ممتعة ، وكثيراً من البلجيكيين ايضاً . إنهم
ما غلّكه هذا العام بدلاً من الجراد . اما في الاعوام السابقة فقد كانت
عندنا الألمان . ما العبارة التي قال فيها قيصر : « وأشجع هؤلاء هم
البلجيكيون ، ؟ ولكنهم ليسوا افضلهم بزة . الا توافقني ؟ »

فقال الكولونيل : « لقد رأيتهم في بزة حسنة ، في بروكسل .
عاضمة^١ بهيجة ممتلئة المعدة . انتصر ، او انكسر ، او انسحب . »
- « كان ينبغي لنا أن نقاتل في الفلاندر ، في الايام الخالية . »

فقال الكولونيل : « اتنا لم نولد في الايام الخالية . وهكذا لم يكن
في استطاعتنا ، اوتوماتيكياً ، أن نقاتل آنذاك . »

- « لشدّ ما أتمنى لو استطعنا ان نقاتل مع الكوندوتيري^١ ، عندما
كان كل ما يتعين علينا ان نعله هو أن نتفوق عليهم بحسن الرأي فتستسلم
قواتهم . إن في استطاعتك ان تقدح زناد الفكر ، وفي استطاعتي ان

١ - Condottieri في ايطالية وغيرها ، وخصوصاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ضباط محترفون أو زعماء جنود مرتزقة ، كانوا يعملون في خدمة الامراء المتحاربين والدويلات المتحاربة . (المغرب)

انقل اوامرك . »

— « لو تحققت أمنيتك اذن لكان علينا أن نستولي لهم على بضعة مدن لكي نحترم مقدرتنا على قبح زناد الفكر . »

فقال المايسترو الاعظم : « ولكان خليقاً بنا أن تنهب تلك المدن ، اذا ما دافعوا عنها . على أي المدن كنت تفضل ان تستولي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « ليس على هذه . لقد كان خليقاً بي أن اوثر الاستيلاء على « فيسينترا » ، و « بيرغامو » ، و « فيرونا » . وليس من الضروري ان ألزم هذا الترتيب . »

— « وعلى مدينتين اخريين ايضاً . »

فقال الكولونيل : « ادري » . كان قد عاد ، الآن ، كولونيا كره اخرى وكان سعيداً . « لقد تصورت ان من الخير لي ان اقوم بالتفاف حول « بريشيا » ، وانها لا بد ان تسقط من تلقاء ذاتها . »

— « وكيف انت ، ايها القائد الأعلى ؟ » كذلك قال المايسترو الأعظم . ذلك بأن هذا الاستيلاء على المدن كان قد نقله الى مجال لا يفهم من شؤونه شيئاً .

كان لا يستشعر الغربة في بيته الصغير في تريفيزو ، المحاذي لمياه النهر المتدفقة تحت الاسوار العتيقة . لقد تماوجت الطحالب مع التيار ، وتربصت الأسماك تحت ستار الطحالب ثم انقضت على الحشرات التي لامست الماء عند الغسق . وكان لا يستشعر الغربة ، ايضاً ، في جميع العمليات التي لا تحتاج الى اكثر من سرية واحدة فهو يفهمها على نحو واضح كمثل فهمه الوجه الافضل لتقديم صحاف الطعام على مائدة صغيرة .

ولكن ما إن عاد الكولونيل كولونيا كره اخرى ، كما قد كان من قبل ، وشرع يفكر بلغة بعيدة جداً عن فهمه بُعد حساب التفاضل

والتكامل عن لا يعرف غير الحساب ، حق استشعر انه غريب عن هذه الاجواء ، وأن محادثتها أمست متكلفة ، وتمنى لو يرجع الكولونيل الى الكلام على الاشياء التي عرفها معا يوم كانا ملازماً ثانياً ورقياً .

وسأله الكولونيل : « وما الذي كان خليقاً بك ان تفعله بشأن ماتوفا ؟ »

— « لست ادري ، يا زعيمى . انا لا اعرف من تقاتل ، ولا القوى التي يملكونها ، ولا القوى الخاضعة لأمرتك . »

— « لقد حسبت انك قلت إننا كنا من جماعة الكوندوتيري^١ ، واننا أقمنا قاعدتنا في هذه المدينة أو على الـ « بادوفا » . »

فقال المايسترو الأعظم ، ولم يكن قد تضائل بأية حال : « يا زعيمى ، أنا لا ادري شيئاً ، في الحق ، عن الكوندوتيري . ولا كيف قاتلوا آنذاك . كل ماقلته هو اني كنت أتمنى لو اني قاتلت تحت إمرتك في تلك العهود . »

— « لم يعد ثمة شيء من مثل تلك العهود . » كذلك قال الكولونيل ، وتحطمت الرقبة .

يا للجحيم ! ربما لم يكن ثمة ايما رقبة البتة ، كذلك فكر الكولونيل . وقال لنفسه : « الى الجحيم بك ! اقلع عن هذا التفكير ، وكن مخلوقاً بشرياً بعد أن بلغت من العمر نصف قرن . »

وقال للمايسترو الأعظم : « خذ كأساً اخرى من الكاربانو . »

— « أعتقد انك سوف تجيز لي ان ارفض ، يا زعيمى ، بسبب قرحة المعدة ، أليس كذلك ؟ »

— انظر الحاشية على ص ٧٢

- « اجل ، اجل ، طبعاً . يا غلام ، ما اسمك ، جيورجي ؟
ايتني بكأس آخر من المارتيني الصِّرف » . ثم اضاف بالاطالية : « كأس
آخر جد صِرف . صرف ومضاعف . » Secco , molto secco e doppio
تحطم الرقى ، كذلك قال في ذات نفسه . ان هذه ليست هي صناعتي .
صناعتي هي قتل الرجال المسلحين . والرقية يجب ان تكون مسلحة اذا
كان لي أن أحطمها . ولكننا قتلنا اشياء كثيرة لم تكن مسلحة . حسناً ،
يا محطم الرقى ، اسحب كلامك . »

وقال : « ايها المايسترو الأعظم ، انت لا تزال مايسترو أعظم ،
والى الجحيم بالكوندوتيري ! »

- « لقد ذهبوا الى الجحيم منذ سنوات عديدة ، ايها القائد الأعلى . »
فقال الكولونيل : « هذا صحيح تماماً . »
ولكن الرقية كانت قد تحطمت .

وقال الكولونيل : « سوف اراك على العشاء . ما عندكم من
الوان الطعام ؟ »
- « سوف يكون عندنا كل ما ترغب فيه ، فإذا اعوزنا شيء بعشنا
بن يأتيك به . »

- « هل لديكم شيء من الهليون الطازج ؟ »
- « انت تعلم اننا لا نستطيع أن نحصل عليه في هذه الشهور . انه
يأتينا في نيسان ، ومن باستانو . »

فقال الكولونيل : « اذن فكّر لي بطعام ما ، وسوف أطعمه . »
فسأله كبير النُدُل : « كم شخصاً ستكونون ؟ »
فأجابه الكولونيل : « سوف نكون اثنين . متى تفتحون المطعم ؟ »
- « سوف تقدم اليك طعام العشاء في أيما ساعة متأخرة تود ان

تتناول الطعام فيها ، .

فقال الكولونيل : « سوف احاول ان اكون هناك في ساعة معقولة . الى اللقاء أيها المايسترو الأعظم ، . وابتسم وبسط للمايسترو الاعظم يده الشائئة .

فقال المايسترو الأعظم : « الى اللقاء ، أيها القائد الأعلى ، « وعادت الرقية الى الوجود ، وكانت كاملة تقريباً .

ولكنها لم تكن كاملة تماماً ، ولقد عرف الكولونيل ذلك وقال في ذات نفسه : لماذا اتصرف دائماً وكأنني نفل ؟ ولماذا لا أستطيع ان ارجىء صناعة الحرب هذه ، وانقلب الى رجل كريم صالح كما وددت دائماً ان اكون ؟

أنا احاول دائماً ان اكون عادلاً ، ولكني فظ ، واني لوحشي ، وليس معنى هذا اني اقمّت خطوط الدفاع ضد ان عليّ ان اكون رجلاً أفضل يجري في عروقه مقدار من دم الخنازير أقلّ ، في الفترة القصيرة التي بقيت لي على ظهر هذه الارض . وقال في ذات نفسه : « سوف نجرب ذلك الليلة ، . ثم اضاف : « من ؟ واين ؟ وليساعدني الله على ان لا اكون طالحاً . »

- « جيورجي ! ، كذلك قال للساقى ، الذي كان ذا وجه أبيض كوجه المجذوم ، ولكنه خلو من الورم وعاطل عن البريق الفضي .

والواقع ان جيورجي لم يكن يحب الكولونيل كثيراً ، أو لعله كان مجرد ابن من ابناء مقاطعة بييدمونت ، فهو لا يحب احداً حباً حقيقياً . وهو شي غير مستغرب في الاقوام الباردین الواقدين من ارض واقعة على الحدود بين بلدين . ان اولئك الاقوام لا يثقون بأحد ، ولقد عرف الكولونيل ذلك ، وكان لا يتوقع من فاقد الشيء ان يعطيه .

- « جيورجي ! » كذلك قال للساقى ذي الوجه الشاحب . سجل هذه الأشياء على حسابي ، من فضلك . »
وانصرف ، ماشياً كما تعود دائماً أن يمشي ، في ثقة مغالى بها بعض الشيء ، حتى في الاحوال التي كانت فيها تلك الثقة غير ضرورية .
وبعزمه المجدد دائماً على ان يكون كريماً ، محتشماً ، وصالحاً ، القى التحية على بواب الفندق ، وكان صديقاً له ، وعلى المدير المساعد ، الذي كان يتكلم اللغة السواحلية ، وكان في وقت ما اسير حرب في كينيا ، وكان رجلاً من أشد الناس قرباً الى القلب ، فقى وسيماً يمور غضارة ونضارة ، فقى واسع التجربة ، ولمعه لم يكن بعد قد انضوى تحت راية المنظمة .

وسأله : « وكيف حال الفارس الرسمي Cavaliere ufficiale الذي يدير هذا الفندق ؟ صديقي ؟ »
فأجابه المدير المساعد : « انه ليس هنا الآن ، ثم اضاف : « مؤقتاً ، طبعاً . »
فقال الكولونيل : « احمل اليه تمنياتي . وابعث معي من يدلي على حجرتي . »

- « انها الحجرة المعهودة . الا تزال راغباً فيها ؟ »
- « نعم . هل احطت الرقيب (السرجانت) بعنايتك ؟ »
- « انه ينعم بعناية حسنة . »
فقال الكولونيل : « حسن . »
ومضى الكولونيل الى حجرتة يصحبه الغلام الذي حمل حقيبته .
- « من هنا يا زعمي ! » كذلك قال الغلام عندما توقف المصعد

في شيء من الاختلال الهيدروليّ (المائي) عند الدور الأعلى .
وسأله الكولونيل : « ألا تستطيع ان تسير المصعد كما ينبغي له
ان يُسّر ؟ »
فأجابه الفلام : « لا ، يا زعمي . ان التيار لا يستقر على
حال . »

ولم يقل الكولونيل شيئاً ، وتقدم الغلام مجتازاً الرواق . كانت رواقاً واسعاً ، عريضاً ، عالي السقف . وكان ثمة فسحة طويلة ظاهرة بين أبواب الحجرات على جانب «القناة الكبرى» . وطبيعي ، وقد كان قصراً ، ان لا يكون ثمة حجرات عاطلة من المشاهد الفاتنة ، ما خلا الحجرات المخصصة للخدم .

ووجد الكولونيل المسافة طويلة ، على الرغم من انها قصيرة جداً . حتى اذا برز النادل المكلف بالسهر على الحجرة ، قصيراً اسمر ذا عين زجاجية مستقرة في محجر عينه اليسرى ، لماعاً ، غير قادر على ان يبتسم ابتسامته الكاملة الحقيقية فيما كان يدير المفتاح الكبير في القفل ، تمنى الكولونيل لو ينفتح الباب في سرعة أعظم .

وقال : « إفتحه ! »

فقال النادل : « سوف افعل ، يا زعيمى . ولكنك تعرف هذه الاقفال . »

أجل ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . أنا أعرفها ، ولكنى أتمنى لو يُوفّق الى فتحه .

- « كيف حال اسرتك ؟ » قال هذا للساقى الذي كان قد فتح الباب على مصراعيه بحيث أمسى الكولونيل ، وقد اجتاز العتبة ، ضمن

نطاق الحجرة ذات الخزانة العالية الداكنة، ولكن المزودة بمرايا حسنة، وذات
السريرين الجيدين، والثريا الضخمة، والاطلالة - من خلال النوافذ التي لا تزال
مغلقة - على مياه « القناة الكبرى » التي عبثت بها الريح .
كانت القناة الآن رمادية كالفلواز، تحت ضوء الشتاء الخاطف الواهن .
وقال الكولونيل : « آرنالدو ، افتح النوافذ ! »

- « ان ثمة رياحاً شديدة ، يا زعيمي ، والحجرة رديئة التدفئة بسبب
من ندرة الطاقة الكهربائية . »
فقال الكولونيل : « بسبب من ندرة الامطار . افتح النوافذ .
افتحها كلها . »

- « كما تريد ، يا زعيمي . »
وفتح النادل النوافذ ، فاندفعت ريح الشمال الى الحجرة .
- « أرجوك ان تملن لمكتب الادارة وأسألكم ان يصلوني بهذا الرقم . »
فملن النادل ، فيما كان الكولونيل في الحمام .

وقال : « الكونتيسة ليست في البيت ، يا زعيمي . انهم يعتقدون
انك قد تجدهما في حانة هاري . »
- « انك تجد كل شيء معروف على سطح الارض ، في حانة
هاري . »

- « أجل يا زعيمي ، ما عدا السعادة ، ربما . »
فأكد له الكولونيل قائلاً : « بل لأنني لأجد فيها السعادة ايضاً .
السعادة ، كما تعلم ، هي عيد غير ثابت التاريخ . »
فقال النادل : « أنا أعني ذلك . لقد جئت بك بشراب كامباري مرير
وبزجاجة غوردون جين . هل أعيد لك كأس كامباري مع الجن
والصودا ؟ »

فقال الكولونيل : « أنت غلام طيب . من اين جئت بها ؟ من

المشرب ؟ »

« لا . لقد اشتريتها خلال غيابك لكي لا تضطر الى انفاق المال في المشرب . المشرب غال جداً . »

فأفرّاه الكولونيل على هذا بقوله : « اني اوافقك . ولكن ليس ينبغي لك أن تنفق مالك الخاص على غرض كهذا . »

« انتهزتُ فرصة . ولقد انتهزنا كلانا كثيراً من الفرص . إن زجاجة « الجن » كلفتني ٣٢٠٠ لير ، وهي شرعية . أما الكامباري فكلفتني ثمانية . »

فقال له الكولونيل : « أنت غلام طيب جداً . كيف كانت البطّات ؟ »

« إن زوجتي لا تزال تتحدث عنها حتى الآن . فنحن لم نفر في ايام من الايام بشيء من البط البري ، لأنه غال جداً ولا ينسجم مع طريقة حياتنا . ولكن واحداً من جيراننا علمها كيف تطهوها ، ولقد شاركنا اولئك الجيران انفسهم في أكلها . انا لم اعرف من قبل قط أن في استطاعة أيّا شيء ان يكون لذيذ الطعم الى هذا الحد . فما ان تطبق أسنانك على شرحة صغيرة من اللحم حتى تستحوذ عليك بهجة تكاد ان تكون ممتعة على التصديق . »

« ذلك هو رأيي ، ايضاً . فليس ثمة ما هو ألتّ في الحلق من ذلك البط السمين الآتي من وراء الستار الحديدي . وأنت تعلم أن خط طيرانه هو عبر حقول القمح الواسعة المنبسطة على الدانوب . ان ما لدينا هنا يمثل هجرة صغيرة من هجرات الطيور ، ولكنها كانت ولا تزال ، منذ ما قبل اختراع البنادق ، تتخذ السبيل نفسها . »

فقال النادل : « أنا لا اعلم شيئاً عن اطلاق النار من أجل القنص . لقد كنا قوماً معدّمين اكثر مما ينبغي . »

« ولكن كثيراً من الناس الذين لا يملكون مالا يخرجون للقنص

في الـ « فينيتو » .

- « أجل . من غير ريب . ان المرء ليسمعهم يطلقون النار طوال الليل . ولكننا كنا أفقر من أن نقدر على ذلك ؛ لقد كنا أفقر مما تستطيع ان تعلم ، يا زعمي . »

- « أعتقد في استطاعتي ان أعلم . »

- « ربما ، ، كذلك قال النادل . « لقد احتفظت زوجتي بالريش كله ، وقد سألتني أن اشكرك . »

- « اذا ما نعيمنا بعد غدٍ بيوم محظوظ فلا بد أن نفوز بمقدار وافر من البط الكبير ذي الرؤوس الخضراء . قل لزوجتك اننا ، اذا واثنا الحظ ، فسوف يكون لدينا بطٌ شهى المذاق ، جميل الريش ، سمين كالحنازير بفضل ما أصابه عند الروس من غذاء . »

- « ما رأيك في الروس ، إن لم يكن من قلة الذوق أن أسألك ، يا زعمي ؟ »

- « انهم اعداؤنا المقبلون . وهكذا فأنتي ، كجنديّ ، على استعداد لأن اقاتلهم . ولكنني أحبهم كثيراً ، ولم اعرف طوال حياتي شعباً أروع منهم ولا أشدّ شهاً بنا . »

- « ان الحظ لم يُسعدني قط بمعرفتهم . »

- « سوف تسعد بمعرفتهم ، أيها الغلام . سوف تسعد . إلا اذا اوقفهم باسياردي المبجل عند خط الـ « بيافا » ، الذي هو نهر لم يعد يشتمل على شيء من الماء . لقد سَيَفَنُوهُ^١ للأغراض المائية الكهربائية . ولعل باسياردي المبجل أن يحارب هناك . ولكنني لا أعتقد أنه سوف يواصل الحرب فترة طويلة . »

١ - Siphon أي سحبوا مياهه بطريقة السيفنة أو باستعمال السيفون .

ـ « انا لا اعرف باسياردي المبجل . »

فقال الكولونيل : « أنا أعرفه . »

ـ « اسألهم ان يتلفنوا الى حانة هاري ويروا اذا كانت الكونتيسة

هناك . فأن لم تكن فاطلب ان يتلفنوا الى البيت كرة أخرى . »

وتناول الكولونيل الكأس التي اعدّها آرناالدو ، النادل الزجاجي

العين ، من أجله . كان غير راغب فيها ، ولقد عرف أنه لن يسيغها .

ولكنه تناولها ... تناولها بشراسته الخنزيرية البرية القديمة كما سبق له

ان تناول كل شيء طوال حياته ، وتقدم بمثل خطى الهرّ ـ على الرغم

من انه الآن هرّ طاعن في السن ـ نحو النافذة المفتوحة ، وأطلّ على

« القناة الكبرى » التي كان لونها قد اخذ يستحيل الآن الى رمادي غامق ،

فكأنّ « ديغا »^٢ كان قد رسمها في يوم من أشد ايامه إمعاناً في الكتابة .

ـ « اشكرك على الشراب شكراً جزيلاً ، » كذلك قال الكولونيل ،

فهزّ آرناالدو ـ الذي كان يتحدث بالهاتفون ـ برأسه ، وافترت شفتاه

عن ابتسامته الزجاجية العين .

وقال الكولونيل في ذات نفسه : ليت لم يضطر الى اصطناع تلك

العين الزجاجية . انه لم يجب ـ كذلك قال في ذات نفسه ـ إلاّ أولئك

الذين قاتلوا او الذين شوّهوا .

لقد كان الناس الآخرون رائعين ، ولقد احببتهم وشدّت اليهم

اواصر صداقة متينة . ولكن لم تكن تستشعر الحنان والحب الحقيقيين

إلاّ نحو أولئك الذين كانوا هناك ، والذين تلقوا العقاب الذي يتلقاه كل من

يلبث هناك فترة طويلة .

وإذن فأنا مولع بالمشوّهين ، كذلك قال في ذات نفسه ، وهو

٢ - Degas رسام فرنسي ١٨٣٤ - ١٩١٧ . (العرب)

يرتشف الشراب غير المرغوب فيه . وكل ابن عاهرة مصاب اصابة قاسية
- وهو مصير كل من يلبث هناك - خليقاً بأن يحظى بحبي .
أجل ، كذلك قال الجانب الآخر ، الطيب ، من شخصيته . انت
تحبهم .

وقال في ذات نفسه : إني لأوثر ان لا احب احداً . اني لأوثر أن
أمرح وألهو .

فقال له الجانب الآخر الطيب من شخصيته : « ولكنك لن توفق
الى المرح والله ما دمت لا تحب . »
حسن جداً . انا احب اكثر من اي ابن عاهرة على قيد الحياة ،
كذلك قال الكولونيل ولكن ليس بصوت عال .
اما بصوت عال فقال : « الى اين وصلت في هذه المخابرة التلفونية ،
يا آرنالدو ؟ »

فقال النادل : « سيبرياني لم يأت بعد . انهم يتوقعون مجيئه في كل
لحظة ، ولقد ابقيت الخط مفتوحاً إنتظاراً له . »
فقال الكولونيل : « اجراء باهظ النفقة . احصل لي على بيان
بالموجودين هناك ، لكي لا نضيع الوقت . انا اريد ان اعرف على وجه
الضبط من يوجد هناك . »

فتحدث آرنالدو ، باحتراس ، من خلال فم التلفون .
وغطى فم التلفون بيده وقال : « انا اتحدث الى إيتور . هو يقول
إن البارون ألفاريتو ليس هناك . الكونت آندريا هناك ، وهو مخمور
بعض الشيء ، يقول إيتور ، ولكنه ليس مخموراً الى حد لا يمكنكما من
اللهو معاً . ومجموعة السيدات اللواتي يقبلن كل اصيل هن هناك ، وثمة
أميرة يونانية انت تعرفها واناس كثيرون لست تعرفهم . وحشالة من
القنصلية الاميركية ، ما برحوا هناك منذ الظهر . »

- « قل له أن يتلفن لك عندما تنصرف الحثالة وعندئذ أفدُ عليهم . »

وتحدث آرلاندو بالهاتفون ، ثم التفت الى الكولونيل الذي كان يطل من النافذة على قبة الـ «دوغانا» وقال : «إيتور يقول انه سوف يحاول ان يزحزحهم عن مواقعهم ، ولكنه يخشى أن لا يرتاح سيبرياني الى ذلك . »

- « قل له ان لا يصرفهم . فهم غير مضطرين الى العمل هذا الاصيل ، وليس ثمة اي سبب يقضي بأن لا يسرفوا في الشراب ، حتى الشمل ، مثل أي امرئ آخر . كل ما في الامر اني لا اريد ان أراهم . »

- « إيتور يقول انه سوف يتلفن لنا في ما بعد . لقد قال لي ان «الموقع» سوف يسقط من تلقاء ذاته . »

فقال الكولونيل : « اشكره على اتصاله التلفوني هذا . »

وراقب غندولا يصعد في القناة في اتجاه معاكس للريح ، وقال في ذات نفسه : ليس مع اميركيين يعاقرون الخمر . انا أعرف انهم ضحية السأم . في هذه المدينة ، ايضاً . انهم سثمون في هذه المدينة . انا اعلم أن المكان بارد ، ورواتبهم لا تكاد تكفيهم ، وهم يكلفهم الوقود . إني لأكبر زوجاتهم ، للجهود الباسلة التي يبذلونها لنقل كيوكوك^١ الى البندقية ، وقد اصبح أولادهم يتكلمون الايطالية مثل صغار البنادقة . ولكن لا صور خاطفة اليوم ، يا جاك . لقد اعطينا الصور الخاطفة ، ومحادثات الحجرة ذات المشرب ، والكؤوس الاخوانية غير الضرورية ، وويلات الخدمات القنصلية المضجرة ، اجازة اليوم .

- « لا نائب قنصل ثان ، أو ثالث ، أو رابع اليوم ، يا آرلاندو . »

١ - Keokuk مدينة في جنوب شرقي ولاية ايبووا ، بالولايات المتحدة على نهر المسيسيبي . (المعرب)

- « ان بين رجال القنصلية نفراً جد محبّين الى القلب . »
فقال الكولونيل : « اجل . لقد كان لديهم هنا قنصل رائع الى حد
جهنمي في عام ١٩١٨ . كان الناس كلهم يحبونه . سوف احاول أن
اذكر اسمه . »

- « أنت ترجع بالذاكرة الى عهد بعيد جداً . »
- « انا أغالي في الرجوع بالذاكرة الى عهود بعيدة بحيث يصبح ذلك
أمراً غير ممتع . »

- « هل تذكر كل شيء عن العهود السالفة ؟ »
فقال الكولونيل : « كل شيء . كان اسم ذلك الرجل هو كارول . »
- « لقد سمعت به . »

- « لم تكن قد ولدت آنذاك . »
- « هل تحسب ان من الضروري ان يكون المرء مولوداً في وقت
بعينه لكي يلمّ بالاشياء التي حدثت في هذه المدينة ، يا زعمي ؟ »
- « انت محقّ في ذلك مئة بالمئة . قل لي ، هل يلمّ كل امرئ دائماً
بكل ما يحدث في هذه المدينة ؟ »

فأجابه النادل : « ليس كل امرئ . ولكن كل امرئ تقريباً .
وعلى اية حال ، فأغطية السرر هي أغطية السرر ، ولا بدّ لها من
شخص يبدّلها ومن شخص يغسلها . طبعاً ، انا لا أشير الى أغطية
السرر في فندق كهذا . »

- « لقد عرفت في حياتي فترات سعيدة الى حد لعين من غير ما
أغطية سرر . »

- « طبعاً . ولكن الغناديلين ^١ ، برغم أنهم من أكثر الناس تعاوناً
وبرغم أنهم - عندي - اروع الناس في هذه المدينة ، يتحدثون

١ - الذين يحذفون في الغناديل (جمع غندول) Gondoliers (العرب)

- في ما بينهم . »
 - « طبعاً . »
 - « ثم هناك رجال الدين ، فهم برغم أنهم لا ينتهكون حرمة اسرار كرمي الاعتراف ابداً ، يتحدثون ايضاً في ما بينهم . »
 - « هذا امرٌ متوقع . »
 - « ومدبرات بيوتهم يتحدثن في ما بينهن . »
 - « ذلك حق من حقوقهن . »
 فقال آرنالدو : « وهناك النُذُلُ ايضاً . فالناس يتكلمون على المائدة وكأن النادل مصابٌ بصمم كامل . والنادل ، وفقاً لعلم الاخلاق الخاص به ، لا يحاول أن يسترق السمع أبداً . ولكنه لا يستطيع ان يتجنب السماع في بعض الأحيان . ونحن طبعاً ، لنا احاديثنا الخاصة التي نديرها في ما بيننا . ليس في هذا الفندق البتة ، طبعاً . وفي استطاعتي ان أواصل السرد . »
 - « أعتقد أني فهمتُ المراد . »
 - « هذا اذا لم نذكر المزيّنين والحلاقين . »
 - « وما الأنباء من ريبالتو الآن ؟ . »
 - « سوف تفوز بها كلها في حانة هاري ، باستثناء ذلك الجزء الذي تتمثل فيه أنت . »
 - « وهل أتمثل أنا في تلك الأنباء ؟ »
 - « كل امرئ يعرف كل شيء . »
 - « حسناً ، انها قصة مائعة الى حد لعين . »
 - « بعض الناس لا يفهمون الجزء الخاص بتورشيلا . »
 - « اكون ملعوناً اذا استطعت انا فهمه في بعض الأحيان . »
 - « كم لك من العمر ، يا زعيمى ، ان لم يكن من قلة الذوق ان أسأل ؟ »

— « خُسون سنة وسنة . لماذا لم تسع الى معرفة ذلك من طريق
بواب الفندق ؟ لقد ملأت هناك قصاصة من الورق ليُصار الى تقديمها
لرجال الشرطة . »

— « اردتُ ان اسمع ذلك من فمك انت وأن اهنئك . »

— « لست ادري عن اي شيء تتكلم . »

— « دعني اهنئك على اية حال . »

— « لست استطيع ان اقبل ذلك . »

— « انت جدٌ محبوب في هذه المدينة . »

— « شكراً ، هذا ثناء عظيم جداً . »

وفي تلك اللحظة رن جرس التلفون .

فقال الكولونيل : « سوف أُجيب أنا . » وسمع صوت ايتور يقول :
« من الذي يتكلم ؟ »

— « الكولونيل كاتتويل . »

— « لقد سقط الموقع ، يا زعيمى . »

— « في اي اتجاه ذهبوا ؟ »

— « نحو البيازّا . »

— « حسن . سوف آتي في الحال . »

— « هل تريد مائدة ؟ »

فقال الكولونيل : « في الزاوية » ، وأغلق الخط .

— « انا ذاهب الى حانة هاري . »

— « أتمنى لك صيداً طيباً . »

— « سوف اصيد البط بعد غد ، قبل انبلاج الفجر في برميل في

الاراضي السبخة . »

— « وسوف يكون الجو بارداً ، ايضاً . »

- « هذا ما يخيّل اليّ . » قال الكولونيل ذلك ، وارتدى مِطره .
ونظر الى وجهه في صفحة المرآة الطويلة فيما كان يعتمر بقبعته .
- « وجه قبيح » ، كذلك قال للمرآة . « هل رأيت قط ، قبل
اليوم ، وجهاً أشنع ؟ »
فقال آرنالدو : « نعم . وجهي . كل صباح عندما احلق لحيتي . »
- « ان علينا كلينا أن نحلق في الظلام ، كذلك قال الكولونيل ،
وغادر الحجرة . »

لم يكد الكولونيل كانتويل يغادر باب « فندق قصر غريتي » حتى
أستقبل الحيوط الاخيرة من أشعة شمس ذلك اليوم . كان لا يزال ثمة شيء
من اشعة الشمس في الجانب الآخر من الساحة ، ولكن الغناديلين آثروا
اجتناب الريح الباردة من طريق التلكؤ في حمى « غريتي » المحجوب
عن الرياح ، على الافادة من بقية حرارة الشمس الباقية على جانب الساحة
الذي تتناوح فيه الريح .

وبعد أن لاحظ الكولونيل ذلك ، استدار يمنة واجتاز الساحة الى
الشارع المعبد الذي ينعطف نحو اليمين . وفيما هو يستدير وقف لحظة
ونظر الى كنيسة « سانتا مارييا ديل جيغلييو » .

يا لها من بناية رائعة ، متماسكة ، ومع هذا فهي مستعدة لأن تُنقل
على متون الطائرات ، كذلك قال في ذات نفسه . انا لم ادرك قط من
قبل ان في استطاعة كنيسة صغيرة ان تبدو مثل « ب ١٧ » . يجب ان
أستطلع متي شيدت ومن شيدها . لعنبا الله ، لشد ما أتمنى لو أسير
مطوّفاً في هذه المدينة طوال حياتي . اجل طوال حياتي ، كذلك قال
في ذات نفسه : يا لها من شكيمة . شكيمة يُشكم بها الفم . صمام
خائق . يضبط مقدار الوقود في ماكينتك . وقال في ذات نفسه :
هيا ، ايها الغلام . فلست أعرف أن فرساً اسمه « سوداوي » قدّر له

ان يكسب سباقاً ما في أي يوم من الأيام .

والى هذا - كذلك قال في ذات نفسه وهو ينظر الى واجهات المحال المختلفة التي اجتاز بها : دكان لحم الخنزير بما فيه من 'جبن' «باميزان» وأفخاذ الخنزير المملحة من «ساف دانيل» و«لقائق» «آلا» كاسياتورا، وزجاجات الويسكي الاسكتلندي الجيدة و «جن» غوردون الحقيقي ، ودكان بيع السكاكين والملاعق والشوكات ، ودكان بيع التحف الاثرية بما فيه من نفائس ومن خرائط ومطبوعات قديمة ، ومطعم الدرجة الثانية المتقنع بقناع باهظ التكاليف كذلك الذي تصطنعه مطاعم الدرجة الأولى ، وانتهى أخيراً الى الجسر الأول عابراً قناة رافد من الروافد ذات درجات ترتقى - والى هذا فأنا لا استشعر الضيق الى هذا الحد . ليس ثمة غير الطنين . انا اذكر متى بدأ ذلك ، ولقد ظننت ان ذلك ربما كان جراداً سَبْعَشرى^١ في الاشجار ولم أحب ان أسأل «لاوري» الفتي ولكني فعلت . فأجابني : « لا ، ايها الجنرال ، انا لا أسمع أية صراير أو أي جراد سَبْعَشرى . الليل ساكن سكوناً تاماً ، وليس هناك ما يعكر صفوه غير الاصوات العادية .

ثم إنه استشعر وخز الألم الحاد ، فيما هو يرتقي تلك الدرجات ، حتى اذا هبط الى الجانب الآخر رأى فتاتين يهتقي الطلعة . كانتا جميلتين ، حاسرتي الرأس ، ترتديان ملابس هزيلة ولكنها أنيقة ، وكانتا تتحدثان في تعجل بالغ ، وكانت الريح تمبث بشعرهما فيما هما تصعدان بأرجلهما الفينسية الطويلة الرشيقة الخطو ، وقال الكولونيل في ذات نفسه : من

١ - seventeen - year Locust جراد في اميركة يعيش سبعة عشر عاماً محتفظاً بطور الحوراء Nymph ثم يخرج خلقاً سوياً فلا يعيش الا اسابيع قلائل . (العرب)

الخبر لي ان أطلع عن تسريح النظر في واجهات المحال القائمة على طول هذا الشارع ، وان اتقدم الى الجسر التالي وبعد ان أجتاز ساحتين اثنتين أنعطف الى اليمين مباشرة وأواصل السير في هذه الاتجاه حتى ابلغ حانة هاري .

ولقد فعل ذلك ليس غير ، مستشعراً وخز الألم الحاد فوق الجسر ، ولكنه ظل يمشي بخطواته القديمة نفسها ، غير ناظر ، على نحو خاطف ، الا من اجتاز بهم من الناس . إن في هذا الهواء مقداراً وافراً من الأوكسجين ، كذلك قال في ذات نفسه وهو يواجه الريح ويتنفس في عمق .

ثم إنه انتهى الى باب حانة هاري ، فدفعه ، فانفتح ، فاذا هو في داخل الحانة . لقد اجتاز تلك المسافة كرة اخرى ، وما هو ذا الآن في « بيته » .

وفي الحانة قال رجل طويل ، رجل فارغ الطول ، ذو وجه مرهق ينم عن حسن تهذيب ، وعينين زرقاوين مرحتين ، وجسد طويل يوقع في النفس فكرة الاستهتار والانغماس في الملذات شبيه بجسد ذئب جاموسي : « يا زعمي القديم الفاجر ! »

— « اهلاً بآندرييا الخبيث ! »

وتعانقا ، واستشعر الكولونيل خشونة نسيج سترة آندرييا الصوفية الأنيفة التي كانت ، من غير شك ، في سبيلها الى الدخول في عامها الثاني عشر .

وقال الكولونيل : « انت تبدو في عافية ، يا آندرييا . »

كانت كذبة ، ولقد عرفا كلاهما ذلك .

فقال آندرييا راداً على الكذبة بمثلاً : « اجل أنا في عافية . بل يتعين عليّ ان اقول اني لم استشعر العافية في ايما يوم اكثر مما أستشعرها

الآن . رانت نفسك تبدو في صحة ممتازة جداً . «
- « شكراً ، يا آندرييا ، نحن الأنغال ^١ الأصحاء سوف نرث
الارض . »
- « فكرة جيدة جداً . يخيل اليّ اني لن امانع في وراثة ايامشيء
في هذه الأيام . »
- « ليس لديك من القوة ما يمكنك من الممانعة . انك سوف ترث ما
يزيد على ستة اقدم منها ^٢ . »
فقال آندرييا : « ستة أقدام وستة إنشات ، ايها الرجل الحبيث !
ألا تزال تكدح كالعبد الرقيق في الحياة العسكرية ؟ »
فأجابه الكولونيل : « انا لا أكدح فيها أكثر مما ينبغي . اني ذاهب
للصيد في سان ريلاجو . »
- « ادري . ولكن لا تطلق النكات بالاسبانية في هذه الساعة . إن
آلفاريتو كان يبحث عنك . لقد اوصانا بأن نخبرك إنه سيعود . »
- « حسن . هل زوجتك اللطيفة واولادك بخير ؟ »
- « في خير عيم . وقد سألوني ان اقدم احسن تمنياتهم لك اذا ما
رأيتك . انهم الآن في رومة . ها هي ذي فتاتك . او واحدة من
فتياتك » . كان من الطول بحيث استطاع ان يستكشف الشارع الذي
أمسى الآن شبه مظلم ، ولكن هذه كانت فتاة تستطيع ان تبيّن لها حتى
ولو كانت الظلمة أشد من تلك التي رانت على الشارع في تلك الساعة .
- « سلها ان تشرب معنا كأساً قبل ان تنتقل بها الى مائدة الزاوية
تلك . أليست مليحة الوجه ؟ »

١ - جمع نغل ، وهو ولد الزانية الذي لا يعرف أبوه .

٢ - يعني القبر . (المغرب)

- « بلى . إنها كذلك . »

ثم إنها دخلت الحجرة مشرقة في شباها وجمالها الفارع المتهادي والفوضى التي اوقعتها الريح في شعرها . كانت ذات بشرة شاحبة زيتونية اللون او تكاد ، مظهر جانبي (بروفيل) قادر على أن يُفطر قلبك او قلب أيّ امرئ آخر ، وكان شعرها الداكن ، ذو النسيج الرقيق ، يتدلى فوق منكبيها .

وقال الكولونيل : « هالو ، يا حسنائي الفاتنة ! »

فقلت : « اوه ، اوه ، هالو ! لقد حسبتُ اني سأفتقدك . أنا آسفة لتأخري . »

كان صوتها خفيضاً رقيقاً ، وقد تكلمت الانكليزية في احتباس . وقالت : « طاب مساؤك ، يا آندريا . كيف اميلي وكيف حال الاولاد ؟ »

- « اغلب الظن انهم في نفس الحال التي كانوا عليها حين أجبتك عن ذلك السؤال عينه عند الظهر . »

فقالت وقد شاع الدم في وجهها : « أنا آسفة اعظم الأسف . اني مضطربة ، واني لأقول الأشياء المغلوطة دائماً . ما الذي يتعين عليّ ان أقوله ؟ هل قضيت وقتاً طيباً ، هنا ، طوال الأصيل ؟ »

فقال آندريا : « نعم . مع صديقي القديم وناقدي الأقسى . »
- « ومن هو ؟ »

- « ويسكي اسكتلندي وماء . »

- « أحسب انه اذا شاء ان يناكدي فلا بدّ له من هذا . » كذلك قالت للكولونيل . « أما أنت فلا تناكدي ، أليس كذلك ؟ »
- « خذيه الى مائدة الزاوية تلك وتحدّثي اليه . لقد مللتكما كليكما . »

فقال له الكولونيل : «أما انا فلم أملك . ولكني اعتقد أنها فكرة جيدة . ما رأيك في شيء من الشراب نتجرعه ونحسن جالسان ، يا ريناتا ؟»

– «يسعدني ذلك إن لم يكن آندريا غاضباً .»
– «انا لا اعرف الغضب أبداً .»

– «هل ترغب في ارتشاف كأس معنا ، يا آندريا ؟»
فقال آندريا : «لا . امض الى مائدتك . لقد سئمت من رؤيتها شاغرة .»

– «وداعاً ، يا كارو . شكراً لك على الشراب الذي لم نفرز به .»
– «وداعاً يا ريكاردو ، كذلك قال آندريا ، وكان ذلك كل شيء .
وولاهما ظهره الفارع المشوق ونظر في المرأة الموضوعة خلف بعض القضبان لكي يستطيع المرء أن يتبين نفسه حين يسرف في الشراب ، واستقر رأيه على عدم الارتياح لما رآه هناك . فقال : «ايتور ، ارجوك أن تسجل هذا الهراء في فاتورتي .»

ثم انه مضى لسبيله بعد ان انتظر معطفه في أناة ، ثم ارتداه متأيلاً ونفخ الرجل الذي جاءه به بالبقشيش الواجب تقديمه اليه تماماً بالإضافة الى عشرين في المئة ايضاً .

وعلى المائدة التي في الزاوية قالت ريناتا : «هل تعتقد أننا جرحنا أحاسيسه ؟»

– «لا . انه يحبك ، ويحبني .»

– «آندريا لطيف جداً . وانت لطيف جداً .»

ونادى الكولونيل النادل . ثم سألهما : «هل ترغبين في كأس من المارتيني الصّرف ايضاً ؟»

فقالت : «نعم ، إني لأحب ذلك .»

فقال الكولونيل : « كأسين من المارتيني الصرف الى أبعد الحدود .
كأسين على الطريقة المونتغميرية . خمسة عشر جزءاً مقابل جزء
واحد . »

وابتسم النادل ، الذي كان قد حارب في الصحراء^١ ، ومضى لسبيله ،
والتفت الكولونيل الى ريناتا .

وقال : « أنت لطيفة . وانت أيضاً جميلة جداً وقريبة الى الفؤاد .
وأنا أحبك . »

— « انت تقول هذا دائماً ، ولست ادري ما معناه ولكنني أحب
سماعه . »

— « ما سنك الآن ؟ »

— « حوالي التاسعة عشرة . لماذا ؟ »

— « ولست تدري ما معناه ؟ »

— « لا . وما الذي يدعوني الى ذلك ؟ الاميركيون يقولون لك هذه
الكلمات ، دائماً ، قبل أن يغادروا البلاد . إنها تبدو شيئاً ضرورياً
بالنسبة اليهم . ولكنني أحبك اعظم الحب ، أيضاً ، أياً ما كان
معنى ذلك . »

فقال الكولونيل : « فلننعم بلحظات سعيدة . دعينا لا نفكر في
أي شيء على الاطلاق . »

— « خليك بذلك أن يسرّني . أنا لا أحسن التفكير في مثل هذا
الوقت من النهار على أية حال . »

فقال الكولونيل : « هو ذا الشراب . تذكرني ان عليك ان لا

١ - في ساحة القتال التي تولى فيها مونتغميري قيادة قوات الحلفاء .
(المغرب)

تقولي تشين تشين .^١

— « انا اذكر ذلك من المرات السابقة . انا لا اقول تشين تشين البتة .
ولن اقول على صحتك ، أو فلنقلب الكأس رأساً على عقب . »
— « سوف نكتفي برفع كأسينا ، وفي استطاعتنا - اذا رغبت - ان
نقرع الحافة بالحافة . »

فقلت : « انا راغبة في ذلك . »

كان شراب المارتيني بارداً كالجليد ، وكان مُعَدَّاً على الطريقة
المونتوغوميرية حقاً . وبعد ان قرعنا الحافة بالحافة أحسنا به يتوهج على
نحو سعيد في حنايا صدرها كلها .

وسألها الكولونيل : « وماذا كنت تعملين ؟ »

— « لا شيء . انا لا ازال انتظر موعد العودة الى المدرسة . »

— « اين هي مدرستك الآن ؟ »

— « الله اعلم . حيثما اذهب لأتعلّم الانكليزية . »

— « اديري رأسك وارفعي ذقنك لي مرة واحدة . »

— « انت تمزح ، أليس كذلك ؟ »

— « لا . أنا لا امزح . »

فأدارت رأسها ، ورفعت ذقنها ، في غير زهو ولا غنج . واستشعر
الكولونيل ان فؤاده ينقلب في صدره ، وكأن حيواناً هاجعاً دار على
نفسه في جحره فروّع ، على نحو عذّب ، الحيوان الآخر الهاجع على
مقربة دانية منه .

وقال : « اوه ما اروعك ! ألا تحبين ان تدخلني في يوم من الايام
مباراة لانتخاب ملكة السماء ؟ »

١ - chin - chin تعبير يقيد معنى التحية والحديث الراشح باللفظ .

« خلىق بذك ان يكون تدنيساً للمقدسات . »
فقال : « هذا صحيح . أحسب انه سوف يكون كذلك . واني
لأسحب الاقتراح . »

فقلت : « ريتشارد . لا ، انا لا استطيع ان أقولها . »
« قولها . »

« لا . »

وقال الكولونيل في ذات نفسه : انا آمرِك بأن تقولها . وقالت :
« ارجوك ان لا تنظر اليّ هكذا ابداً . »
فقال الكولونيل : « أنا آسف . لقد انزلت الى صناعتي على نحوٍ لا
شعوري . »

« ولو قد كنا متزوجين او شيئاً من هذا القبيل فهل تنزع الى
ممارسة صناعتك في البيت ؟ »

« لا ، واقسم لك على ذلك . انا لم انزع الى هذا في حياتي قط .
في اعماق اعماقي على الأقل . »

« لم تنزع الى هذا مع أحد البتة ؟ »

« لا . اعني مع احد من بنات جنسك . »

« انا لا احب لفظة «جنس» هذه . انها تخيل اليّ انك كنت
تمارس صناعتك . »

« اني اقذف بصناعتي من تلك النافذة اللعينة الى القناة العظمى . »

فقلت : « ها ! أرايت مبلغ اندفاعك الى ممارستها ؟ »

فقال : « حسن جداً . انا احبك ، وفي استطاعة صناعتي ان
تصرف في رفق . »

فقلت : « دعني ألمس يدك . إنها بخير . في استطاعتك ان تضعها على
المائدة . »

فقال الكولونيل : « اشكرك . »

فقالت : « ارجوك ان لا تفعل . لقد اردت ان ألمسها لأنى طوال الاسبوع الماضي - كل ليلة او كل ليلة تقريباً في ما اعتقد - رأيته في ما يراه النائم وكان حلاً مشوشاً وحملتُ انها كانت يد المسيح . »

- « هذا رديء . ما كان ينبغي لك ان تفعل ذلك . »

- « ادري . لقد كان ذلك ما رأيته في المنام ليس اكثر . »

- « انت لستِ على متن السفينة الصينية ، أليس كذلك ؟ »

- « لست ادري ما تعني ، وارجوك ان لا تمزح حين اقول لك شيئاً

حقيقياً . لقد رأيت في نومي ما اقله تماماً . »

- « وماذا فعلت اليد ؟ »

- « لا شيء . او ربما ليس هذا صحيحاً . اغلب الظن انها كانت

مجردة . »

- « مثل هذه ؟ » كذلك سأها الكولونيل ، ناظراً في نفور الى اليد

المشوهة ، ومتذكراً الاصابتين اللتين جعلتاها على تلك الشاكلة .

- « ليس مثلها . لقد كانت هذه اليد ذاتها . أسمح لي أن أمسها

بأصابعي في رفق اذا كانت لا تؤلمك ؟ »

- « انها لا تؤلمني . ما يؤلمني هو في الرأس ، والرجلين ، والقدمين .

انا لا أعتقد ان في هذه اليد اي احساس . »

فقالت : « انت مخطيء ، يا ريتشارد . ان هذه اليد مفعمة بالاحساس . »

- « لست احب ان انظر اليها كثيراً . انت لا تعتقدين ان في استطاعتنا

ان نغفلها . »

- « من غير ريب . ولكنك غير مضطر الى ان تراها في منامك . »

- « لا . ان لدي احلاماً اخرى . »

- « اجل . في استطاعتي ان اتخيل ذلك . ولكنني حملتُ بهذه اليد

منذ قريب . أما وقد لمستها الآن في رفق ففي ميسورنا ان نتحدث عن

اشياء مسلية اذا شئت . ما عندك من الموضوعات المسلية التي نستطيع
أن نحوض فيها ؟ »

— « دعينا ننظر الى الناس ونضعهم في ميزان النقد . »
فقلت : « هذا جميل . ولن نفعل ذلك بنخب . بروح دعابتنا
الفضلى ليس غير . دعابتك ودعابتى . »

— « حسن ، » كذلك قال الكولونيل . ثم نادى النادل واطاف :
« كأسان من المارتيني أيضاً . » Ancora due Martini

إنه لم يستحسن أن يقول له « كأسان على الطريقة المونتغميرية »
في نبرة يمكن أن يسمعا الآخرون ، اذ كان يجلس الى المائدة المحاذية
شخصان لم يكن ثمة ريب في أنها بريطانيان .

لعل الذكر كان ممن 'جرحوا في الحرب' ، كذلك قال الكولونيل في
ذات نفسه ، برغم أن ملاحظه تجعل هذا الظن بعيد الاحتمال . ولكن
فليساعدي الرب على اجتناب القسوة الوحشية . فلأنظر الآن الى عيني
ريناتا ، كذلك اضاف في ذات نفسه . لعلها اجمل ما فيها من جمالات
بأهدابها البريئة التي لم أر أطول منها في حياتي ، والتي لا تستعملها لغير
النظر اليّ في صدق وعفة . أي فتاة رائعة هي ، وما الذي افعله هنا
على أية حال ؟ ذلك اثم من الأثم . وقال في ذات نفسه : انها آخر
محبوبة سوف تعرفها ، بل ان حبك هذا هو حبك الصادق الوحيد .
وليس هذا بالأثم . انه شاهد على سوء حظك ليس غير . لا ، كذلك
قال في ذات نفسه ، إنه يمور بالسعادة الى حد لعين ، وانك به
لجدة سعيد .

لقد جلسا الى مائدة صغيرة في زاوية الحجرة ، والى يمينها جلست
اربع نساء الى مائدة اكبر . كانت واحدة من اولئك النساء في ثوب
الحداد ؛ ثوب حداد مسرحي الى درجة ذكرت الكولونيل باللايدي

ديانا مانرز وقد مثلت دور الراهبة في رواية « المعجزة » لماكس راينهارد .
كانت تلك المرأة ذات وجه جذاب ريان مبتهج بالفطرة ، وكان ثوب
حدادها متناقراً مع هذا كله .

وكانت بين الجالسات الى تلك المائدة امرأة اخرى كان شعرها اشد
شيباً ، بثلاثة اضعاف ، مما يستطيع الشعر أن يشيب - كذلك قال
الكولونيل في ذات نفسه . وكانت هي الأخرى ذات وجه مليح .
أما المرأتان الاخريان فأن وجهيهما لم يعنيا شيئاً بالنسبة الى الكولونيل .
وسأل الفتاة : « أتعتقدين انهن من أهل السحاق ؟ »

فقالت : « لست ادري . انهن كلهن من فضليات النساء . »
- « أنا اميل الى الاعتقاد بأنهن مساحقات . ولكن ربما كن مجرد
صديقات حميات . أو ربما كن مساحقات وصديقات في آن معاً . ذلك
شيء لا يهمني البتة ، ولم يكن ما قلته انتقاداً . »

- « انت رائع حين تكون دمثاً . »
- « هل تحسبن ان لفظة جنتلمان Gentleman منحوتة من لفظتي
الرجل Man والدمث Gentle ؟ »

« لست ادري ، » كذلك قالت الفتاة ، وأمرت اصابعها في رقعة
بالغة فوق اليد الخافلة بالندوب . « ولكني احبك حين تكون دمثاً . »
فقال الكولونيل : « سوف ابذل غاية الجهد لكي اكون دمثاً .
من يكون ، في اعتقادك ، ابن العاهرة ذاك الجالس الى المائدة التي
خلفهن ؟ »

فقالت الفتاة : « انت لا تعتصم بالدمائة فترة طويلة . فلنسأل إيتور . »
ونظر الى الرجل الجالس الى المسائدة الثالثة . كان ذا وجه غريب
اشبه بوجه ابن عرس أو ابن مقرض^١ مخيب الآمال مضخم تضخماً

١ - ابن مقرض Ferret حيوان من اللواحم اشبه بابن عرس .

شديداً . لقد بدا مجدوراً شائهاً مثل جبال القمر حين تُرى من خلال
مِرْقَب (تلسكوب) رخيص ، وبدا - كذلك فكر الكولونيل - مثل
وجه غوبلز ، لو ان الهر غوبلز قُدِّر له ذات يوم ان يكون في طائرة
احترقت ولم يوفِّق الى النجاة بنفسه منها قبل ان تدركه النار .

وفوق وجهه - الذي كان يحدق على نحو موصول ، وكأن الجواب
يمكن ان يُكتشف بالاسراف في تشديد النظرات وبالشكوك وعلامات
الاستفهام - كان شعراً اسود بدا وكأنه ليس بينه وبين الجنس البشري
أية صلة . لقد بدا الرجل وكأن جلدة رأسه قد سُلِخت ثم اعيد الشعر
الى مكانه . شيء ممتع جداً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .
أمن الممكن ان يكون مواطناً من مواطني ؟ نعم ، لا ريب أنه
مواطن من مواطني .

وتجمّع شيء من الرضا في زاوية فمه وهو يتجاذب اطراف الحديث
- مُحدّثاً - مع المرأة المسنة ، البادية العافية ، التي كانت معه . انها
تبدو مثل ايّ أمّ من الامهات اللواتي يزينون بها صفحات مجلة « ذي
لايدز هوم جورنال » ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . كانت
مجلة « ذي لايدز هوم جورنال » احدى المجلات الواردة على نحو نظامي
الى نادي الضباط في تريستا ، وكان الكولونيل يتصفحها كلما وردت .
انها مجلة رائعة ، كذلك فكّر ، لأنها تجمع ما بين « السكولوجيا »
والأطعمة الشهية . انها تثير جوعي الى الأمرين جميعاً .

ولكن من ذلك الرجل يا ترى ؟ انه يبدو مثل صورة كاريكاتورية
لرجل اميركي أمير نصف إمرار في آلة تهريم اللحم ، ثم غلي في الزيت
غلياً طفيفاً . أنا لا اتعلق بأسباب الدماثة كثيراً ، كذلك قال في
ذات نفسه .

وأقبل ايتور ، بوجهه الهزيل وبجبهه للمزاح وبما فطر عليه من قلة احترام الآخرين . فسأله الكولونيل : « من هذه الشخصية الروحية ؟ »
فهز ايتور رأسه .

كان الرجل قصيراً داكن البشرة ذا شعر أسود صقيل بدا وكأنه لا يتلاءم وذلك الوجه الغريب . لقد بدا ، كذلك فكّر الكولونيل ، وكأنه نسي ان يغير لِمَتَه المستعارة بعد ان طعن في السن . ولكن له ، برغم ذلك ، وجهاً رائعاً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . انه يبدو أشبه ببعض الهضاب المحيطة بـ « فيردان » . ولست احسب ان من الممكن ان يكون هو غوبلز ، وانه اتخذ ذلك الوجه في الايام الاخيرة عندما كانوا كلهم يشاركون في تمثيل الـ « غوتر دامورونغ »^١ تعالَ ايها الموت العذب Komm' Susser كذلك قال في ذاته نفسه . حسناً ، لقد اشتروا لأنفسهم قطعة كبيرة ممتازة من « الموت العذاب Susser في النهاية .

— « هل ترغبين في ساندويشة شهية من « الموت العذب » يا آنسة ريناتا ! »

فقالت الفتاة : « لا اظن ذلك . برغم اني احب « باخ » ، وبرغم ثقتي من ان سيبرياني قادر على إعدادها . »

فقال الكولونيل : « لم اكن اهاجم باخ . »
— « أدري . »

فقال الكولونيل : « يا للجحيم ! لقد كان باخ — عملياً — محارباً في صفوفنا . » ثم اضاف : « كما كنتِ انت . »

١ — Gotterdammerung ، او « غسق الآلهة » ، سلسلة من الدرامات الموسيقية مؤلفة من اربعة اجزاء ، بدأ « واغنر » في وضعها عام ١٨٦٠ ولم يتمها الا عام ١٨٧٦ .
(المعرب) .

— « لست احسب اننا مضطران الى الغمز من قناتي . »
فقال الكولونيل : « متى ستتعلمين ، يا بنيتي ، ان في استطاعتي أن
أمازحك لأنني احبك ؟ »

فأجابت : « الآن . لقد تعلمته . ولكنك تعلم ان من الجميل ان لا يقسو
المرء في مزاحه اكثر مما ينبغي . »
— « حسن . لقد تعلمته . »

— « كم مرة تفكر بي خلال الاسبوع ؟ »
— « طوال الوقت . »

— « لا . قل لي كم مرة تفكر بي على وجه الضبط . »
— « طوال الوقت . على وجه الضبط . »

— « هل تحسب ان الهيام يبلغ بكل امرئ هذا المبلغ ؟ »
فقال الكولونيل : « لست ادري . هذا واحد من الأمور التي
لا اعرفها . »

— « ارجو ان لا يبلغ الهيام بكل امرئ هذا المبلغ . لم اكن
اتصور ان في امكانه ان يبلغ هذا المبلغ . »
— « حسناً ، انت تعرفين ذلك الآن . »

فقالت الفتاة : « اجل انا اعرفه الآن . أنا اعرفه الآن واعرفه الى الابد .
اهذه هي الصيغة الصحيحة للتعبير عن ذلك ؟ »

فقال الكولونيل : « قولك انا اعرفه الآن كافٍ . ايتور ، هذه
الشخصية ذات الوجه الملهم والمرأة المليحة التي معه لا يقمان في فندق غريقي ،
ليس كذلك ؟ »

فأجابه ايتور : « لا ، انه يقيم في المبنى المجاور ، ولكنه يفد في
بعض الاحيان الى غريقي ليتناول الطعام . »

فقال الكولونيل : « حسن ، ولسوف يكون من الرائع أن أراه

إذا ما ألمّ به القنوط في يوم من الايام . من المرأة التي معه ؟ زوجته ؟
أمه ؟ بنته ؟ »

فأجابه ايتور : « لقد غلبتني . اننا لم نتعقب آثاره في البندقية .
وهو لم يثر لا حباً ، ولا بغضاً ، ولا كرهاً ، ولا خوفاً ، ولا
ارتباباً . هل تريد ، فعلاً أن تعرف ايما شيء عنه ؟ في استطاعتي أن
اسأل سيبرياني . »

فقالت الفتاة : « دعنا نغفله . ليس هذا هو التعبير الذي
تصطنعونه ؟ »

فقال الكولونيل : « دعنا نغفله . »

- « ما دمنا لا نجد متسعاً من الوقت ، يا ريتشارد . اننا في
الواقع نضيع وقتنا في الكلام عليه . »

- « كنت انظر اليه كما ينظر المرء الى لوحة من لوحات غويا .
الوجوه صوراً ايضاً . »

- « انظر الى وجهي ولسوف انظر الى وجهك . ارجوك ان
تُغفل الرجل . انه لم يأت الى هنا لكي يؤذي احداً . »

- « دعيني انظر الى وجهك من غير ان تنظري انت الى وجهي . »
فقالت : « لا . هذا غير عادل . ان عليّ أن اتذكر وجهك
طوال الاسبوع . »

فسألها الكولونيل : « وماذا افعل انا ؟ » .

وأقبل ايتور - غير قادر على اجتناب الرغبة في الكيد ، بعد أن
جمع معلوماته في سرعة وكما ينبغي لرجل بندقية أن يفعل - وقال :
- « زميلي الذي يعمل في هذا الفندق يقول انه يشرب ثلاث كؤوس
ويسكي او اربع كؤوس ثم يكتب في اسراف وفي تدفق حتى ساعة
متأخرة من الليل . »

- « بخيل اليّ ان قراءة ما يكتبه لا بد ان تكون حافلة بالمتعة » .
 فقال ايتور : « بخيل اليّ ذلك . ولكن طريقة دانتي كانت مختلفة جداً عن هذه الطريقة . »
 فقال الكولونيل : « لقد كان دانتي ملعوناً عجوزاً آخر . بوصفه رجلاً أعني ، لا بوصفه كاتباً . »
 فقال ايتور : « انا اوافق . وأحسب انك لن تجد ، خارج فيرينز^١ أيما امرئ درس حياته لا يوافق على ذلك . »
 فقال الكولونيل : « فلتنتهك حرمة فلورنسة ! »
 فقال ايتور : « تلك عملية عسيرة . لقد حاولها كثيرون ، ولكن قلة منهم نجحت في ذلك . لماذا تبغضها ، يا زعمي ؟ » .
 - « هذا أعقد من أن اشرحه لك . ولكنها كانت مركز التدريب depot وقد لفظها deposito لفرقي العسكرية القديمة عندما كنت غلاماً . »
 - « في استطاعتي ان افهم هذا . إن لديّ اسبابي الخاصة التي تدعوني الى بغضها ايضاً . هل تعرف مدينة طيبة ؟ » .
 فقال الكولونيل : « نعم . هذه المدينة ، وجزء من ميلانو ، وبولونيا ، وبيرغامو . »
 - « ان لدى سيرياني ذخيرة كبيرة من الفودكا في حال مجيء الروس ، » كذلك قال ايتور . وقد نزع الى المزاح القاسي .
 - « انهم سوف يحيثون بفودكاهم الخاصة ، غير الخاضعة للرسوم . »
 - « ومع ذلك فأنا اعتقد ان سيرياني مستعد لاستقبالهم . »
 فقال الكولونيل : « واذن فهو الشخص الوحيد المستعد لذلك . قل له ان لا يقبل اي شيكات من الضباط الصغار على بنك اوديسا ،

١ Firenze الاسم الايطالي لمدينة فلورنسة . (المغرب)

واشكرك على المعلومات التي زودتني بها عن مواطني . أنا لن آخذ من وقتك أكثر مما فعلت . »

وانصرف ايتور ، واستدارت الفتاة نحو الكولونيل ونظرت الى عينيهِ الفولاذيتين العتيقتين ، ووضعت كلتا يديها على يده المشوهة وقالت :
« لقد كنت غايةً في اللطف والدمائة . »

— « وأنت غاية في الجمال ، واني لأحبك . »

— « من الجميل سماع ذلك على أية حال . »

— « ما الذي سنفعله في ما يتصل بطعام العشاء ؟ »

— « سوف اتلفن الى بيتي وأستطلع ما اذا كان في ميسوري أن اغادره لهذا الغرض . »

— « لماذا تبدين محزونة الآن ؟ »

— « وهل أبدو محزونة ؟ »

— « نعم . »

— « لست محزونة في الواقع . انا الآن اسعد مني في ايما وقت مضى . تلك هي الحقيقة . ارجوك ان تصدقني ، يا ريتشارد ، ولكن ماذا تتوقع من فتاة في التاسعة عشرة متيمّة بحب رجل تجاوز الخمسين ، رجل عرفت جيداً انه اشرف على الموت ؟ »

فقال الكولونيل : « انت تصورين الوضع في شيء من الفظاظة . ولكن الجمال يَنقُطر منك حين تقولين ذلك . »

فقالت الفتاة : « انا لا أبكي البتة . البتة . لقد عقدت العزم على ان لا أفعل . ولكنني سوف أبكي الآن . »

فقال الكولونيل : « لا تبكي . أنا الآن دمث الاخلاق ، والى الجحيم بكل ما سوى ذلك . »

— « قل مرة اخرى انك تحبني . »

- « أنا احبك ، وأحبك ، واحبك . »
- « هل ستبذل غاية جهدك كي لا تموت ؟ »
- « نعم . »
- « ماذا قال الطبيب ؟ »
- « بين بين . »
- « ألم يقل ما هو أسوأ ؟ »
- « لا . » لقد كذب .
- « اذن فلنأخذ كأساً اخرى من المارتيني . انت تعلم اني لم اشرب
كؤوس المارتيني قط قبل التقائنا . »
- « ادري . ولكنك تشربينها في استمتاع رهيب . »
- « ألا يجب عليك أن تأخذ الدواء ؟ »
- « بلى ، كذلك قال الكولونيل . « يجب عليّ أن آخذ الدواء . »
- « هل تستطيع أن أقدمه اليك ؟ »
- فقال الكولونيل : « نعم ، تستطيعين ان تقدميه اليّ . »
- وظلا جالسين الى المائدة التي في الزاوية ، وانصرف بعض الناس
واقبل آخرون . واستشعر الكولونيل ببعض الدوار من جراء الدواء
وتركه يأخذ سبيله في حرية . وقال في ذات نفسه : تلك هي الحال
دائماً . الى الجحيم بهذا كله .
- ورأى الفتاة تراقبه ، وابتسم لها . كانت ابتسامةً عجوزاً اصطنعها
طوال خمسين سنة ، منذ أن قدر له ان يبتسم اول مرة ، وكانت لا
تزال سليمة مثل « بارودة الخردق » من طراز بوردي Purdey التي كانت
لجده . حسناً ، لقد كان دائماً أبرع مني في الرماية ، وهو بذلك
جدير .
- وقال : « اسمعي ، يا بُنَيَّة . لا يأخذك الجزع عليّ . »

— « لستُ جزعة . لا ، على الاطلاق . انا احبك ليس غير . »
— « انها ليست بالمهمة المستساغة ، اليس كذلك ؟ واصطنع لفظة
oficio بدلاً من لفظة « مهمة » ، لأنها كانا يتكلمان الاسبانية أيضاً كلما
تركا الفرنسية ، وكلما رغبا عن الكلام بالانكليزية أمام الآخرين . ان
الاسبانية لغة قاسية ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، أقسى من
قوله الذرة ١ في بعض الاحيان . ولكن في استطاعتك ان تعبر بها
عن المعنى الذي تريد ، وان ترسخه . »

وكرر قائلاً : « ان حبك لي مهمة رديئة الى حدٍّ غير يسير . Es un
« oficio bastante malo . »

— « أجل ، ولكنه الحب الوحيد الذي أملكه . »
— « ألا ترالين تنظيمين الشعر ؟ »
— « لقد كان ما نظمته شعر فتاة في مستقبل العمر . مثل لوحات فتاة
في ميعة الصبا . كل امرئ يكون موهوباً في سنٍّ بعينها . »
في ايّ سن تصبح شيخاً في هذه البلاد . كذلك قال الكولونيل في
ذات نفسه . ان احداً لا يشيخ في البندقية ، ولكن الصغار يشبّون
عن الطوق في سرعة بالغة . ولقد شبّبتُ أنا عن الطوق في سرعة
بالغة في الـ « فينيتو » ، ولم أكن في ايما يوم اكثر كهولة مما كنت في
الحادية والعشرين .

وسألها في محبة : « كيف أملك ؟ »
— « في خير وعافية . انها لا تستقبل احداً ، وتكاد لا ترى احداً
بسبب من حزنها وأساها . »
— « هل تعتقدين أنها تعارض لو أنجبنا ولداً ؟ »
— « لست ادري . انها ذكية جداً ، كما تعلم . ولكنني مضطرة الى

١ الجزء الحشي من كوز الذرة المصفوفة عليه حياتها .

الزواج من امرىء ما ، في ما أحسب . وإن كنت لا أرغب في ذلك في الواقع .

- « في استطاعتنا ان نتزوج . »

فقلت : « لا . لقد فكرت في هذا ، فرأيتُ انه ليس ينبغي لنا ان نفعل . ذلك مجرد قرار كالقرار اتخذته في مسألة البكاء . »

- « لعلك تتخذين قرارات خاطلة . والمسيح يعلم اني اتخذت بضعة قرارات خاطلة ، ولقد قضى كثير من الناس حتفهم بسبب اخطائي . »
- « يخيّل اليّ ، في أغلب الظن ، انك تبالغ . انا لا اعتقد انك اتخذت كثيراً من القرارات الخاطلة . »

فقال الكولونيل : « لم تكن قراراتي الخاطلة كثيرة . ولكنها كانت كافية . ان ثلاثة قرارات خاطلة تعتبر ، في صناعتي ، شيئاً كثيراً ؛ ولقد اتخذت هذه القرارات الثلاثة كلها . »

- « بودّي لو اعرف هذه القرارات ! »

فقال لها الكولونيل : « لو حدثتك عنها اذن لأوقعت الضجر في نفسك . إنها تضنّيني كلما تذكرتها . فما ظنك بالامر الذي يجدر بها أن تخلّفه في نفوس الغرباء ؟ »

- « وهل انا غريبة ؟ »

- « لا ، انت حيي الصادق . حيي الأخير ، الوحيد ، الصادق . »

- « هل اتخذتها في عهد مبكر أم في فترة متأخرة ؟ القرارات أعني . »

- « لقد اتخذتها في عهد مبكر . وفي عهد متوسط . وفي عهد

متأخر . »

- « ألا تحب ان تحدثني عنها ؟ لشدّ ما اتوق الى ان يكون لي في

صناعتك الكثيرة نصيب . »

فقال الكولونيل : « تباً لتلك القرارات ! لقد اتخذتها ، ولقد دفعتُ

ثمها غالباً . كل ما الأمر انك لا تستطيعين أن تدفعي الثمن بسببها .
- « هل تقوى على تحديثي عن ذلك ولماذا ؟ »

فقال الكولونيل : « لا » . وكان هذا نهاية ذلك .

- « اذن فلنأخذ بأسباب المرح . »

فقال الكولونيل : « فلنأخذ . ما دمنا لا نملك غير حياة واحدة ،

وحيدة . »

- « ربما كان ثمة غيرها . حيوات اخرى أعني . »

فقال الكولونيل : « لست اظن ذلك . اديري وجهك بجانباً يا مثال

الجمال . »

- « هكذا ؟ »

فقال الكولونيل : « هكذا ، هكذا تماماً . »

وعلى هذا النحو ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وصلنا الى
الجولة الأخيرة ولست ادري حتى مجرد رقم الجولة . انا لم احب غير
ثلاث نساء ولقد خسرتهن جميعاً .

انت تخسرن بمثل الطريقة التي تخسر بها كتيبة من الجند ؛ بالخطأ
في الحكم على الأشياء ؛ بالامام المتعذر تنفيذها وبواسطة الشروط
المستحيلة . وبواسطة الوحشية ايضاً .

لقد خسرت ثلاث كتائب في حياتي وثلاث نساء ، وها انت لدي
الآن رابعة هي أملحن كلهن ، ومن يدري بحق الجحيم اين ستكون
نهاية ذلك ؟

قل لي ايها الجنرال . وبالمناسبة - ما دمنا نناقش المسألة ، وهي
مناقشة صريحة للوضع وليست باية حال مجلساً عسكرياً ، كما ألمعت لي
ايها الجنرال في كثير من الأحيان - اجل قل لي ، ايها الجنرال ، اين هم
فرسانك ؟

لقد طاف في خلدي هذا السؤال نفسه ، كذلك قال الكولونيل .
ان القائد لا يعرف اين فرسانه ، وفرسانه لا يعلمون علم اليقين شيئاً لا
عن وضعهم ولا عن رسالتهم ، وهكذا فإنهم - او بعضهم ... عدداً
كافياً منهم - يفرون من ميدان المعركة كما تعود سلاح الفرسان ان يفرو
في جميع الحروب منذ أن كان لسلاح الفرسان أفراس ضخام .

وقال : « يا مثال الجمال ! يا عزيزتي الغالية ومحبوبي الأثيرة
Ma très Chère et bien aimée أنا مضجر جداً ، وإني لآسف . »

- « أنا لا استشعر الضجر معك البتة . وإني احبك ، ولست اطمع
في غير الأخذ بأسباب البهجة هذه الليلة . »

فقال الكولونيل : « سوف نأخذ بأسباب البهجة من غير ريب . هل
تعرفين أيما شيء خصوصي نستطيع أن نبتهج بسببه ؟ »

- « في استطاعتنا أن نبتهج بحالنا ، وأن نبتهج بهذه المدينة . لقد
طالما كنت مستسلماً للبهجة . »

فأقرها الكولونيل : « أجل . » لقد كنت .

- « ألا تفتقد أن في ميسورنا أن تفعل ذلك كرة أخرى ؟ »

- « من غير ريب . طبعاً . ولم لا ؟ »

- « هل ترى الغلام ذا الشعر المتموج ، الطبيعي ، فهو لا يزيد على ان

يرده الى الوراء بعض الشيء ، وفي حذق ، لكي يبدو أملح وأحلى . ؟ »

فقال الكولونيل : « أجل أراه . »

- « إنه رسام بارع جداً ، ولكن له اسناناً أمامية زائفة لأنه كان

في يوم ما ينزع منازل اصحاب الحب الشاذ بعض الشيء ، ولقد هاجمه

نفر من هؤلاء ذات ليلة في «الليدو» حين كان القمر بدرأ . »

- « ما سنك ؟ »

- « سوف أدخل عما قريب ، في سن التاسعة عشرة . »

- « وكيف تعرفين هذا ؟ »

- « لقد عرفت من الغناديليين . ان هذا الغلام هو الآن رسام بارع جداً . ونحن نفتقر في هذه الايام الى الرسامين البارعين حقاً . ولكن يا لمشهده ، الآن ، بهذه الأسنان الزائفة ، وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين ! »

فقال الكولونيل : « انا احبك اصدق الحب . »
- « وانا احبك اصدق الحب ايضاً . أيا ما كان معنى ذلك باللغة الاميركية . وانا احبك ايضاً بالاطالية ، برغم حصافتي كلها ، وأمنياتي كلها . »

فقال الكولونيل : « ليس من حقنا ان نسترسل في الأمنيات اكثر مما ينبغي . لأننا عرضة دائماً للفوز بها . »
فقالت : « اوافقك على هذا . ولكني اوثر ان افوز بما اتناه الآن . »

ولم يقل اي منها شيئاً ، ثم ان الفتاة قالت : « ذلك الغلام (لقد امسى الآن رجلاً طبعاً ، وهو يلزم كثيرات من النساء لكي يخفي حقيقته) قد رسمي مرة . في استطاعتي ان اقدم اليك تلك اللوحة اذا شئت . »

فقال الكولونيل : « شكراً . ولسوف احبها . »
- « انها رومانتيكية جداً . وشعري فيها اطول ، الى حد مضاعف ، مما كان في اي وقت مضى ، وهي تُظهرني وكأنني كنت انبثق من الماء ولكن من غير ان يصيب البلل رأسي . والواقع انك تنبثق من الماء وشعرك مسرف في التسطح والاستواء ، ... انك تبدو ، او تكاد ، مثل هرة على قاب قوسين من الموت . ولكن والذي دفع اليه ثمن اللوحة في سخاء . صحيح انها ليست انا حقاً ، ولكنها الوجه الذي

تودّ انت ان تراني فيه . »

– « اني لأتصورك منبثقة من البحر ايضاً . »

– « طبعاً . بشعة جداً . ولكنك قد ترغب في الاحتفاظ بهذه

على سبيل الذكرى . »

– « ألن تعترض امك الفاتنة على ذلك ؟ »

– « ان امي لن تعترض . بل اني لأحسب انها سوف تكون سعيدة

بالتخلص منها . ان عندنا في البيت صوراً افضل . »

– « انا احبك واحب امك حباً عظيماً . »

فقالت الفتاة : « يتعين عليّ ان اخبرها . »

– « هل تحسبن ان ذلك الغير ، المجدور الوجه ، كاتبٌ فعلاً ؟ »

– « اجل . اذا قال ايتور ذلك . انه يجب ان يمزح ، ولكنه

لا يكذب . ولكن ماذا تعني لفظة « غرّ » ، يا ريتشارد ؟ أصدّقني

القول . »

– « من العسير ، بعض الشيء ، ايضاح ذلك . ولكني احسب انها

تعني الرجل الذي لم يمارس صناعته (واستعمل لفظة *oficio* الاسبانية) ممارسة

فعلية ، والرجل المغرور بطريقة مزعجة . »

– « يتعين عليّ ان اتعلم لكي استعمل التعبير على وجهه الصحيح . »

فقال الكولونيل : « لا تستعمليه . »

ثم انه سأها : « متى ستقدمين اليّ اللوحة ؟ »

– « الليلة اذا شئت . سوف اكلف بعضهم بلفّها وبارسها اليك

من البيت . اين ستعلقها ؟ »

– « في حجرتي . »

– « ولن يأتي احد ويبيدي بعض الملاحظات ويقول فيّ مقالة سوء ؟ »

« لا . انهم لن يفعلوا ذلك . ثم اني سوف اقول لهم انها صورة ابنتي . »

« هل كانت لك في يوم من الايام بنت ؟ »

« لا . ولكني رغبت دائماً في ان تكون لي بنت . »

« استطيع ان اكون بنتك كما استطيع ان اكون اي شيء آخر . »

« خليقي بذلك ان يكون ضرباً من مضاجعة المحارم . »

« لست اعتقد ان هذا سوف يكون فظيماً جداً في مدينة عتيقة

كهذه المدينة ... مدينة شهدت ما شهدته هذه المدينة . »

« اسمعي ، يا بنيتي . »

فقالت : « حسن . هذا رائع . اني احب ذلك . »

« حسن جداً » . كذلك قال الكولونيل وقد غدا صوته خشناً

بعض الشيء . « وانا احبه ايضاً . »

« أرايت الآن لماذا احبك على الرغم من اني اعقل من ان أقدم

على ذلك ! »

« اسمعي ، يا بنيتي . اين تريدان أن تتناول طعام العشاء ؟ »

« حيثما يحلو لك . »

« هل تريدان ان تتعشي في الغريتي ؟ »

« طبعاً . »

« اذن تلفني الى البيت واطلي الاذن . »

« لا . لقد عقدت النية على ان لا اطلب الاذن مكتفية بأعلامهم

أين اعتزم ان اتناول طعام العشاء . وهكذا لن يساورهم القلق علي . »

« ولكن هل تفضلين « الغريتي » فعلاً ؟ »

« اجل . لأنه مطعم لطيف ، ولأنه الفندق الذي تنزل فيه ،

وهناك يستطيع من يشاء النظر إلينا ان ينظر إلينا . «
- « من اي عهد اصبحت هكذا ؟ »

- « لقد كنت هكذا طوال عمري . انا لم ابال قط ، في اي يوم ،
بالذي قد يقوله الناس . ولم ابشر قط اي عمل كنت خجلة به ما خلا
الكذب حين كنت فتاة صغيرة وخاشنة الناس . »

فقال الكولونيل : « لشد ما اتمنى لو نتزوج وتنجب خمسة اولاد . »
فقلت الفتاة : « هذا ما اتمناه انا ايضاً . وان نبعث بهم الى زوايا
العالم الخمس . »
- « وهل للعالم خمس زوايا ؟ »

فقلت : « لست ادري . لقد بدا لي وكأن له خمس زوايا حين قلت
ذلك . والآن ، لقد استعدنا مَرَحَنا ، اليس هذا صحيحاً ؟ »
فقال الكولونيل : « نعم ، يا بنيّتي . »
- « قلها مرة ثانية . تماماً كما قلتها الآن . »
- « نعم ، يا بنيّتي . »

فقلت : « اوه ، لا ريب في ان الناس جدّ معقّدين . أسمح لي بأن
ألمس يدك ؟ »

- « انها بشعة الى حد لعين واني لأكره النظر اليها . »
- « أنت لا تقدر يدك حق قدرها . »

فقال : « هذه مسألة رأي . اني لأميل الى القول بأنك مخطئة ،
يا بنيّتي . »

- « ربما كنت مخطئة . ولكننا أخذنا بأسباب المرح من جديد ،
وأياً ما كان الشيء الرديء فقد انقشع الآن . »
- « لقد انقشع كما ينقشع الضباب عن الأودية في الأرض المحروثة »

عندما تطلع الشمس ، ، كذلك قال الكولونيل : « وما الشمس
إلا أنت . »

– « أودّ ان اكون القمر ايضاً . »

فقال الكولونيل : « وأنت القمر . وأيا كوكب سيار ترغبين في ان
تكونيه ايضاً ، ولسوف احدد لك موقع الكوكب تحديداً دقيقاً . وحق
المسيح ، يا بنيّتي ، ان في استطاعتك أن تكوني كوكبة نجوم ثابتة
(Constellation) اذا شئت . ولكن هذه طائفة ^١ . »

– « سوف اكون القمر . ان للقمر متاعبه الكثيرة ايضاً . »

– « نعم . ان أحزانه لتتواتر على نحو نظامي . ولكنه يكتمل دائماً
قبل أن ينمحق ^٢ . »

– « إنه ينظر اليّ نظرات جدّ محزونة ، أحياناً ، عبر القناة ؛ وليس
في استطاعتي احتمال تلك النظرات . »

فقال الكولونيل : « لقد تطاول تطوافه في السماء . »

– « هل تستحسن أن نختسي كأساً أخرى على الطريقة المونتغميرية ؟ »
كذلك سأله الفتاة . ولاحظ الكولونيل ان البريطانيين قد انصرفوا .
لم يكن يلحظ شيئاً غير وجهها المليح . وقال في ذات نفسه : سوف
اقضي نحيبي في يوم ما إن استرسلت في ذلك . ومن ناحية أخرى ، فهذا
ضرب من التركيز في ما أحسب . ولكنه استهتار لعين .

١ – لكي يفهم القاريء هذه السطور نشير هنا الى ان اسم كرونستالاشين
Constellation ، او كوكبة النجوم الثابتة ، يطلق على نوع من الطائرات ايضاً .
(المغرب)

٢ – انمحق الهلال : لم يكد يرى في آخر الشهر .

- وقال : « اجل . ولم لا ؟ »
- فقلت الفتاة : « ان الكؤوس الموتغوميرية تنعش نفسي كثيراً . »
- « إنها تختلف في نفسي أثراً ما ، ايضاً ، بالطريقة التي يعدها سيرياني بها . »
- « سيرياني ذكي جداً . »
- « هو اكثر من ذلك . انه بارع . »
- « سوف يأتي يوم يمتلك فيه مدينة البندقية كلها . »
- فخالفها الكولونيل في الرأي : « ليس كلها تماماً . إنه لن يمتلك أبداً . »
- فقلت : « لا . ولن يمتلكني أيما امرئ ، إلا اذا أردتني انت . »
- « انا اريدك ، يا بنيتي . ولكني لا أريد أن امتلكك . »
- فقلت الفتاة : « انا اعلم ذلك ، وهذا سبب آخر يضاف الى مجموعة الاسباب التي تجعلني احبك . »
- « فلننادِ إيتور ، ونكلفه ان يتلفن لأهلك . في استطاعتك ان تحدثهم حديث اللوحة . »
- « انت على حق تماماً . اذا كنت راغباً في الحصول على اللوحة ، الليلة ، فسوف أطلب الى كبير الخدم ان يرزمها ويبيع بها اليك . ولسوف اسأله ايضاً ان يصلني بما لا أخبرها اين سنتناول طعام العشاء ، واذا شئت ذلك التمسْتُ منها إذن . »
- « لا . » كذلك قال الكولونيل ، ثم اضاف : « إيتور ، كأسين موتغوميريين ... كأسين موتغوميريين من الطراز الأعلى ، مع شيء من الزيتون المتوَّم ، ولتكن حياته غير كبيرة . وارجوك ان تتصل تلفونياً

ببيت هذه السيدة وتعلمها حين يتم هذا الاتصال . وافعل هذا كله
بأمرع ما تستطيع . »

– « سمعاً وطاعة ، يا زعيمي . »

– « والآن ، يا بنيّتي ، فلنستأنف الأخذ بأسباب المرح . »

فقلت : « لقد استأنفناه حين تكلمت . »

كانا يتمشيان الآن على الجانب الايمن من الشارع المفضي الى فندق غريقي . وكانت الريح تهب من ورائها ، ولقد عبثت بشعر الفتاة ودفعته الى امام . لقد افرقت مؤخر شعرها وعصفت به فتدلتي على وجهها . كانا ينظران الى واجهات المحال التجارية ، ووقفت الفتاة قبالة واجهة مضاعة لحل من محال بيع المجوهرات .

كانت في الواجهة روائع من المجوهرات القديمة ، ووقفنا ، وأنعمنا النظر اليها ، وأشار كل منهما بدوره الى ابدعها ، مفلتا يد رفيقه لكي يفعل ذلك .

— « هل ترغبين في اي من هذه رغبة حقيقية ؟ إن في استطاعتي أن اشتريها غداً صباحاً . ولسوف يقرضني سيبرياني ثمنها »
فقلت : « لا . لست أريد ايها شيء ، ولكنني لاحظ انك لا تقدم اليّ هدايا البتة . »

— « انت اغنى مني بكثير . اني احمل اليك اشياء صغيرة من مخازن الجيش ، واشتري لك اشربة كحولية وضروباً من الاطعمة . »
— « وتأخذني في الغناديل والى المواطن الفاتنة في البلاد . »
— « لم يخطر ببالي قط انك راغبة في هدايا من الحجر الصلد . »
— « لا ، لست راغبة في ذلك . انه مجرد التفكير في العطاء ثم

ينظر المرء الى المجوهرات ويفكر فيها حين تلبس .
فقال الكولونيل : « اني اتعلم . ولكن ما الذي استطيع براتي
العسكري ان اشتره لك مما يضاهاى زمرّ داتك المربعة ؟ »

- « ولكن ألا ترى ، لقد ورثتها . لقد تحدت الى من جدتي ، وكانت
جدتي قد ورثتها عن امها التي ورثتها بدورها عن امها ايضا . هل تعتقد ان
الأمر لا يختلف حين تكون الحجاره الكريمة التي تزين بها موروثة عن
أناس أموات ؟ »

- « انا لم افكر بذلك قط قبل اليوم . »
- « في استطاعتك ان تأخذها ، اذا كنت تحب الحجاره الكريمة .
فهي لا تعدر ان تكون عندي شيئاً ألبسه مثل ثوب من اثواب باريس .
انت لا تحب ان تلبس ثوبك العسكري الرسمي ، هل تحب ذلك ؟ »

- « لا . »

- « ولا تحب أن تتقلد سيفاً ، هل تحب ذلك ؟ »

- « لا ، لا . »

- « انت لست من ذلك الضرب من الجند ، وانا لست من ذلك الضرب
من الفتيات . ولكن قدّم الى في بعض الأحيان شيئاً باقياً استطيع
ان ألبسه وأن استشعر السعادة كلما لبسته . »

- « لقد فهمت . » كذلك قال الكولونيل . « ولسوف أفعل . »
فقالت الفتاة : « أنت تتعلم بسرعة اشياء لا تعرفها . وانك لتتخذ
قرارات ظريفة عاجلة . انا اريدك ان تأخذ أحجار الزمرد وأن تحتفظ
بها في جيبك كما يحتفظ المرء بجوالب الحظ السعيد ، وان تلمسها حين
تكون متوحداً . »

- « أنا لا اكثر من وضع يدي في جيوبي أثناء العمل . ان من دأبي
ان الوي عصاً ، او شيئاً ما ، أو أن أشير الى الأشياء بقلم رصاصي . »

- « ولكن في ميسورك ان تضع يدك في جيبك مرة واحدة ليس غير ، كلما انقضت فترة طويلة ، وان تلمسها . »
- « أنا لا اكون متوحداً في اثناء العمل . ذلك بأني استغرق خلال ذلك في تفكير عميق يجعلني دائماً في نجوة من التوحد . »
- « ولكنك لا تعمل الآن . »
- « لا . إني أُعد الطريقة الفضلى للانهزام ، ليس غير . »
- « سوف اقدمها اليك على اية حال . وانا واثقة من ان ماما سوف تتفهم الدافع الذي حفزني الى ذلك . وفوق هذا فلن اضطر الى اعلامها بذلك قبل انقضاء فترة طويلة . فهي لا تتحرى اشياي تحرياً موصولاً . وانا على يقين ان وصيفتي لن تخبرها ابداً . »
- « لست اعتقد انه ينبغي لي ان آخذها . »
- « خذها ، ارجوك ، لكي توقع في نفسي البهجة . »
- « لست واثقاً من انه عمل مشرف . »
- « ذلك أشبه ما يكون بقولك اني غير واثق من اني بـِكـر . ان كل عمل تقوم به إيهاجاً لشخص آخر تحبه هو عمل مشرف الى ابعد الحدود . »
- فقال الكولونيل : « حسن . سوف آخذها على اية حال . »
- « والآن قل اشكرك » ، قالت الفتاة ذلك ودست الحجارة الكريمة في جيبه بمثل رشاقة لص من لصوص المجوهرات . « لقد جئتُك بها لأنني سلخت الاسبوع كله في التفكير في ذلك وعقد النية عليه . »
- « لقد حسبت انك سلختِ بالتفكير في يدي . »
- « لا تكن فظاً ، ياريتشارد . ويتعين عليك ان لا تكون احمق البتة . ان اليد التي ستلمسها هي يدك . ألم تفكر في ذلك ؟ »

- « لا ، ولقد كنت احمق . ما الذي ترغبين فيه من معروضات هذه
الواجهة ؟ »

- « انا أرغب في ذلك الزنجي الصغير ذي الوجه الأبنوسي والعمامة
المصوغة من ماسات صغيرة ، والمزدانة قمتها بتلك الياقوتة الصغيرة .
ولسوف اعلقه على صدري مثل دحوس تزييني . كان كل امرئ في
هذه المدينة يعلق امثاله على صدره في الايام الخوالي ، ولقد كانت
الوجوه هي وجوه خدمهم المتمتعين بثقتهم . اني اشتيت ذلك منذ عهد
بعيد ولكنني اردتك ان تقدمه اليّ . »

- « سوف ابعث به اليك صباح غد . »

- « لا ، قدّمه اليّ حين نتناول طعام الغداء قبل رحيلك . »

فقال الكولونيل : « حسن . »

- « والآن يتعين علينا ان نمشي وإلا فانتا طعام العشاء . »

وشرعا يمشیان ، متشابكي الذراعين ، حتى اذا بلغا الجسر الاول
جلدتها الريح بسياطها . وحين استشعر وخز الألم الحادّ قال الكولونيل
في ذات نفسه : الى الجحيم بهذا .

وقالت الفتاة : « ريتشارد ، ضع يدك في جيبك لكي تبهجني والمساه . »
فنزل الكولونيل عند رغبتها .

وقال : « ان لمسها لبديع . »

ومن الريح والبرد تقدّما خلال المدخل الرئيسي لـ « غريتي بالاس اوتيل » ، نحو ضياء الردهة ودقّتها .

— « طاب مساؤك ، ايها الكونتيسة » كذلك قال بواب الفندق .
« طاب مساؤك ، يا زعيمى . لا بد ان يكون البرد قارساً في الخارج . »
فقال الكولونيل : « إنه لكذلك » ولم يُضِفِ ايّاً من العبارات الجافية أو البذيئة عن مدى البرد ، وقوة الريح ، التي كان من دأبه اصطناعها في الأحوال العادية رغبة في الاستمتاع المتبادل كلما تحدّث منفرداً الى بواب الفندق .

وفيا هما يدخلان البهو الطويل المفضي الى السلم العريض والى المصعد ، مغلّفاً — الى يمينك — المدخل الى المشرب (البار) ، والمُعبّر المطل على القناة العظمى ، والمدخل الى حجرة الطعام ، انبثق المايسترو الاعظم من المشرب .

كان يرتدي سترة بيضاء رسمية ، طويلة ، ولقد ابتسم لهما وقال :
« طاب مساؤك ، يا كونتيسي . طاب مساؤك ، يا زعيمى . »
فقال الكولونيل : « اهلاً بالمايسترو الاعظم ! »

وابتسم المايسترو الاعظم وقال وهو لا يزال منحنيّاً تحيةً لهما :
« نحن نقدّم طعام العشاء في المشرب في الطرف الاقصى . فليس ههنا احد الآن في فصل الشتاء ، وحجرة الطعام اضخم مما ينبغي . لقد احتفظت

لكما بمائدتكما . ان لدينا جرادة بحر ممتازة جداً ، اذا كنتا تحبّانها ،
كاستهلال . »

– « أهى طازجة حقاً ؟ »

– « لقد رأيتها هذا الصباح عندما جاءت من السوق في سلة . كانت
لا تزال على قيد الحياة وكانت خضراء داكنة ، مشاكسة الى ابعدها . »
– « هل تحبين ان تستهلي عشاءك بجرادة بحر ، يا بُنيّتي ؟ »

كان الكولونيل خجلاً باصطناع هذه الكلمة ، وكذلك كان المايسترو
الأعظم ، وكذلك كانت الفتاة . ولكن الكلمة عنت عند كل منهم
شيئاً مختلفاً .

– « كنت انوي الاحتفاظ بها لكما في حال مجيء ايّ من الاثرياء
المتهاكين على الربح المحرّم . لقد ذهبوا الآن ليقامروا في «الليدو» .
كنت احاول ان لا أبيعها . »

فقالت الفتاة : « يسرني ان أطعمَ شيئاً من جراد البحر . بارداً
مع المايونيز . وان يكون المايونيز كثيفاً . » لقد قالت هذا بالايطالية .
ثم قالت للكولونيل ، في نبرة جدية : « أليس جراد البحر
غالياً اكثر مما ينبغي ؟ »

فقال الكولونيل : Az hija mia

فقالت : « إلمس جيبيك الايمن . »

فقال المايسترو الأعظم : « سوف أتأكد من أن تلك الجرادة ليست
غالية اكثر مما ينبغي . والا اشتريتها أنا . في استطاعتي أن افوز بها
في يسر بالغ لقاء أجرى الاسبوعي . »

– « سوف تباع للتروست Trust » كذلك قال الكولونيل ، وكانت
لفظة «تروست» هذه هي اللقب المختصر الذي اطلقوه على القوات العسكرية
المحتلة مدينة تريستا . «انها لن تكلفني غير اجرة يوم واحد . »

فقالت الفتاة : « ضع يدك في جيبك الأيمن واستشعر » انك موسر جداً . »

وأدرك المايسترو ان هذه كانت نكتة شخصية ومضى لسبيله ، معتصماً بالصمت . كان سعيداً بالفتاة ، التي احترمتها واعجبت بها ، وكان سعيداً لما نعيم به الكولونيل من متعة وبهجة .

وقال الكولونيل : « انا غني » . ولكن اذا ناكدتني بالإشارة الى تلك الأحجار على نحو موصول ، أعدتها اليك ، بأن اضعها على غطاء المائدة ، وعلى مرأى من الناس جميعاً . »

كان قد شرع هو يناكدها بدونه ، على نحو خشن ، راداً على الهجوم بهجوم معاكس من غير ان يفكر في ذلك مجرد تفكير .

فقالت : « لا ، لن تفعل ذلك لأنك شرعت تحب تلك الأحجار . » - « إني لمستعد لأن أمسك بأيما شيء احبه واقذف به من اعلى شاطئ صخري قدّر لعينيك أن تراه ، وان لا انتظر حتى اسمعه يشب عن الارض . »

فقالت الفتاة : « لا ، لن تفعل . انك لن تقذف بي من ايما شاطئ صخري عالٍ . »

فأقرها الكولونيل قائلاً : « لا . واغفري لي حديثي الجافي هذا . » فقالت الفتاة له : « ان حديثك لم يكن جافياً جداً ، وانما لم اصدقك على اية حال . والآن هل امضي الى حجرة النساء لتسريح شعري وإظهار نفسي بمظهر لائق أم امضي معك الى حجرتك ؟ » - « اي الخطتين تؤثرين ؟ »

- « أن امضي الى حجرتك ، طبعاً ، وارى كيف تعيش فيها وكيف يجري كل شيء هناك . » - « واهل الفندق ؟ »

« كل شيء امسى معروفاً في البندقية على اية حال . ولكن الناس يعرفون أيضاً من هي اسرتي وأني فتاة صالحة . وهم يعرفون أيضاً ان المجتمعين أنا وأنت . ان لنا رصيذاً نستطيع ان نستنفده . »

فقال الكولونيل : « حسن . بالسلم ام بالمصعد ؟ »

« بالمصعد ، » كذلك قالت ، وسمع التغيير الطارئ على صوتها .
« في استطاعتك ان تنادي غلاماً ، واذا شئت اعملناه نحن بنفسينا . »
فقال الكولونيل : « فلنعمله نحن بنفسينا . لقد تبجرت في شؤون المصاعد منذ عهد بعيد . »

كانت رحلة المصعد ناجحة يشوبها ارتطام طفيف ، ثم اطرَد التيار الكهربائي آخر الأمر .

وقال الكولونيل في ذات نفسه : تزعم انك تبجرت في هذا ، ايه ؟ من الخير لك ان تبجر فيه من جديد .

لم يكن الرواق جميلاً الآن فحسب ، بل كان مثيراً . ولم يكن ادخال المفتاح في القفل عملية عادية ، بل كانت طقساً من الطقوس .
« ها هي اذي ، » كذلك قال الكولونيل وهو يدفع الباب بعد أن فتحه . « كيف تجدونها ؟ »

فقالت الفتاة : « انها فاتنة . ولكنها قارسة الى حد رهيب بسبب من هذه النوافذ المفتوحة . »
« سوف اغلقها . »

« لا ، ارجوك . دعها مفتوحة اذا كنت تحبها هكذا . »
وقبلها الكولونيل وأحسّ يجسدها الرائع المشوق ، الغض ، اللدن ، الحسن البناء يلامس جسده الذي كان قاسياً وحسناً ولكنه مضمناً .
وفيا هو يقبلها لم يفكر في شيء البتة .
وتبادلا القبلات فترة طويلة ، وقد وقفا منتصبين ، واستغرقا في التقبيل ، غير حافلين ببرود النوافذ المفتوحة المطلة على القناة العظمى .

وقالت : « اوه ! » ثم اضافت : « اوه ! »
وقال الكولونيل : « لسنا مدينين بشيء . بشيء البتة . »
- « هل ستتزوجني وهل سننجب الاولاد الخمسة ؟ »
- « سوف افعل ! سوف افعل ! »
- « هل ستفعل حقاً ؟ »
- « من غير ريب . »
- « قبلني كرة اخرى ، ودع اضرار سترتك العسكرية توجعني ولكن ليس اكثر مما ينبغي . »
ووقفوا هناك وتبادلا قبلات حارة . وقالت : « عندي خيبة أمل لك .
إن عندي ، في كل مسألة من المسائل ، خيبة أمل . »
قالت ذلك وكأنه رأي لا يحتمل الجدل . ولقد تنهى الى الكولونيل
كما تنهت اليه رسالة من احدى الكتائب الثلاث ، عندما نطق قائد
الكتيبة بالحقيقة المطلقة ونقل اليه اسوأ الانباء .
- « ارائقة انت مما تقولين ؟ »
- « نعم . »
فقال : « يا بنيّتي المسكينة ! »
ولم يكن ثمة ، الآن ، ايما شيء قائم في تلك الكلمة ولقد كانت
بنته حقاً ، ورثى لها وأحبها .
وقال : « لا بأس . سرّحي شعرك ، وجددي حمرة شفّتك وما الى
ذلك ، ولسوف ننعّم بعشاء شهيّ . »
- « قل كرة اخرى ، أولاً ، انك تحبني واضغط بأزرارك على صدري
ضغطاً محكماً . »
ثم انه همس في اذنها على ارقّ نحو عرفه ، همس مثل همسه
يوم كانوا على مبعدة خمسة عشر قدماً وكان هو ملازماً غضّ الشباب

يقوم بواجب الحراسة الليلية : انا احبك ، يا حي الافضل والاخير
والوحيد الصادق . »

فقالت : « حسن . » وقبلته في حرارة حتى لقد استطاع ان يستشعر
ملح الدم العذب داخل شفته . وقال في ذات نفسه : وانا احب هذا
أيضاً .

— « والآن سوف اسرح شعري واجدد حمرة شفتي وفي ميسورك ان
تراقبني . »

— « هل تريد ان أقفل لك النوافذ ؟ »

— « لا . سوف تفعل ذلك كله في غمرة البرد . »

— « من تحبين ؟ »

فقالت : « أنت . ولسنا ننعم بحظ عظيم ، اليس كذلك ؟ »

فأجابها الكولونيل : « لست ادري . ابدأي في تسريح شعرك . »

ومضى الكولونيل الى الحمام ليغتسل استعداداً لتناول طعام العشاء .
وكان الحمام هو الجزء الوحيد غير المرضي في تلك الحجرة . ذلك بأن
الـ « غريتي » شيد اول ما شيد ليكون قصراً ، ومن هنا لم يكن في
حجراته ، عند بنائه حمامات ، حتى اذا اضيفت اليه في ما بعد اقيمت
في الرواق ، فكان على الراغبين في استعمالها أن يحيطوا ادارة الفندق
علماً بذلك على نحو مسبق فتعمد الى تسخين الماء وتقديم المناشف .

وكان هذا الحمام قد اقتطع ، اعتباطياً ، من احدى زوايا الحجرة .
ولقد كان حماماً دفاعياً اكثر منه هجومياً ، كذلك استشعر الكولونيل .
وفيا كان يغتسل ، مضطراً الى النظر في المرآة ليمحو ايما اثر من آثار
احمر الشفاه ، رأى الكولونيل الى وجهه .

وقال في ذات نفسه ، إنه يبدو وكأنه نجاراً غير مبالٍ قدّه من
خشب .

ونظر الى مختلف الندوب والأخاديد التي كانت قد ظهرت قبل ان
تعرّف الجراحة التجميلية ، والى الخطوط الرفيعة ، التي خلفتها الجراحات
التجميلية البارعة بعد اصابة الرأس بجراح ، والتي ما كان يلحظها غير
المطلعين على سرّها .

حسناً ، هذا كل ما استطيع ان اقدمه كشدق او واجهة ، كذلك
قال في ذات نفسه . وانها لتقدمة هزيلة الى حدٍ لعين . وخير ما فيها
انها مسفوعةٌ وهذا ما يجردّها من بعض دماستها . ولكن ، يا للمسيح ،
ايّ رجل بشع أنا !

ولم يلاحظ فولاذ عينيه العتيق البالي ، وغضون الضحك الصغيرة
المتطاولة عند زوايا عينيه ، لا ولم يلاحظ ان انفه المكسور كان أشبه
بأنف مصارع محترف في التمايل الأشد امعاناً في القِدَم . بل لم يلاحظ
فه الرقيق في جوهره والذي كان في امكانه ان يصبح قاسياً لا يعرف
الرحمة حقاً .

اذهي الى الجحيم ، كذلك قال للمرأة . وأنت أيها البائس المقهور ،
هل يتعين عليّ وعليك أن نعاود الجلوس في حضرة السيدات ؟
وغادر الحمام الى الحجرة ، وكان تاضر الشباب كعهده يوم شنّ هجومه
العسكري الاول . لقد خُلف في ذلك الحمام كل الاشياء التافهة الحقيمة
كما هي الحال دائماً ، هكذا قال في ذات نفسه . فذلك هو المكان
الذي جعلت له .

وقال بالفرنسية : اين ثلوج العام الماضي ؟ اين ثلوج الايام الغابرة ؟ كل
هذه الأشياء وأمثالها في المبالغة
Ou sont les neiges d'antan ? Ou sont les
neiges d'autrefois ? Dans le pissoir toute la chose comme ça .

وكانت الفتاة ، التي كان اسمها الاول ريناتا ، قد فتحت بابي الخزانة
الطويلة . وكان البابان مكسوّين بكاملها بالمرايا ، من داخل ، وكانت
تسرّح شعرها .

انها لم تكن تسرّحه زهواً منها وُعجباً ، لا ولا لكي تُتحدّث في نفس الكولونيل ما كانت تعلم ان في امكان ذلك ان يُحدثه وما كانت خليقاً به ان يُحدثه . كانت تسرّحه في عسر ومن غير توقير . واذ كان جدّ كثيف ، نابضاً بالحياة كشعر الفلاحات أو كشعر الفاتنات من نساء طبقة النبلاء العليا ، فقد قاوم المشط وتمرد عليه .

فقالت : « لقد جعلته الريح شديد التشابك والتعقيد . ألا تزال تحبني ؟ »

فقال الكولونيل : « بلى . هل تسمحين لي بأن اساعدك ؟ »

— « لا . لقد دأبت ، طوال حياتي ، على تسريحه بنفسي . »

— « في استطاعتك ان تقفي بجانبه . »

— « لا . ان جميع خطوط جسمي الحديثة هي لأولادنا الخمسة .

ولرأسك انت كي يستنم اليها . »

فقال الكولونيل : « كنت افكر في الوجه وحسب . ولكنني اشكرك

لتنبيهك اياي . لقد تردّى انتباهي في الخطأ كرة اخري . »

— « أنا وقحة اكثر مما ينبغي . »

فقال الكولونيل : « انهم في اميركة يصنعون هذه الأشياء من أسلاك

ومطاط اسفنجي » ، كذلك الذي نستعمله في مقاعد الدبابات . والمرء لا

يدري هناك ، ابدأ ، ما اذا كان الأمر ينطوي على أي قدر من الحقيقة

الا اذا كان ولداً خبيثاً ، مثلي أنا . »

— « أما هنا فالوضع غير ذلك . » قالت هذا وأدارت شعرها

بالمشط . وكان الآن مفروقاً . الى أمام حتى أمسى تحت خط وجنتها ،

ثم أمالته الى الوراء فتدلى على منكبيها .

— « هل تجده أنيقاً ؟ »

— « انه ليس مغالياً في الاناقة ولكنه جذاب الى حد لعين . »

« في استطاعتي أن أرفعه الى اعلى وأن أفعل اضراب ذلك كله
اذا كنت ممن يُعجبون بالاناقة ويقدرونها . ولكنني لا احسن اصطناع
ديابيس الشعر ، وان ذلك ليبدو لي حماقة بالغة . » كان صوتها رخيماً
جداً ، ولقد ذكره دائماً ببابلو كاسالز وهو يعزف على الفيولانسيلو بحيث
جعله يستشعر وكأن به جرحاً لا يطيق له احتمالاً . ولكنك تستطيع
ان تحتمل كل شيء ، كذلك قال في ذات نفسه .
وقال الكولونيل : « انا أحبك كما انتِ حبا عظيماً . وأنتِ أجمل
امرأة قدّر لي ان اعرفها ، أو أراها ، حتى في لوحات الرسامين
الكبار . »

« اني لأعجب لماذا لم تأتِ اللوحة . »
« إن امتلاك تلك اللوحة شيء رائع ، كذلك قال الكولونيل ، وقد
عاد الآن جنراً لا كرة اخرى من غير ان يفكر في ذلك . ولكنه اشبه
بسلك حسان ميت . »
فقالت الفتاة : « لا تكن فظاً ، أنا لا أستشعر البتة وكأنتي فظة
هذه الليلة . »

« لقد انزلتُ الى عامية صناعتي القدرة *sale métier* »
فقالت : « لا ، أرجوك ان تطوقني بذراعيك ، في رفق وإحكام .
أرجوك ، إنها ليست صناعة قدرة . أنها اقدم الصناعات وخيرها ، برغم
ان الكثرة الكبيرة من الذين يمارسونها تافهون . »
وطوّقها بأقصى ما استطاع من إحكام من غير أن يؤذيها ، فقالت :
« انا لا احب لك أن تكون محامية أو كاهناً . لا ، ولا ان تكون
تاجراً يبيع الاشياء ، أو رجلاً ناجحاً ذا ثروة طائلة . انا احب لك
أن تكون كما أنت في صناعتك هذه ، وإنني لأحبك . أرجوك ان
تهمس في اذني اذا شئت . »
وهمس الكولونيل في اذنها ، فيما هو يضمها اليه في قوة ، وبقلبه

المنسحق انسحاقاً كاملاً في همسه الذي كاد ان لا يُسمع إلا كما تُسمع
صفرة كلب صامتة على مقربة دانية من الاذن : « انا احبك ، ايتها
العفريتة وانت بنيقي أيضاً . ولست ابا لي بخسائركم لأن القمر امننا وأبونا .
والآن فلنهيط لتناول العشاء . »

وهمس بهذه الجملة الأخيرة في صوت كان من الخفوت بحيث لا يستطيع
سماعه غير المحب . .
وقالت : « سمعاً وطاعة . اجل ، ولكن قبلني كرة اخرى أولاً . »

كانا الآن جالسين الى مائدتها في زاوية المشرب القصوى ، حيث كان كل من جناحي الكولونيل مصوناً مغطىً ، وحيث أسند ظهره في منعة الى زاوية الحجرة . ولم يغفل المايسترو الأعظم عن ذلك ، فقد كان رقيباً ممتازاً في سرية مشاة صالحة ، في فرقة عسكرية من الطراز الأول ، فخلق به ان لا يجلس «زعيمه» في وسط حجرة إلا بقدر ما كان خليقاً به أن يتخذ موقفاً دفاعياً أحق .

وقال المايسترو الأعظم : «هي ذي جرادة البحر .»
كانت جرادة البحر مهيبة . وكان حجمها ضعف حجم جرادات البحر العادية ، وكان تجهها قد زال بفضل الغلي في الماء الحار ، فهي تبدو الآن وكأنها نصبٌ تذكاري لنفسها الميتة . وكان لا ينقصها شيء حتى عيناهما الجاحظتان ، وحتى ملامسها^١ الدقيقة البالغة الطول التي جعلت لكي تمكثها من ادراك ما قد تعجز العينان المحقاوان عن إعلامها به .

ان هذه الجرادة البحرية تبدو شبيهة بعض الشيء بجورجي باتون^٢ ،

١ - الملامس : قرون الحشرة التي بها تتلمس طريقها .

٢ - patton جنرال اميركي ١٨٨٥ - ١٩٤٥ لعب دوراً هاماً في الحرب العالمية الثانية . (المعرب) .

كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . بيد أنها لم تبك قط ، في اغلب الظن ، عندما أُخرجت من موضعها .

فسألت الفتاة بالاطيالية : «أتظن انها سوف تكون قاسية ؟»
- «لا ،» كذلك اكد لها المايسترو الاعظم وهو لا يزال منحنيًا بالجرادة البحرية . «انها ليست قاسية البتة . انها ضخمة وحسب . انتما تعرفان هذا النوع .»

فقال الكولونيل : «حسن جداً . ضعها على المائدة .»
- «وما الذي ستشربانه ؟»

- «ماذا تريدان ان تشربي ، يا بنيتي ؟»
- «ماذا تريد انت ؟»

فقال الكولونيل : «كابري بييانكو . ولتكن صرقة جد مثلوجة .»
فقال المايسترو الأعظم : «هي جاهزة لدي .»

فقالت الفتاة : «نحن نأخذ بأسباب المرح . لقد عدنا الى ذلك من غير ما أسى . أليست جرادة بحرية مهيبة ؟»
- «من غير ريب .» كذلك اجابها الكولونيل . ومن الخير لها أن تكون رقيقة الحاشية .

فقالت الفتاة له : «سوف تكون كذلك . المايسترو الاعظم لا يكذب . اليس من الرائع ان يكون ثمة اناس لا يكذبون ؟»

فقال الكولونيل : «ذلك شيء رائع جداً ، ونادراً جداً . لقد كنت افكر اللحظة برجل يدعى جورجى باتون ... رجل ربما لم يعرف الصدق طوال حياته .»

- «هل تعتمد انت الى الكذب في بعض الاحيان ؟»
- «لقد كذبت اربع مرات . ولكنني كنت في كل مرة 'مرهقاً'»

جداً . « قال ذلك ثم اضاف : « هذا ليس ببرر على اية حال . »
 - « أما انا فقد كذبت كثيراً حين كنت فتاة صغيرة . ولكن
 ذلك كان في الغالب من اجل اختلاق القصص . أو هذا ما أرجوه .
 ولكنني لم اكذب في حياتي قط رغبة في نفع ذاتي . »
 فقال الكولونيل : « لقد كذبتُ أنا أربع مرات . »
 - « هل كنت تصبح جنرالاً لو لم تكذب ؟ »
 - « لو كذبتُ كما تعود الآخرون ان يكذبوا لأصبحت جنرالاً
 بثلاث نجوم . »
 - « وهل كان خليفاً بك ان تستشعر قدراً من السعادة اعظم لو
 اصبحت جنرالاً بثلاث نجوم ؟ »
 فقال الكولونيل : « لا ، من غير ريب . »
 - « ضع يدك اليمنى ، يدك الحقيقية ، في جيبك مرةً وقل لي
 ما شعورك . »
 ونزل الكولونيل عند رغبته .
 وقال : « شيء رائع . ولكن عليّ ان اعيدها اليك كما تعلمين . »
 - « لا . ارجوك ، لا . »
 - « لن نخوض في هذا البحث الآن . »
 وفي تلك اللحظة كانت الجرادة البحرية قد قدّمت اليها .
 كانت رقيقة الحاشية ، وكانت تتمتع بتلك اللطافة الزليقة الفريدة
 الخاصة بتلك العضلة الرافسة التي هي ذيلها . وكانت براثنها ممتازة : إنها
 لم تكن مزيلة اكثر مما ينبغي ، ولم تكن بدينة اكثر مما ينبغي .
 وقال الكولونيل للفتاة : « الجرادة البحرية تبلغ كمالها مع القمر .
 فحين يكون القمر قائماً تكون الجرادات البحرية غير جديرة بأن
 تؤكل . »
 - « لم اكن اعرف ذلك . »

ـ « أحسب أن مرّد هذا الى أنه ، حين يكون القمر بدرأ ،
تغتذي الجرادات البحرية طوال الليل . أو ربما كان مرّد هذا الى ان البدر
يسوق اليها ما تغتذي به . »

ـ « انها تقبل من الشاطئء الدالمامي ، اليس كذلك ؟ »
فقال الكولونيل : « بلى . ذلك هو شاطئكم الغني بالسماك . ولعله
يثعين عليّ أن اقول شاطئنا نحن الغني بالسماك . »

فقالت الفتاة : « قلها . انت لا تدري مبلغ اهمية الاشياء التي تقال . »
ـ « إن اهميتها تصبح اعظم الى حد لعين حين تخطتها على الورق . »
فقالت الفتاة : « لا ، لست اقرّك على هذا . الورق لا يعني شيئاً
إلا اذا قلت الكلمات المسطورة عليه في قلبك . »

ـ « وماذا ان لم يكن لك قلب او كان قلبك نافهاً لا قيمة له ؟ »
ـ « إن لك قلباً ، وليس هو بتافه لا قيمة له . »

لشدّة ما اتمنى لو أستبدل به قلباً جديداً ، كذلك قال الكولونيل
في ذات نفسه . انا لا افهم لماذا يتعين على هذه العضلة بالذات ، من دون
سائر العضلات ، أن تحذلني . ولكنه لم ينطق بشيء من هذا ووضع
يده في جيبه .

وقال : « ان ملمسها رائع . وانك لتبدن رائعة . »
فقالت : « شكراً . سوف اذكرك هذا طوال الاسبوع . »

ـ « في استطاعتك دائماً ان تكتفي بالنظر الى المرأة ليس غير . »
فقالت : « المرايا تضجرتني . إنّ وضع اصبع الحمرّة على الشفتين وتحريك
احدهما فوق الاخرى لجعلها تنتشر على الوجه الافضل وتسريح الشعر
الكثيف اكثر مما ينبغي ... إن هذا كله ليس حياة جديرة بامرأة ،
بل ليس حياة جديرة بفتاة متوحدة ، تحب شخصاً ما . فحين تريد
ان تكون القمرَ ومختلف النجوم وان تحيا مع بعلك وأن تنجب خمسة

اولاد لا يكون النظر في المرأة واصطناع الخدع النسوية على اختلافها
مثيراً جداً . »

— « إذن فلنتزوج في الحال . »

فقلت : « لا . لقد تعين عليّ ان اتخذ قراراً في هذه المسألة ، كشأني
في المسائل الاخرى . اني اسلخ ايام الاسبوع كلها في اتخاذ القرارات . »
فقال لها الكولونيل : « وانا اتخذ القرارات ايضاً . ولكنني لا اقوى
على التزام هذه القرارات دائماً . »

— « دعنا نكفّ عن الحديث في هذا الموضوع . ان ذلك قد يُحدث
جرحاً عذيباً ، ولكنني أعتقد ان من الخير لنا ان نكتشف اي انواع
اللحم موجودة عند المايسترو الاعظم . احسن خمر ، ارجوك . إنك
لم تمسّها بعد . »

— « سوف امسّها الآن . » كذلك قال الكولونيل . ومسّ الخمر ،
فإذا هي هزيلة باردة مثل خمر اليونان ، ولكنها غير راتنجيّة ، ولكن
جسدها كان في مثل امتلاء جسد ريناتا وجماله .

— « انها شديدة الشبه بك . »

— « اجل . ادري . وهذا هو السبب الذي من اجله اردتك ان
تذوقها . »

فقال الكولونيل : « اني اذوقها . ولسوف اتجرع الآن كأساً مترعة . »

— « انت رجل طيب . »

— « شكراً . » كذلك قال الكولونيل . « سوف أتذكر هذا طوال
الاسبوع ، واحاول ان اكون رجلاً طيباً . » ثم اضاف : « ايها المايسترو
الاعظم . »

وحين أقبل المايسترو الاعظم ، سعيداً ، نزاعاً الى التآمر ، متجاهلاً

قرحته المَعِدِيَّة سألَه الكولونيل : « اي ضرب من اللحم عندك يستحق ان نلتهمه ؟ »

فقال المايسترو الاعظم : « لست اعلم ذلك علم اليقين ، ولكني سوف أستطلع . إن مواطنك قاعد هناك على مبعدة تمكّته من السماع . لقد أبى عليّ أن أجلسه في الزاوية القصوى . »

فقال الكولونيل : « حسن . سوف نقدّم له موضوعات يكتب فيها . »
- « إنه يكتب كل ليلة ، كما تعلم . لقد سمعت ذلك من احد زملائي في الفندق الذي ينزل فيه . »

فقال الكولونيل : « حسن . هذا يدل على انه مُجيدٌ برغم انه مُعمر اكثر من مواهبه . »

فقال المايسترو الاعظم : « اننا كلنا مجدّون . »
- « بطرائق مختلفة . »

- « سوف أمضي وأستطلع أيّ نوع من اللحم موجود فعلاً . »

- « إستطلع في عناية . »

- « أنا مُجدّ . »

- « وأنت ايضاً فطنٌ الى حدّ بعيد . »

وانصرف المايسترو الأعظم ، وقالت الفتاة : « انه رجل ظريف ، ويسعدني ان يكون مولعاً بك هذا الولوع كله . »

فقال الكولونيل : « نحن صديقان حيان . وأرجو أن يحسد لك شريحة لحم بقر جيدة . »

- « هناك شريحة لحم بقر جيدة جداً . » كذلك اعلن المايسترو الأعظم عائداً .

- « خذها يا بُنيّتي . أنا افوزُ بأمثالها دائماً على مائدتنا المشتركة مع زملائي من الضباط . هل تحبينها مطفقة النضج ؟ »

- « مطفئة النضج جداً ، ارجوك . »
فقال الكولونيل : « كلها دم Al sangue ، كما قال جون حين تحدث
الى النادل بالفرنسية . نيئة ، زرقاء ، Crudo , bleu ، أو اجعلها مطفئة
النضج ليس غير . »

فقال المايسترو الاعظم : « إنها مطفئة النضج . وانت ، يا زعمي ؟ »
- « محار السكالوبين مع المارسالا ، وشيء من القُنْبِيْط المدمس
بالزبدة . مع خرشوفة بالخل اذا وجدت واحدة . ماذا تريدن ،
يا بُنَيْتِي ؟ »

- « بعض البطاطا المهروسة وسلطة بسيطة . »
- « أنت فتاة في طور النمو . »
- « اجل . ولكن عليّ ان لا أنمو اكثر مما ينبغي ، وان لا أنمو
في الاتجاهات المغلوطة . »

فقال الكولونيل : « احسب ان هذا يضبط النمو ويوجهه . ما
رأيتك في ألفية من الفالبوليشيلا ؟ »
- « ليس عندنا ألفيات . هذا فندق راقٍ كما تعلم . انها تأتينا
معبأة بزجاجات . »

فقال الكولونيل : « لقد نسيت . هل تذكر عندما كان ثمن اللتر
الواحد منها ثلاثين سنتيماً ؟ »
- « ويوم كنا نلقي الألفيات الفارغة على حرس المحطة من قطر
الجند الحديدية ؟ »

- « وكنا نسفح كل ما تبقى فيها على القنابل اليدوية ثم نقذف بها
الى سفح الهضبة ونحن عائدون من مرتفعات الغرابا ؟ »
- « وكانوا حين يرون الانفجارات يحسبون ان ثمة هجوماً واقتحاماً
للخطوط ، وكنت لا تخلق لحيتك أبداً ، وكنا نرتدي الـ Fiamme nere

فوق السترات الرمادية المفتوحة والكنزات الرمادية ؟»

— « وشربتُ انا شراب الغرابا ولم أجد لها مذاقا ؟ »

فقال الكولونيل : « لا ريب في اننا كنا بالغى الطيش آنذاك . »

— « اجل ، كنا بالغى الطيش آنذاك ، » كذلك قال المايسترو الأعظم . « لقد كنا فتیانَ سوء آنذاك ، وكنت انت أسوء فتیانَ السوء جميعاً . »

فقال الكولونيل : « اجل . احسب أننا كنا فتیانَ سوء الى حد ما . انت تغفرين لي هذا ، اليس كذلك . »

— « أحسب انه ليس لديك صورة ترقى الى ذلك العهد ... هل لديك ؟ »

— « لا ، لم يكن ثمة رسوم إلا ويظهر فيها دانوتزيو . وفوق هذا فإن معظم الرفاق انتهوا الى نهاية فاجعة . »

فقال المايسترو الاعظم : « ما عدانا . والآن يتعين عليّ ان أمضي وأرى ابن وصلوا في إعداد الشريحة . »

واستسلم الكولونيل — الذي عاد الآن ملازماً ثانياً ، ممتطياً متن شاحنة ، وقد كسا الغبار وجهه فلم يتبدَّ غيرُ عينيه المعدنيتين ، وكانتا حمراوَيّ الحواشي محتقنتين — اقول استسلم الكولونيل للتفكير .

المواقع الرئيسية الثلاثة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . جبل «الغرابا» وفيه «آسالون» و«بيرتيكا» ، والهضبة التي لا اذكر اسمها والتي تقوم الى ناحية اليمين . ذلك كان المكان الذي ترعرعت فيه ، كذلك قال في ذات نفسه ، وكل ليلة كنت افيق والعرق يتصبب مني ، حالماً بأنني لن استطيع اخراجهم من الشاحنات . وليس من ريب في أنه ما كان ينبغي لهم ان يُخْرَجوا منها ابداً . ولكن يا لها من صناعة ! وقال للفتاة : « في جيشنا كما تعلمين ، يستطيع المرء ان يقول إن

الجنرالات ، او الكثرة الكبرى منهم ، لم يقاتلوا في ايما يوم قط . هذا غريب جداً ، والهيئة العليا تبغض اولئك الذين قاتلوا .
- « وهل يقاتل الجنرالات فعلاً ؟ »

- « اوه ، نعم . حين يكونون برتبة رئيس (كابتن) وملازم اول او ثان . أما في بعد فالقتال - إلا في حالات الانكفاء والانسحاب - يكون عملاً اقرب الى الحق . »

- « وهل قاتلت كثيراً ؟ أنا أعلم انك فعلت ، ولكن قل لي ذلك بنفسك . »

- « لقد قاتلت الى حدٍ جدير بأن يحمل المفكرين الكبار على تصنيفي في عداد الحقى . »

- « حدثني عن ذلك . »

- « حين كنت غلاماً قاتلت ضد أروين رومل^١ نصف المسافة من كورتينا الى الغرابا حيث صمدنا . كان رئيساً (كابتن) آنذاك ؛ وكنت أنا مرشح رئيس . ملازماً ثانياً في الواقع . »
- « هل عرفته ؟ »

- « لا . لم اعرفه إلا بعد انقضاء الحرب حين أمسى في ميسورنا ان نتحدث معاً . كان قريباً الى القلب جداً ، ولقد أحببته . كنا نتزلج معاً . »

- « هل احببت كثيراً من الألمان ؟ »

- « كثيراً جداً . وكنت كلفاً اكثر ما يكون بـ « ارنست يودت »

- « ولكنهم كانوا على ضلال . »

١ - Erwin Rommel قائد القوات الالمانية في شمال افريقية خلال الحرب العالمية الثانية . (العرب)

- « طبعاً . ولكن من الذي لم يكن على ضلال ؟ »
- « انا لا استطيع ان احبهم ، او ان اتخذ منهم موقفاً متسامحاً كما تفعل أنت بعد ان قتلوا أبي واحرقوا دارتنا في الـ « برينتا » ، وبعد أن رأيت ضابطاً المانياً يطلق النار من « بارودة خردق » على الحمام في ساحة كاتدرائية القديس مرقص . »
- فقال الكولونيل : « لقد فهمت . ولكن ارجوك ، يا بنيّتي ، أن تحاولي فهم موقفي أيضاً . حين يقتل المرء هذا العدد الكثير من الناس يصبح في ميسوره ان يكون سمحاً . »
- « كم رجلاً قتلت ؟ »
- « مئة واثنين وعشرين مؤكّدين . ولست أذكر الاحتمالات . »
- « ولم يبكتك ضميرك ؟ »
- « البتة . »
- « ولم يتمثل لك ذلك على صورة كوابيس ؟ »
- « لا . لم أرَ اية كوابيس . ولكنني ارى ، عادة ، احلاماً غريبة . احلاماً متصلة بالمعركة ، دائماً ، بعد فترة من انقضاء المعركة . أما بعد ذلك فالكثرة الكبرى مما أراه احلام غريبة عن المواطن والاماكن . نحن نحيا على احداث ارض المعركة ، كما تعلمين . وارض المعركة هي ما يبقى في الجزء الحالم من عقولنا . »
- « ألا تراني ، البتة ، في ما يراه النائم ؟ »
- « انا احاول ذلك . ولكنني لا أستطيع . »
- « لعل اللوحة ان تساعدك . »
- فقال الكولونيل : « ارجو ذلك . لا تنسي ، من فضلك ، أن تذكريني بأعادة أحجار الزمرد اليك . »
- « ارجوك ان لا تكون قاسياً عليّ . »

- « ان لديّ ضروراتي الصغيرة الخاصة بالشرف بنفس النسبة التي يشدّنا بها حبنا العظيم الغامر . إتنا لا نستطيع أن نملك أحدهما من غير ان نملك الآخر . »

- « ولكن في امكانك ان تمنحني بعض الامتيازات . »
فقال الكولونيل : « لقد منحتك ذلك . إن احجار الزمرد لفي جيبي . »

عندئذ اقبل المايسترو الأعظم بشريحة لحم البقر وبمحار السكالوبين والخضر . لقد حملها غلام صقيل الشعر لا يؤمن بشيء ، ولكنه كان يسعى جاهداً لأن يصبح نادلاً ثانياً ناجحاً . كان عضواً في « المنظمة » . وسكب المايسترو الاعظم الطعام في رشاقة ، وفي احترام للطعام وللذين كانوا على وشك أن يتناولوه .

وقال : « إشرعوا الآن في الأكل . »
- « اتزع سعادة الفالبوليسيلا » ، كذلك قال للغلام ذي العينين غير المصدّقتين الشبيهتين بعيني كلب صغير طويل الشعر والاذنين .

- « ما عندك من معلومات عن تلك الشخصية ؟ » كذلك سأله الكولونيل ، مشيراً الى مواطنه المجدور الجالس الى المائدة يمضغ طعامه ، فيما كانت رفيقته المسنة تأكل في كياسة تذكر بكياسة أبناء الضواحي .
- « عليك أنت أن تخبرني . وليس العكس . »

فقال الكولونيل : « انا لم أره قط قبل اليوم . إنه أعسر من ان يُهضم مع الطعام . »

- « انه يلاطفني . وهو يتكلم ايطالية رديئة ، على نحو مشاير . ويذهب الى كل مكان في «بيديكير»^١ وليس له اي ذوق لا في الطعام

١ - Baedeker سلسلة كتب وضعها لارشاد السياح ناشر الماني يحمل هذا الاسم (المعرب)

ولا في الشراب . المرأة ظريفة . وأحسب أنها عمته . ولكنني مفتقر
الى المعلومات الحقيقية .

— « إنه يبدو وكأنه شيء نستطيع الاستغناء عنه »

— « احسب ان في امكاننا ذلك ، عند الاقتضاء . »

— « هل يتحدث عنا ؟ »

— « لقد سألتني من أنتم ؟ ولم يكن اسم الكونتيسة غريباً بالنسبة
اليه . لقد زار - على صفحات الكتاب - عدداً من القصور التي كانت
الاسرة تملكها في الأيام الحالية . ولقد أعجب باسمك ، يا سيدي ،
وكنت قد ذكرته له لكي أثير مشاعره . »

— « هل تحسب انه سوف يُنزلنا في مؤلف من مؤلفاته ؟ . »

— « أنا واثق من ذلك . إنه يُنزل كل شيء في كتاب . »

فقال الكولونيل : « ينبغي لنا أن نُنزل في كتاب . هل تمنعين ،

يا بنيّتي ؟ . »

— « طبعاً لا ، » كذلك قالت الفتاة . « ولكنني أوشر أن يكون دانتى

هو المؤلف . »

فقال الكولونيل : « دانتى ليس بيننا . »

فسأله الفتاة : « هل تستطيع أن تخبرني ايّ شيء عن الحرب ؟

أيّ شيء يجازي لي أن أعرفه ؟ . »

— « من غير ريب . استطيع أن أخبرك بكل ما يروق لك منها . »

— « كيف كان الجنرال آيزنهاور ؟ »

— « كان يمثل غصبة ايبورث^١ خير تمثيل . ولعل هذا حكم ظالم

١ — Epworth League منظمة دينية للشبان الميثوديين انشئت عام ١٨٨٩ في كليفند

بولاية اوهيو في الولايات المتحدة . وقد استمدت اسمها من مسقط رأس جون ويزلي Wesley
ايبورث ، لينكولنشاير في انكلترا (المغرب) .

أيضاً. وكان خاضعاً فوق هذا لمؤثرات أخرى مختلفة . سياسي ممتاز .
جنرال سياسي . عظيم البراعة في هذا الحقل . «

— « والزعماء الآخرون ؟ »

— « فلنتجنب الكلام عليهم . لقد تكلموا عن أنفسهم ، الى حدّ كاف ،
في مذكراتهم . ومعظمهم كان موضع الثقة القصوى بسبب من شيء لم
تسمعي به قط يدعى «نادي الروتاري» . ففي هذا النادي لديهم ازرار
مطلية بالميناء تحمل اسماءهم الأولى ، وإنك لتغرّم إذا ما دعوتهم باسمائهم
العادية . إنهم لم يقاتلوا البتة . البتة . «

— « ألم يكن ثمة قادة بارعون ؟ »

— « بلى كان ثمة كثير . برادلي ، المدرّس ، وكثير آخرون . أنا
أعطيك برادلي مثلاً على القائد البارع . البارع جداً . «

— « من كان هو ؟ »

— « كان قائد الجيش السابع عندما كنت انا هناك . إنه راجح الفكر
جداً . خفيف الحركة . دقيق ، وهو اليوم رئيس الأركان العامة . «
— « ولكن ما رأيك في القادة الكبار الذين سمعنا عنهم كثيراً ،
مثل الجنرال مونتغميري والجنرال باتون ؟ »

— « إنسيهما ، يا بني . فقد كان «مونتي» قائداً لا يستطيع ان
يتحرك الا اذا كانت نسبة رجاله الى رجال العدو كنسبة خمسة عشر
الى واحد . ولم يكن ليتحرك بعد ذلك إلا في بطاء وتوان . «
— « لقد حسبت دائماً أنه كان جنرالاً عظيماً . «

فقال الكولونيل : « لا ، لم يكن . وأسوأ ما في الأمر أنه كان يعرف
ذلك . لقد رأيته يفد الى احد الفنادق فيخلع بذلته العسكرية الخاصة
ويرتدي كسوة تجذب اليها أبصار الغوغاء لكي يخرج بعد ذلك ليلاً
فيستثير همة جمهور العامة . «

— « هل تبغضه ؟ »

— « لا . كل ما افكر فيه هو أنه جنرال بريطاني . أياً ما كان معنى هذا . ولا تستعجلي انتِ ذلك الاصطلاح . »
— « ولكنه قهر الجنرال رومل . »

— « أجل . ولكن الا تعتقدين ان شخصاً آخر قد رقّق من حاشيته ؟
ومن ذا الذي لا يستطيع ان ينتصر حين تكون نسبة رجاله الى رجال العدو كنسبة خمسة عشر إلى واحد ؟ عندما قاتلنا هنا ، أنا والمايسترو الأعظم ، يوم كنا غلامين ، احرزنا النصر طوال عام كامل ونسبة رجالنا الى رجال العدو كنسبة ثلاثة او اربعة الى واحد ، ولقد انتصرنا في كل معركة . في ثلاث معارك رئيسية ضارية . وهذا هو السبب الذي من أجله نستطيع أن نرسل النكات ولا نعرف التجهّم . لقد قُتِل في ذلك العام اكثر من مئة واربعين الف رجل . وهذا هو السبب الذي من أجله نستطيع أن نتحدث في مرح ومن غير مباهاة . »
فقالت الفتاة : « إنه لعلمٌ ملعون الى ابعد الحدود ؛ اذا جاز لنا ان ندعوه علماً . انا أكره النُصب الحربية التذكارية ، برغم أنني أحترمها . »

— « وأنا لا أحبها أيضاً . ولا احب العملية التي افضت الى إقامتها . هل تُقدّر لك ان تشهدي نهاية تلك العملية ؟ »
— « لا . ولكنني أودّ لو أعرف . »

فقال الكولونيل : « من الخير لك ان لا تعرفي . كلي شريحتك قبل ان تبرد ، واغفري لي تحدّثي عن صناعتي . »
— « أنا أبغضها ولكنني أحبها . »

فقال الكولونيل : « أحسب اني اشاركك العواطف نفسها . ولكنّ قيمَ يفكر مواطني المجدور عند مبعدة ثلاث موائد ؟ »

- « في كتابه القادم ، أو في ما تقوله صفحات دليل السيّاح . »
- « ما رأيك في الذهاب وامطاء متن غندول في الريح بعد أن
تناولنا طعام العشاء ؟ »

- « خليك بذلك ان يكون رائعا . »

- « هل نخبر الرجل المجدوز اننا ذاهبان ؟ أنا أحسب أن النُقَر
نفسها تكسو قلبه ، وتكسو روحه ، وربما كست فضوله ايضاً . »
فقلت الفتاة : « لن نخبره بشيء . في استطاعة المايسترو الأعظم أن
ينقل اليه أي نبأ نريد ابلاغه اياه . »

ثم إنها راحت تمضغ شريحتها في قوة وإحكام ، وقالت : « هل تعتقد
بصحة ما يقولون من ان الناس يصنعون وجوههم الخاصة بأنفسهم بعد
الحسين ؟ »

- « ارجو أن لا يكون ذلك صحيحاً . لأنني غير مستعد لأن
أقرّ وجهي وأعترف به . »

- « انت . » كذلك قالت . « أنت . »

فسألها الكولونيل : « هل الشريحة جيدة ؟ »

- « انها رائعة . وكيف يحار السكالوبين ؟ »

- « طريّ جداً . والصلصة غير حلوة البتة . هل اعجبتك
الحُضْر ؟ »

- « القُنْبِيطة تكاد تكون هشة . مثل الكرّفس . »

- « ينبغي ان ناعم ببعض من الكرّفس . ولكني لا أعتقد أن عندهم
شيئاً منه ، وإلا لجاؤنا المايسترو الأعظم به . »

- « ألسنا نستمتع بطعامنا ؟ تخيّل لو استطعنا دائماً ان نتناول
الطعام معاً . »

- « لقد اقترحت عليك ذلك من قبل . »

— « فلنجنب الكلام في هذا الموضوع . »
فقال الكولونيل : « حسن جداً . ولقد اتخذتُ أذاً قراراً أيضاً .
إني أعزم ان أمجر الجيش وأقيم في هذه المدينة ، ببساطة كلية ،
مستعيناً على ذلك براتب التقاعد . »

— « هذا رائع . كيف تبدو في الملابس المدنية ؟ »

— « لقد رأيتني من قبل . »

— « ادري ، يا عزيزي . لقد قلت ذلك على سبيل المزاح . إنك
تطلق في بعض الأحيان ضرباً من المزاح القاسي ، أيضاً ، كما تعلم . »
— « سوف أبعد في مظهر حسن . أعني اذا كان لديكم هناك خياط
يحسن تفصيل الملابس . »

— « ليس ههنا مثل هذا الخياط ، ولكن ثمة واحداً في رومة . هل
نستطيع أن نمتطي متن السيارة ونغضي معاً الى رومة لكي نفوز بالملابس ؟ »
— « نعم . ولسوف نقيم خارج المدينة في فيتربو ، ولن بقصد اليها
إلا التماساً للأثاث وابتغاء تناول الطعام حين تهبط العتمة . وبعد ذلك
نقلب عائدين بالسيارة في موهن من الليل . »

— « وهل سنرى ممثلي السينما وممثلاتها ، وتحدث عنهم في صراحة ،
و.... نشرب معهم كأساً ؟ »

— « سوف نراهم بالآلاف . »

— « هل سنراهم يتزوجون مثني وثلاثاً ، ونرى البابا يباركهم
بعد ذلك ؟ »

— « اذا ذهبنا لمثل هذا الغرض . »

فقالت الفتاة : « لن افعل . وهذا واحد من الأسباب التي تجعلني
غير قادرة على الزواج منك . »

فقال الكولونيل : « فهمت . اشكرك . »

- « ولكنني سوف احبك ، أياً ما كان معنى ذلك . وانت وأنا نعرف ما معناه جيداً ، ما بقي كل منا على قيد الحياة وبعد ذلك . »
فقال الكولونيل : « لست اظن ان في استطاعتك ان تحيي كثيراً بعد ان تصبحي ، أنتِ نفسك ، جثة هامة . »

وشرع يأكل الخرشوف ، متناولاً ورقة واحدة منه في كل لقمة ، غامساً إياها في صحن صلصة الخل .

فقالت الفتاة : « ولست واثقة من ان في استطاعتك انت ايضاً ان تفعل . ولكنني سوف أحاول . ألا يرفع من معنوياتك علمك بأنك محبوب ؟ »

فقال الكولونيل : « بلى . انا اشعر وكأنني منطلق في هضبة جرداء صخرية الى حد يجعلها تمتنع على الحفر والحرث ، وصخورها صلبة كلها ، ولكنها خلوة من النتوءات والأورام ، وفجأةً أستبدل بالعري دروعاً سابغة . أجل أستبدل بالعري دروعاً وقد وليّ الأعداء هاربين . »

- « يتعين عليك ان تقول ذلك لصديقنا الكاتب ذي الوجه الشبيه بأخايد القمر ، بحيث يكون في ميسوره ان يكتبه الليلة . »

- « يتعين عليّ ان اقله لدانتي لو كان دانتي بيننا . » كذلك قال الكولونيل وقد غدا هائجاً ، فجأةً ، كالبحر حين تهب عليه عاصفة من عواصف خط الاستواء . « ولسوف اخبره ما الذي يجدر بي ان أفعله لو حوّلت في مثل تلك الظروف الى عربة مدرّعة . »

وفي تلك اللحظة وقد البارون ألفاريتو على حجرة الطعام . كان يبحث عنها ؛ وإذ كان قناصاً فقد لمحها في الحال .

وتقدم نحو المائدة ، وطبع قبلة على يد ريناتا قائلاً « سيياوو ، ١

١ - Ciao وتعني بالايطالية «الى اللقاء» ، وقد استعملت هنا وكأنها تحية لقاء . (المعرب)

ريناتا . . كان أقرب الى الطول حسن البنية في ملابسه المدنية ، وكان أشد الرجال الذين عرفهم الكولونيل خجلاً واستحياء . إنه لم يكن حياً بسبب من جهالة ، أو بسبب من شعور بالضيق في حضرة الناس . لا ، لقد كان حياً بالفطرة ، شأن بعض الحيوانات ، من مثل الـ « بونغو » الذي لا تراه في الأدغال البتة ، والذي يتعين عليك أن تقتنصه بواسطة الكلاب .

ـ « يا زعمي ، » كذلك قال . وابتسم كما يستطيع الرجل الحي حقاً أن يبتسم .

انها لم تكن ابتسامة الواثق المطمئنة ، ولا تلك الابتسامة السريعة اللاذعة التي يُطلقها المعمرون والاشرار . لم تكن تمت باية صلة الى الابتسامة الرابطة الجأش التي تصطنعها الفاجرة أو رجل السياسة عن عمد . لقد كانت هي تلك الابتسامة الغريبة النادرة التي ترتفع من الحفرة العميقة القائمة ـ الأعماق من بئر ، العميقة كمثلي منجم عميق ـ الغائرة في جوفها .

ـ « لن أستطيع البقاء غير لحظة . ولقد أقبلت لأخبرك ان الجويبدو جد ملائم للقنص . فأمراب البط تُقبل من الشمال بكثرة بالغة . ان بينها كثيراً من البط الضخم الذي تحب . » وابتسم كرة ثانية .

ـ « اجلس ، يا ألفاريتو . ارجوك . »

فقال البارون ألفاريتو : « لا ؛ نستطيع أن نلتقي في المرأب ، الساعة الثانية والنصف اذا شئت . معك سيارة ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « هذا جميل جداً . إن انطلقنا في تلك الساعة يتيح لنا متسعاً من الوقت لرؤية البط في الليل . »

فقال الكولونيل : « بديع . »

ـ « الى اللقاء ، اذن ، يا ريناتا . الى اللقاء يا زعمي ، في الساعة الثانية والنصف . »

وقالت الفتاة : « لقد عرف أحدنا الآخر منذ الطفولة . ولكنه كان أكبر مني بثلاث سنوات تقريباً . لقد وُلِدَ طاعناً في السن . »
- « أجل . أدري . انه من اصدقائي المختصين . »
- « هل تعتقد ان مواطنك قد بحث عن اسمه في دليل السياح ؟ »
فأجابها الكولونيل : « لست ادري . » ثم سأل : « أيها المايسترو الأعظم ، هل بحث مواطني الطائر الصيت عن اسم البارون في دليل السياح ؟ »

- « الواقع ، يا زعمي ، أني لم أره يراجع دليله خلال تناوله العشاء . »

فقال الكولونيل : « أعطِ علامة كاملة . والآن اسمع . أنا أعتقد أن الفابوليسلا تكون أجود ، وهي جديدة . انها ليست خمرأ عظيمة Grand Vin وتعبثها في زجاجات ثم تعتيقها طوال سنوات لا يعود عليها إلا بالرواسب . هل توافقني على هذا ؟ »
- « اوافقك . »

- « اذن ما الذي يتعين علينا ان نفعله ؟ »

- « أنت تعلم ، يا زعمي ، ان الخمر في الفنادق الكبيرة يجب ان تكلف مالا . فلست تستطيع ان تحصل على « بينار » في ال « ريتز »^١ . ولكني أقترح أن نأتي بعدة ألفيات من الفابوليسلا الممتازة . وفي استطاعتك ان تقول إننا جئنا بها من أطيان الكونتيسة ريناتا ، وانها هدية . ولسوف اعبئها لك ، بعد ذلك ، في زجاجات . وبهذه الطريقة ستفوز بنحمر أفضل ، وتوفر مالا كثيراً . ولسوف أشرح المسألة لمدير

١ - ال « بينار » pinard ضرب من الخمر ، وال « ريتز » Ritz فندق مشهور .
(المعرب)

الفندق اذا شئت . إنه رجل طيب جداً .
فقال الكولونيل : « إشرحها له . إنه ليس رجلاً يشرب البطاقات
الملصقة على الزجاجات ايضاً . »

— « موافق . »

— « وفي غضون ذلك تستطيع أن تشرب من هذه . إنها جيدة جداً
كما تعلم . »

— « هذا صحيح . » كذلك قال الكولونيل : « ولكنها ليست
شامبيرتان^١ . »

— « ما الذي كان من دأبنا أن تشربه ؟ »

فأجابه الكولونيل : « أيّ شيء . ولكنني الآن ألتبس الكمال .
أو ، على الأصح ، ليس الكمال المطلق . ولكن الكمال مقابل
دراهمي . »

فقال المايسترو الأعظم : « وأنا ألتسه ايضاً ، ولكن على غير طائل
في ما أحسب . »

— « بأي شيء ترغبان أن تحتما عشاءاً ؟ »

فقال الكولونيل : « بشيء من الجبن . ماذا تريدن ، يا بُنَيَّ ؟ »
كانت الفتاة قد اعتصمت بالصمت ، منذ أن رأت ألفاريتو ،
وانكشبت بعض الشيء . كان شيء ما ، يدور في عقلها ، ولقد كان
عقلاً ممتازاً . ولكنها مؤقتاً على الأقل ، لم تكن معها .

وقالت : « جبن . ارجوك . »

— « أي نوع من الجبن ؟ »

١ - Chambertin خمر حمراء فاخرة . (العرب)

فقال الكولونيل : « أيتِ بالانواع كلها الى هنا ولسوف نلقي نظرةً عليها . »

وانصرف المايسترو الأعظم ، فقال الكولونيل : « ما بالك ، يا بُنيّتي ؟ »
- « لا شيء . لا شيء البتة . لا شيء دائماً . »

- « يحسن بك مع ذلك أن تطرحي هذا ، فليس لدينا متسع من الوقت لمثل هذه المتارف . »

- « هذا صحيح . أنا اوافقك . سوف نكرّس نفسينا للجبن . »

- « هل يتعين عليّ أن اتناوله مثل قولحة ذرّة ؟ »

- « لا ، » كذلك قالت ، غير فاهمة ذلك الاصطلاح العامي ،

ولكنها فهمت المراد تماماً ، باعتبار أنها هي التي كانت تقوم بهمة التفكير . « ضع يدك اليمنى في جيبك . »

فقال الكولونيل : « حسن . سوف افعل . »

ووضع يده اليمنى في جيبه واستشعر ما كان فيها ، أولاً برؤوس اصابعه ، ثم بباطن اصابعه ، ثم براحة يده - يده المشقوقة .

وقالت : « أنا آسفة . والآن ، فلنستأنف الجزء الصالح من المسألة ، كرة اخرى . سوف نكرس نفسينا للجبن في مرح وابتهاج . »

فقال الكولونيل : « ممتاز . 'تري أي' ضروب الجبن عنده ؟ »

فقالت الفتاة : « حدثني عن الحرب الاخيرة . وبعد ذلك نمتطي متن غندولنا في الريح الباردة . »

فقال الكولونيل : « إنها لم تكن مائعة جداً . ان هذه الأشياء هي ، بالنسبة اليها ، مائعة دائماً ، من غير ريب . ولكن كان ثمة ثلاثة مظاهر

فحسب ، أو ربما اربعة مظاهر فحسب ، أمتعّتني فعلاً . »

- « لماذا ؟ »

- « كنا نقاتل عدواً مهزوماً دُمّرت مواصلاته . لقد دمرنا عدة

فرق على الورق ، ولكنها كانت فرقاً شَبَحِيَّة . لا فرقاً حقيقية . كان طيراننا الحربي قد دمرها قبل أن تتحرك . ولم يكن الموقف صعباً حقاً إلا في نورمانديا ، بسبب من طبيعة الأرض ، وعندما أوقفنا الزحف لكي نمكّن مدرعات جورجى باتون من المرور وأبقينا طريقها مفتوحة من ناحيتها الاثنتين .

ـ « كيف توقفون الزحف لتمكين المدرعات من المرور ؟ قل لي ، من فضلك . »

ـ « عليكِ أولاً أن تقاتلي لاحتلال مدينة تسيطر على جميع الطرق الرئيسية . ولنسمّ المدينة سانت لو . ثم عليكِ أن تبسطي سلطانكِ على الطرق باحتلال مدن أخرى وقرى أخرى . ان للعدو خط مقاومة رئيسياً ، ولكنه لا يستطيع أن يحمل قواته على شن هجوم معاكس ، لأن «المقاتلات - القاذفات» تصطادها على الطرق . هل يُضجرك هذا ؟ إنه يُضجركني الى حد لعين . »

ـ « ولكنه لا يضجركني ، أنا . فأنا لم اسمع ذلك يقال بمثل هذا التبسيط الواضح من قبل . »

فقال الكولونيل : « شكراً . اواثقة أنتِ من رغبتك في مزيد من الكلام على هذا العلم الكئيب ؟ »
فقلت : « من فضلك . أنا احبك ، كما تعلم ، وإني لأودّ لو شاركتك معرفتك به . »

فقال لها الكولونيل : « ان احداً لا يشارك احداً هذه الصناعة . كل ما أفعله هو اني احدثكِ كيف تعمل . وفي استطاعتي أن اوشح الحديث ببعض الحكايات لكي أجعله ممتعاً أو مقبولاً في الظاهر . »
ـ « وُشّح حديثك بشيء من ذلك ، أرجوك . »

فقال الكولونيل : « ان الاستيلاء على باريس لم يكن شيئاً خطيراً . »

لقد كان مجرد خبرة عاطفية ، لا عملية عسكرية . اتنا قتلنا عدداً من الضاربين على الآلة الكاتبة وأفراد الدريئة التي كان الالمان قد خلفوها وراءهم ، كدأهم دائماً ، لتغطية انسحابهم . واحسب انهم تصوّروا أنهم لن يحتاجوا بعدُ الى هذا العدد الضخم من موظفي المكاتب ، فتركوهم خلفهم كجنود . »

— « ألم يكن الاستيلاء عليها عملاً عظيماً ؟ »

— « الواقع ان جماعة لوكليرك^١ - وهو غرّ آخر من الدرجة الثالثة او الرابعة ، كنت قد احتفلت بموته بزجاجة كبيرة من خمر «بيريه» - جوويه بردت ١٩٤٢ » - اطلقت سيلاً من العيارات النارية لكي تضي بعض الأهمية على ذلك الحادث ، ولأننا كنا قد قدّمنا اليها ما تستطيع اطلاق العيارات النارية به . ولكنه لم يكن عملاً هاماً . »

— « هل شاركت انت فيه ؟ »

فقال الكولونيل : « نعم . أحسب أن في ميسوري ان اقول نعم من غير أن أتجنس على الحقيقة . »

— « ألم يخلف ذلك في نفسك أية انطباعات عميقة ؟ فقد كانت المدينة هي باريس على أية حال ، ولم يكن كل امرئ قد استولى عليها . »

— « كان الفرنسيون ، أنفسهم ، قد استولوا عليها قبل اربعة ايام . ولكن ما دعواته القيادة العليا - انتبهي الى اللفظة الأخيرة - للقوات الحليفة الموجهة الى اوروبه (SHAEF^١) ، التي انتظمت جميع سياسي المؤخرة العسكريين الذين كانوا يحملون شارة العار بشكل شيء ملتهب ، في حين كنا نحمل نحن شارة تمثل برسمة ذات اربع ورقات ، كرمز

١ - يقصد الجنرال الفرنسي لوكليرك Leclerc وقد شارك في انتزاع باريس من يد الالمان (المعرب).

وكجالب للحظ ، اقول ان القيادة العليا هذه كانت لديها خطة رئيسية لتطويق المدينة . وهكذا لم نستطع أن نستولي عليها . »

— « ليس هذا فحسب ، بل لقد كان علينا ان ننتظر امكانية وصول الجنرال او الفيلد مارشال بيرنارد لو مونتغميري الذي كان عاجزاً حتى من سد الثغرة في «فاليز» والذي وجد التقدم دَِّبْقاً بعض الشيء ، ولم يستطع أن ينتهي الى هناك في الميقات المضروب . »

فقلت الفتاة : « لا ريب في انكم قد افتقدتموه . »

فقال الكولونيل : « اوه ، لقد افتقدناه . طوال فترة مديدة . »

— « ولكن ألم يكن ثمة في الاستيلاء على باريس ايما شيء نبيل أو سعيد حقاً ؟ — « من غير ريب ، » كذلك قال لها الكولونيل : « لقد قاتلنا من

« با مودون » Bas Meudon ، ثم من باب « سان كلو » porte de Saint Cloud خلال شوارع عرفتُها وأحببتُها ، ولم نُصَبْ بأية خسارة في الأرواح ، مُحْدَثين اقل قدر ممكن من الأذى والحراب . وعند « النجمة » Etoile أمرتُ كبير خدم ايلزا ماكسويل . وكانت هذه عملية معقدة جداً . وكان قد اُتِّهم بوصفه قنصاً يابانياً . شيء جديد . ولقد زُعم أنه قتل عدداً من الباريسيين غير يسير . وهكذا ارسلنا ثلاثة رجال الى السطح الذي التجأ اليه ، ولقد كان غلاماً من أبناء الهند الصينية . »

— « لقد بدأت افهم بعض الشيء . ولكن هذا يخلع الفؤاد . »

— « إنه يخلع الفؤاد دائماً ، الى حد لعين . ولكن ليس من المفروض في المرء ان يكون له في هذه الصناعة فؤاد . »

— « ولكن هل تعتقد ان الأمر كان هكذا تماماً في ايام القادة العظام ؟ »

- « أنا على يقين من أنه كان اسوأ . »
- « ولكنك اوديت في يدك على نحو مشرف . »
- « أجل على نحو مشرف جداً . فوق هضبة صخرية جرداء . »
- فقلت : « دعني ألمسها ، أرجوك . »
- فقال الكولونيل : « ولكن ترفقي بها عند وسطها . انها مشقوقة هناك ، وهي لا تزال تطلق حين تُبسط . »
- فنالت الفتاة : « يتعين عليك أن تؤلف . أنا أعني ما أقول جدّياً . وهكذا يتطلع الناس على هذه الأشياء وأمثالها . »
- فخالفها الكولونيل في هذا الرأي وقال : « لا ، انا لا أتمتع بالموهبة التي تؤهلني للتأليف ، وأنا اعرف اكثر مما ينبغي . انت اياك كذاب ليستطيع ، أو يكاد ، ان يكتب كلاماً ادعى الى الاقناع مما يكتبه رجل من اولئك الذين شهدوا الحرب . »
- « ولكن بعض الجنود الآخرين كتبوا وألفوا . »
- « نعم . موريس دو ساكس . فريدريك الكبير . مستر تسون سو . »
- « ولكنني عنيت جنوداً من اهل عصرنا نحن . »
- « انت تستعملين لفظة «نحن» في يسر بالغ . وأنا أحبها برغم ذلك . »
- « ولكن ألم يؤلف كثير من الجنود المعاصرين ؟ »
- « أجل ، هذا صحيح . ولكن هل قرأت في ايام يوم شيئاً من آثارهم ؟ »
- « لا . لقد قرأت الآثار الكلاسيكية في الغالب ، وانا اقرأ الصحف المصورة للاطلاع على الفضائح . وأنا اقرأ ، أيضاً ، رسائلك . »
- فقال الكولونيل : « أحرقها ، انها نافهة لا قيمة ما . »
- « أرجوك . لا تكن فظاً . »

- « لن اكون . ما الذي استطيع ان احدثك عنه من غير أن أضجرك ؟ »

- « حدثني عنك يوم كنت جنرالاً . »

- « اوه ، عن هذا . » قال ذلك وأوماً الى المايسترو الأعظم لكي يأتيه بالشامبانيا . كانت من نوع روديرر بروت ٤٢ ، ولقد أحبها .

- « حين تكون جنرالاً فإنك تحيا في عربة مقطورة ، ويحيا قائد أركانك في عربة مقطورة ، وتفوز بويسكي بوربون حين 'يُحْرَمُهَا' غيرك من الناس . أما الرموز المشيرة الى الفرق الالمانية (G s) فتحيا في «مركز الضغط» ولسوف اقول لك من هم الـ (G s) ، ولكن ذلك خليق به أن يضجرك . سوف احدثك عن الـ G 1 ، G 2 ، G 3 ، G 4 ، G 5 وفي الناحية المقابلة هناك دائماً «الكراتس» Krauts - 6 . ولكن هذا خليق به أن يضجرك . ومن ناحية ثانية ، فإن لديك خريطة مكسوة بمادة لدائنية (بلاستيكية) وفوق هذه الخريطة لديك ثلاث فرق عسكرية تتألف كل منها من ثلاث كتائب . وكلها معلمة بقلم رصاصي ملون .

« إن لديك تخوماً ، بحيث انه اذا تخطت الكتائب تخومها فعندئذ لا يقاتل بعضها بعضاً . وكل كتيبة مؤلفة من خمس سرايا . كلها يجب ان تكون جيدة ، وبعضها ليست جيدة الى هذا الحد . ليس هذا فحسب ، بل ان لديك مدفعيةً وسرّية مصفحات ، وكثيراً من قطع التبديل . انت تحيا بنظام الأحداثيات الرياضي . » وتمهل ريثما أفرغ المايسترو الاعظم محتويات الـ «روديرر بروت ٤٢» .

- « ومن قيادة الجيش ، » وترجم في جفاء فقال Cuerpo d'Armata ، « يوعزون اليك بالذي يجب ان تعمله ، ثم تقرّر أنت كيف تعمله . وتلمي

١ - الكراوتس Krauts هم النمساويون (المغرب)

الأوامر ، او تعطيتها - في الكثرة الكبيرة من الاحوال - بالتلفون . أنت «تخزّن» رجالاً تحترمهم لكي يجعلهم يفعلون ما تعرف أنه مستحيل كل الاستحالة ، ولكنه مأمور به . والى هذا ، فأنت عليك ان تفكر وتعمل في التفكير ، وان تذود عنك الناس حتى ساعة متأخرة ، وان تفيق مع الفجر .

- « ولن تكتب عن هذا ؟ ولو من أجل ارضائي ؟ »

فقال الكولونيل : « لا . ان الغلمان الذين كانوا حساسين وحمقى والذين احتفظوا بكل الانطباعات الأولى الثابتة عن يومهم الأول في المعركة ، او عن ايامهم الثلاثة الأولى ، وحتى عن ايامهم الاربعة فيها ، يؤلفون كتباً . انها كتب جيدة ، ولكن من الجائز ان تكون مملّة بالنسبة اليك اذا كنت ممن شهد تلك المشاهد . ثم هناك آخرون يضعون الكتب لكي يتعجلوا الربح من حرب لم يخوضوا غمارها البتة . اولئك هم الذين انقلبوا على أعقابهم لكي يرووا الأخبار . وهذه الأخبار نادراً ما تكون صحيحة . ولكنهم يهرعون لأذاعتها على الملأ . والكتاب المحترفون الذين تولوا وظائف حالت بينهم وبين القتال كتبوا عن معارك عجزوا عن فهمها ، وكأنهم كانوا في خط النار . ولست ادري تحت اي باب من الاثم يقع صنيعهم هذا . »

- « ولقد عرفت كذلك رئيساً (كابتن) في البحرية ناعماً نعومة النايلون ... رئيساً عاجزاً عن قيادة مركب وحيد السارية وضع مؤلفاً عن الجانب الحميم من « الفيلم الضخم » حقاً . ان كل امرئ سوف يضع مؤلفه عاجلاً أو آجلاً . وفي ميسورنا نحن ، حتى نحن ، ان نضع كتاباً جيداً . ولكني لا امارس الكتابة ، يا بنيّتي . »

وأوما الى المايسترو الأعظم بأن يملأ الكأسين .

وقال : « ايها المايسترو الأعظم ، هل تحب ان تقاتل ؟ »

- « لا . »

- « ولكننا قاتلنا ؟ »

- « اجل . اكثر مما ينبغي . »

- كيف صحتك ؟ »

- « رائعة لولا القُرَحَ المعِدِيَّة ، ونوبة قلبية طفيفة . »

- « لا ! » كذلك قال الكولونيل ، وقفز فؤاده في صدره فأحسَّ به يخنقه . « انت لم تحدثني عن شيء غير القُرَح . »

- « حسناً ، انت تعرف الآن ، » قال المايسترو الاعظم ذلك ، ولم يُتمَّ الجملة وابتسم ابتسامته الفضلى والأصفى التي انبثقت في مثل نصاعة الشمس المشرقة وصراحتها .

- « كم مرة ؟ »

فرفع المايسترو الاعظم اصبعين اثنتين كما يفعل المرء حين يعطي خصمه في الرهان ميزةً عليه ، حيث يملك رصيماً ، وكان الرهان كله على غفوة .

فقال الكولونيل : « إني متقدم عليك . ولكن فلنطرح التجهّم والعبوس . اسأل الدوّنّا ريتانا ما اذا كانت تريد مزيداً من هذه الخمر الممتازة . »

فقالت الفتاة : « ولكنك لم تخبرني انك أصبت بأكثر من نوبتين قلبيةتين . انت مكلف بأخباري بذلك . »

- « أنا لم أصب بشيء منذ اجتمعنا آخر مرة . »

- « هل تعتقد ان النوبات تعفيك من زيارتها اكراماً لي ؟ اذا كان ذلك ، فسوف أجيء وأبقى معك بكل بساطة وأسهر على صحتك . »

فقال الكولونيل : « انه مجرد عضلة . كل ما في الأمر أنها العضلة الرئيسية . وهي تعمل بثله دِقة رولكس أويستر بيرباتيتش وويل ^١ . »

١ - ماركة ساعات معروفة (المعرب) .

والمشكلة هي انك لا تستطيع ان تبعث بها الى ممثل شركة رولكس عندما يلم بها خلل ما . وحين تكفّ عن الحركة تصبح أنت عاجزاً عن معرفة الوقت ليس غير . لأنك عندئذ تكون قد مِت . »

— « لا تحدثني عن ذلك ، ارجوك . »

فقال الكولونيل : « انك انت التي سألتني . »

— « وذلك الرجل المجدور ذو الوجه الكاريكاتوري ، هل عنده شيء كهذا ؟ »

فقال لها الكولونيل : « لا ، من غير ريب . اذا كان كاتباً من الدرجة الثانية فإنه سوف يعيش الى الأبد . »

— « ولكنك لست كاتباً ، فكيف تعرف هذا ؟ »

فقال الكولونيل : « لا . بنعمة الله ، ولكنني قرأت كثيراً من الكتب . ان لدينا ، حين نكون عزّاباً ، متسعاً كبيراً من الوقت للمطالعة . ولكن ربما ليس بقدر ما لدى رجال الاسطول التجاري . ولكنه متسع كبير على أية حال . وفي ميسوري ان امّيز كاتباً من كاتب ، وإني لأقول لك ان كتاب الدرجة الثانية يعمرّون طويلاً . ومن حقهم ان يفوزوا بمكافأة خاصة بالعمر الطويل . »

— « هل تستطيع ان تروي لي بعض الحكايات ، وأن تكفّ عن الكلام على هذا الذي هو مبعث حزن حقيقي لي ؟ »

— « في استطاعتي ان اروي لك مئات منها . وكلها صحيحة . »

— « إرور لي واحدةٍ ليس غير . وبعد ذلك نأتي على هذه الحُر ونغضي على متن الغندول . »

— « هل تعتقدين أنك سوف تنعمين بدفء كافٍ ؟ »

— « اوه ، أنا واثقة من أني سوف أنعم بذلك . »

فقال الكولونيل : « لست ادري ما الذي يحسن بي ان أرويّه لك . »

ان كل ما يتصل بالحرب ليوقع الضجر في نفوس اولئك الذين لم يشنّوها .
ما عدا الكذّابين . »

– « أود لو تحدثني عن الاستيلاء على باريس . »

– « لماذا ؟ ألاني قلت لك انك بدوتِ مثل ماري آنطوانيت في
عربة النقل ذات الدولابين ؟ »

– « لا . لقد أُطريتُ بتلك الملاحظة ، وأنا أعلم انني اشبهها ببعض الشيء
في المظهر الجاني (بروفيل) . ولكنني لم أركب في حياتي أية عربة نقل ذات
دولابين ، واني لأحب أن اسمعك تحدثني عن باريس . فأنت حين تحب
امرءاً ما ويكون هو بَطْلُكَ ، يلذ لك أن تسمع شيئاً عن المواطن
والاشياء . »

فقال الكولونيل : « ارجوك ان تديري رأسك ، ولسوف احدثك
عنها . ايها المايسترو الاعظم ، ألا يزال ثمة بقية في تلك الزجاجة
البائسة ؟ »

– « لا . » كذلك أجابه المايسترو الاعظم .

– « اذن ايتِ بزجاجة اخرى . »

– « لديّ واحدة مثلوكة . »

– « حسن . إيتنا بها . والآن ، يا بنيّ ، لقد انفصلنا عن رتل
الجنرال لوكيرك عند «كلامار» . لقد مضوا الى مونروج Montrouge
و«بورت دورليان» Porte d'Orleans ، ومضينا نحن الى « با مودون
Bas Meudon مباشرة ، وبلغنا جسر باب سان كلو . هل هذا الكلام تقنيّ
اكثر مما ينبغي وهل يُضجرك سماعه ؟ »
– « لا . »

– « لو كان لديّ خريطة لاستطعت أن اوضح لك ذلك اكثر . »
– « تابع . »

– « لقد بلغنا الجسر ، وأقمنا رأس جسر على الضفة الاخرى من

النهر ، 'وقذفنا بالالمان ، الذين دافعوا عن الجسر ... قذفنا بهم احياء وأموالاً الى نهر السين . ' وأمسك عن الكلام لحظة ثم أضاف : ' كان ذلك دفاعاً رمزياً طبعاً . ولقد كان يحسن بهم ان يذسفوا الجسر . وألقينا بجميع هؤلاء الالمان في نهر السين . وكأوا كلهم ، تقريباً ، موظفين مدنيين ، في ما احسب . '

- « تابع . »

- « وفي صباح اليوم التالي ، أعلمنا ان الالمان يسيطرون على مواقع قوية في أماكن مختلفة ، وأن لهم مدفعية على جبل فاليريان ، وان الدبابات تطوف في الشوارع . وكان جزء من هذا صحيحاً . وطلب الينا ايضاً ان لا ندخل بأسرع مما ينبغي ، باعتبار ان التدبير يقضي بأن يستولي الجنرال لوكليرك على المدينة . وامتثلتُ هذا الطلب ، ودخلت المدينة بأكثر ما استطعت من ببطء .

- « وكيف تفعل ذلك ؟ »

- « تكبح جماح هجومك ساعتين ، ثم تحتسي الشامبانيا كلما قدمها اليك وطنيون ، ومؤازرون ، او متحمسون للقضية . »

- « ولكن ألم يكن ثمة شيء رائع أو عظيم ، كذلك الذي نقرأه في الكتب ؟ »

- « طبعاً كان هناك المدينة نفسها . كان الناس بالغى السعادة . وكان الجنرالات القدماء يتمشون هنا وهناك في بدلاتهم العسكرية المزودة بكُرّات النفطلين وقاية لها من العث . وكنا نحن ايضاً بالغى السعادة ، لعدم اضطرارنا الى القتال . »

- « وهل تعين عليكم ان تقاتلوا على اية حال ؟ »

- « ثلاث مرات ليس غير . وبعد ذلك قاتلنا على نحو غير جدتي . »

- « ولكن هل كان هذا كل ما احتجتم الى القيام به للاستيلاء على

مدينة كهذه ؟ »

— « لقد قاتلنا ، يا بُنَيَّتِي ، اثنتي عشرة مرة من رامبوييه Rambouillet لكي ندخل المدينة . ولكن اثنتين من هذه المرات اثنتي عشرة فحسب كانتا جديرتين بأن تُدْعيا قتالاً . ولقد جرى القتال في أولى هاتين المرتين عند « توستوس لونوبل » Toussus Le Noble وجرى في ثانيتهما عند « لوبوك » Le Buc . أما ما تبقى فلم يَعُدْ أن يكون زخرفة طبق من أطباق الطعام . والحق اني لم أضطرَّ الى القتال البتة إلا في هذين الموقعين . »

— « حدثني عن بعض الأشياء الحقيقية عن القتال . »

— « قولي لي إنك تحبينني . »

فقالت الفتاة : « أنا أحبك . باستطاعتك ان تنشر ذلك في صحيفة «غازيتينا» Gazzettina اذا شئت . انا احب جسمك الصلب ، المستوي ، وعينيك الغريبتين اللتين تروّعاني حين تغلب عليها النزعة الشريرة . انا احب يدك ، واحب كل جرح من جراحك . »

فقال الكولونيل : « أنا أؤثر ان احدثك عن شيء حسن جداً . أولاً ، استطيع أن اقول لك اني احبك قف . »

فسأله الفتاة فجأة : « لماذا لا تشتري بعض الآنية الزجاجية النفيسة ؟ إن في امكاننا أن نذهب الى مورانو Murano معاً . »

— « لست أعرف اي شيء عن الآنية الزجاجية . »

— « في استطاعتي ان أعلمك ، وخليق بذلك ان يكون متعة من

المتع . »

— « ان حياتنا ممسة في البداوة الى حد يجعلنا في غنى عن الآنية

الزجاجية النفيسة . »

— « وحين تتقاعد وتقيم هنا ؟ . »

- « سوف نشترى شيئاً من ذلك عندئذ . »
- « لشد ما أتنى لو تفعل هذا الآن . »
- « وكذلك انا ، لولا اني اعتزم الخروج لصيد البط غداً . ولولا أن الليلة هي الليلة . »
- « هل تستطيع ان اذهب معك لصيد البط ؟ »
- « تستطيعين في حال واحدة : اذا سألك الفاريتو ان تفعلي ذلك . »
- « في إمكاني أن أحمله على سؤالي . »
- « انا اشك في هذا . »
- « ليس من اللطف ان تشكّ في ما تقوله بنتك بعد أن انتهت الى سنّ تعصمها من الكذب . »
- « حسن جداً ، يا بُنيّتي . أنا اسحب شكّي ذاك . »
- « اشكرك . ومن اجل هذا لن اذهب وأكون مصدر ازعاج . سوف أبقى في البندقية ، واشهد القداس مع امي وعمتي ، وأزور فقرائي . انا ابنة وحيدة ، وهكذا فإن علي واجبات كثيرة . »
- « كنت دائماً اتساءل ماذا تعملين . »
- « هذا ما أعمله . والى ذلك فإن لديّ وصيفتي فهي تغسل وجهي وتقلّم أظافر يديّ ورجليّ وتصبغها لي . »
- « انت لا تستطيعين ان تفعلي هذا لأن الصيد سوف يجري يوم الأحد . »
- « اذن فسوف افعل ذلك يوم الاثنين . أما يوم الاحد فسأطالع جميع المجلات المصورة حتى الخليعة منها . »
- « ربما كانت تحمل صوراً لمسّ بيرغمان .^١ الاتزالين راغبة في أن تكوني مثلها ؟ »

١ - يقصد انغريد بيرغمان ، الممثلة السينمائية الشهيرة .

فقالت الفتاة : « لا ، لم اعد راغبة في ذلك . أنا اريد ان اكون مثل نفسي ولكن على نحو افضل ، افضل بكثير ، وانا اطمح في ان تحبني انت . »

— « والى هذا ، » كذلك قالت فجأة وفي غير تقشع ، « فأنا اريد أن أكون مثلك . هل تستطيع ان اكون مثلك ، بضع لحظات ، هذه الليلة ؟ » فقال الكولونيل : « طبعاً . في أية مدينة نحن على أية حال ؟ » فقالت : « البندقية . المدينة الفضلى ، في ما اعتقد . » — « اني اوافقك كل الموافقة . وأشكرك لعدم تكليفي أن أروي لك مزيداً من قصص الحرب . »

— « أوه ، سوف يتعين عليك ان ترويها في ما بعد . » — « يتعين عليّ ؟ » كذلك قال الكولونيل وتجلت القسوة والعزم في عينيه الغريبتين بمثل الوضوح الذي يتجلبان به حين يتأيل نحوك خَظْمٌ مدفع دبابةٍ مُقْلَنَسٌ^١ .

— « هل قلتِ يتعين عليك ، يا بُنَيَّتِي ؟ » — « لقد قلت هذا . ولكني لم اقصد به ذلك المعنى . واذا اخطأت فإني آسفة . لقد اردت ان اقول : هل لك أن تروي لي مزيداً من القصص الحقيقية في ما بعد ؟ وان تشرح لي الاشياء التي لا أفهمها ؟ » — « في استطاعتك ان تقولي يتعين عليك ، يا بُنَيَّتِي . الى الجحيم بهذا التعبير . »

وابتسم ، وشاعت الدماعة في عينيه كما لم تشع في يوم من الأيام ، ولم تكن دماعة مغالٍ فيها كما يعلم . ولكنه لم يجد مناصاً الآن من ان يحاول الأخذ بأسباب الدماعة واللاطف نحو حبه الاخير ... حبه الحقيقي

١ — اي ذو قلنسوة . والكلمة نعت لخظم المدفع .

والوحيد .

- « لست اجد في ذلك اي بأس ، فعلاً ، يا بُنيّتي . انا اعرف اصدار الاوامر ، ويوم كنت في مثل سنك كان من دابي ان استمتع بممارسة ذلك استمتاعاً عظيماً . »

- « ولكني لا اريد ان آمر ، » كذلك قالت الفتاة . وعلى الرغم من قرارها القاضي بأن لا تبكي البتة ، ترققت العبرات في عينيها . « إني أريد أن أخدمك . »

- « ادري . ولكنك تريدان أن تأمري أيضاً . وليس في هذا ايما بأس . فجميع الناس الذين هم في مثل حالنا ينزعون هذا المزع . »
- « اشكرك على هذه الـ « في مثل حالنا . »

فقال الكولونيل : « لم يكن قولها عسيراً عليّ » . ثم اضاف :
« يا بُنيّتي . »

في تلك اللحظة تقدم بواب الفندق نحو المائدة وقال : « عفواً ، يا سيدي . في الخارج رجل ، اظنه خادماً من خدمك يا سيدي ، يحمل رزمة كبيرة جداً يقول انها للكولونيل . فهل أبقياها في المستودع أم أبعث لك بها الى حجرتك ؟ »

فقال الكولونيل : « الى حجرتي . »

فقالت الفتاة : « ارجوك . ألا نستطيع أن نلقي عليها ، هنا ، نظرة ؟ نحن لا نبالي بأحد هنا ، أليس كذلك ؟ »
- « جرّدها من غطاءها وإيتنا بها الى هنا . »
- « حسن جداً . »

- « في ما بعد سوف نعهد الى بعضهم بنقلها في كثير من العناية الى حجرتي وبلغتها في إحكام ، لأحلبها معي حين أسافر . ظهيرة غدٍ . »
- « حسن جداً يا زعمي . »

فسأله الفتاة : هل انت متشوق الى رؤيتها ؟ «

فقال الكولونيل : « جداً ايها المايسترو الأعظم ، هاتِ مزيداً من شراب روديرر ذاك . وارجوك ان تضع كرسيّاً بطريقة تمكّنا من القاء نظرة على لوحة فنية . نحن من المتعصبين للفنون التصويرية . «

فقال المايسترو الاعظم : « ليس عندي مزيد من زجاجات روديرر المثالوجة . ولكن اذا اردت شيئاً من شراب بيريه - جوويه ... «
- « انتني بشيء منه ، « كذلك قال الكولونيل ثم اضاف : « ارجوك . «

وقال لها الكولونيل : « أنا لا اتكلم مثل جيورجي باتون . أنا لست مضطراً الى ذلك . وفوق هذا فهو لم يعد على قيد الحياة . «
- « مسكين ! «

- « أجل ، كان مسكيناً طوال حياته . برغم انه كان يتمتع بثروة مالية كبيرة وبعدد عظيم من المدرعات . «
- « هل لديكم ايما شيء مضادّ للمدرعات ؟ «

- « نعم . معظم الجنود الذين في داخلها . إنها تحيل الرجال الى قوم يستعملون قوتهم لإيذاء الضعفاء افتراء ، وتلك هي اول خطوة نحو الجبن ... الجبن الحقيقي أعني . ولعل «الخوف الجنوني من الأماكن المقفلة» (كلوستروفوبيا) يعتقد ذلك بعض الشيء . «

ثم انه نظر اليها وابتمس وعبر عن أسفه لذهابه بها الى ما وراء طاقتها على الفهم كما قد تنقل ساجماً جديداً من شاطئ ضحل الى مياه عميقة اكثر مما ينبغي . وحاول أن يطمئنها .

- « اغفري لي ، يا بُنيّتي . ان كثيراً مما اقله 'مُجحف ظالم . ولكنه اصدق من الاشياء التي سوف تقرئينها في مذكرات الجنرالات . فبعد أن يكسب الجندي نجمة ، او اكثر ، يصبح من العسير عليه أن

يبلغ الصديق بقدر ما كان بلوغ « الكأس المقدسة »^١ عسيراً في عهد أسلافنا .

- « ولكنك كنت جنرالاً . »

فقال الكولونيل : « ليس لمدة طويلة أكثر مما ينبغي . » ثم اضاف الجنرال : « ان كل رئيس (كابتن) من الرؤساء يعرف الحقيقة ادق المعرفة ، وفي استطاعة هؤلاء الرؤساء ان ينقلوها اليك ، في الأمم الأغلب . أما اذا لم يفعلوا فعندئذ يكون في استطاعتك ان تعيد تصنيفهم . »

- « وهل ستعيد تصنيفي اذا كذبت ؟ »

- « ذلك رهن بموضوع الكذبة التي تطلقينها . »

- « انا لن اكذب في ايما امر من الامور . اني لا اريد ان يعاد تصنيفي . ذلك شيء يبدو لي رهيباً . »

فقال الكولونيل : « إنه لكذلك . وانك لتردّهم بعدُ لكي يجري لهم ذلك مزوّدين بأحدى عشرة نسخة مختلفة تبين السبب الذي من اجله يتحتم اتخاذ ذلك الاجراء في حقهم ، وتذيل انت كلا من هذه النسخ بتوقيعك . »

- « وهل اعدت تصنيف كثير منهم ؟ »

- « أجل ، كثير . »

ودخل بواب الفندق ، باللوحة الزيتية ، الى الحجرة ، وهو يحملها في اطارها الضخم ، متهادياً كما يتهادى المركب حين يكون مثقلاً بالأشعة أكثر مما ينبغي .

- « إيت بكريسيين ، » كذلك قال الكولونيل للنادل الآخر ،

١ - the Holy Grail ، هي الكأس التي ذكروا ان السيد المسيح شرب منها في العشاء الأخير . (لمعرب)

« وَضَعَهَا هُنَاكَ . إِحْرَسْ عَلَى أَنْ لَا يَمْسَ قِمَاشُ اللُّوْحَةِ الْكَرْسِيِّ .
وَأَمْسِكْ بِهَا بِحَيْثُ لَا تَزُلَّ . »

ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى الْفَتَاةِ وَقَالَتْ : « يَتَعَيْنُ عَلَيْنَا أَنْ نَغْتَبِرَ هَذَا الْإِطَارَ . »
فَقَالَتْ : « أَدْرِي . أَنَا لَمْ أَخْتَرَهُ بِنَفْسِي . خَذْهَا مَعَكَ غَيْرَ مُؤَاطَرَةٍ
وَلَسَوْفَ نَخْتَارُ لَهَا إِطَاراً حَسِناً فِي الْإِسْبُوعِ الْقَادِمِ . وَالْآنَ ، انْظُرْ
إِلَيْهَا ، لَا إِلَى الْإِطَارِ . انْظُرْ إِلَى مَا تَقُولُهُ عَنِّي أَوْ مَا لَا تَقُولُهُ . »
كَانَتْ لَوْحَةٌ زَيْتِيَّةٌ جَمِيلَةٌ . لَا بَارِدَةٌ وَلَا مَتَكَفَّةٌ لِلْعَظْمَةِ ، لَا تَقْلِيدِيَّةٌ
وَلَا عَصْرِيَّةٌ . كَانَتْ 'مُخْرَجَةً' بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تُوَدُّ أَنْ تُرَسَّمَ بِهَا حَبِيبَتُكَ
لَوْ أَنَّ تَيْنْتُورِيَّتُو^١ عَلَى مَقَرَّبَةٍ دَانِيَّةٍ مِنْكَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، كَلَفَتْ فِيلَاسْكِيْز^٢
بِتِلْكَ الْمَهْمَةِ . إِنَّهَا لَمْ تُخْرِجْ عَلَى طَرِيقَةٍ أَيٍّ مِنْهَا . لَقَدْ كَانَتْ بِجَرْدِ
لَوْحَةٍ زَيْتِيَّةٍ 'رُسِمَتْ' ، كَمَا تُرَسَّمُ اللُّوْحَاتُ أحياناً ، فِي عَصْرِنَا هَذَا .

فَقَالَ الْكُولُونِيلُ : « إِنَّهَا رَائِعَةٌ . إِنَّهَا ظَرِيفَةٌ حَقّاً . »

كَانَ بَوَابُ الْفَنْدُقِ وَالنَّادِلُ الثَّانِي يَمْسُكَانِ بِاللُّوْحَةِ وَيَنْظُرَانِ إِلَيْهَا مِنْ
حَوْلِ اطْرَافِهَا . وَكَانَ الْمَایِستَرُ الْأَعْظَمُ يَعْبرُ عَنْ اعْجَابِهِ الْكَامِلِ بِهَا .
وَكَانَ الْأَمِيرُكِيُّ ، الْجَالِسُ عَلَى مَبْعَدَةِ مَائَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ ، يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْنِ
صَحَافِيَّتَيْنِ ، مَتَسَائِلًا بِرِيشَةٍ مِنْ رُسِمَتِ . وَكَانَ ظَهَرَ قِمَاشِهَا إِلَى الطَّاعِمِينَ
الْآخَرِينَ .

- « إِنَّهَا رَائِعَةٌ ، » كَذَلِكَ قَالَ الْكُولُونِيلُ . « وَلَكِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعِينَ
أَنْ تَمْنَحِيَنِي إِيَّاهَا . »

فَقَالَتْ الْفَتَاةُ : « لَقَدْ مَنَحْتُكَ إِيَّاهَا وَانْتَهَيْتُ . أَنَا وَاثِقَةٌ مِنْ أَنْ
شَعْرِي لَمْ يَكُنْ مَنَسَاباً ، بِمِثْلِ هَذَا الطَّوْلِ كُلِّهِ ، عَلَى كَتْفِي . »

١ - Tintoretto رسام من اهل البندقية ١٥١٨ - ١٥٩٤ (المغرب)

٢ - Velasquez رسام اسباني ١٥٩٩ - ١٦٦٠ (المغرب)

« احسب انه كان كذلك في أغلب الظن . »
« في ميسوري أن أطلقه حتى يبلغ هذا الطول ، اذا رغبت في ذلك . »

فقال الكولونيل : « حاولي ، يا ذات الجمال الباهر . انا احبك اعظم الحب . انتِ وشخصك المرسوم على القماش . »
« قل للتدُل اذا شئت . أنا واثقة من انها لن تكون صدمة شديدة لهم . »

فقال الكولونيل لبواب الفندق : « احمل اللوحة الى حجرتي في الطابق العلوي . اشكرك على حملك اياها الى هنا شكراً جزيلاً . واذا كان الثمن مناسباً اشتريتها . »

فقالت الفتاة له : « الثمن مناسب . ألا ترى ان من واجبنا ان نكلف أحداً بنقلها وينقل الكرسيين الى حيث نستطيع أن نعرضها امام عيني مواطنك عرضاً خاصاً ؟ ان في استطاعة المايسترو الاعظم ان يعطيه عنوان الرسام ، وان باستطاعة مواطنك ان يقوم بزيارة للاستديو الفاتن . »

فقال المايسترو الاعظم : « انها لوحة جد طريفة . ولكنها يجب ان تُنقل الى الحجرة . يتعين على المرء ان لا يدع روديرر أو بيريه - جوويه يقوم بمهمة الكلام . »

« احملها الى الحجرة ، ارجوك . »

« لقد قلت ارجوك من غير ما وقفت قبلها . »

فقال الكولونيل : « شكراً . لقد تأثرتُ اعماق التأثر باللوحة ، ولست اتحمل مسؤولية ما أقول تحملاً كاملاً . »

« فليكن كلانا غير مسؤول عما يقول . »

فقال الكولونيل : « اتفقنا . المايسترو الاعظم رجل يتحمل مسؤولية

كلامه الى ابعاد الحدود . ولقد كان هكذا دائماً . »

فقلت : « لا . انا اعتقد انه لم يقل ذلك بدافع من روح المسؤولية بل بدافع من الحبث . اننا كلنا ، في هذه المدينة نتميز بضرب ما من الحبث ، كما تعلم . وأحسب انه ربما لم يُرد لذلك الرجل أن ينعم حتى بنظرة صحافية الى السعادة . »

— « أياً ما كان معنى ذلك . »

— « لقد تعلمتُ هذه العبارة منك ، وما انت ذا عاودت تعلّمها مني . » فقال الكولونيل : تلك هي 'سنة الاشياء' . ما تكسبه في بوسطن تخسره في تشيكاغو . »

— « لست افهم ذلك البتة . »

فقال الكولونيل : « انه اصعب من أن يُشرح . » ثم اضاف : « لا ، إنه ليس كذلك طبعاً . ان توضيح الأشياء هو صناعتي الرئيسية . إلى الجحيم بكل ما هو اصعب من أن يُشرح . إنه أشبه بمباراة كرة قدم Calcio^١ يخوضها فريق محترف . ما تكسبه في ميلانو تخسره في تورينو . »

— « انا لا ابالي بكرة القدم . »

فقال الكولونيل : « وكذلك أنا . ولا أبالي بخاصة بمباريات الجيش والاسطول ، وبأحاديث كبار الضباط عندما يتكلمون بلُغة كرة القدم الاميركية لكي يستطيعوا ، هم أنفسهم ، أن يفهموا ما يتحدثون عنه . »

— « أحسب أننا نستمتع بلحظات سعيدة ، هذه الليلة . » حتى في ظل هذه الظروف والملابسات ، أياً ما كانت . »

— « أيجسن بنا أن ننقل معنا هذه الزجاجاة الجديدة الى الغندول ؟ »

١ لفظة ايطالية تعني كرة القدم أو مباراة في كرة القدم . (المعرب)

فقلت الفتاة : « اجل . ولكن مع كأسين عميقين . سوف أخبر
المياسترو الاعظم بذلك . فلنأخذ معطينا ولننصرف . »
- « حسن . سوف آخذ شيئاً من هذا الدواء ، واوقّع للمياسترو
الاعظم ، وعندئذ نغني لسبيلنا . »
- « لشد ما أتمنى لو كنت أنا من يأخذ الدواء بدلاً منك . »
فقال الكولونيل : « انا سعيد الى حد جهنمي لأنك لا تأخذينه بدلاً
مني . هل نختار غندولنا أم نطلب اليهم ان يستقدموا لنا غندولاً الى
المهبط المفضي الى البحر ؟ »
- « فلنقامر قليلاً ، ولنطلب اليهم أن يأتوا بواحد الى المهبط . هل
عندك ما تخسره ؟ »
- « احسب انه ليس عندي شيء . اغلب الظن انه ليس عندي شيء . »

وخرجنا من باب الفندق الجاني الى «المهبط» imbarcadero ، فصفعتها
الريح . والتمعت اضاءا الفندق على سواد الغندول ، وجعلت المياه خضراء .
إنه يبدو ظريفاً مثل فرس أصيلة أو مثل مركب طويل ضيق من
مراكب السباق ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . لماذا لم أرَ من
قبل قط اي غندول ؟ أية يد أو عين صاغت ذلك التناغم المقتّم ؟

وسألته الفتاة : « الى اين سوف نمضي ؟ »

كان شعرها - في الضياء المنبعث من باب الفندق ونافذته ، خلال
وقوفها على حوض السفن في محاذاة الغندول - يتطاير الى الورا مع
هبوب الريح ، حتى لقد بدت أشبه ما تكون بتمثال زخرفي في سفينة .
وما الى ذلك ايضاً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

وقال الكولونيل : « فلنجتريء بالتنزه به خلال الحديقة العامة ، او
خلال « الغابة » وقد قُلبنا رأساً على عقب . دعيه ينطلق بنا الى
آرمينوتفيل . »

- « هل سنذهب الى باريس ؟ »

فقال الكولونيل : « من غير ريب . قولي له ان يمضي بك ، طوال
ساعة ، حيث الانطلاق اسهل . أنا لا اريد ان اكلفه الجري بنا في
وجه هذه الريح . »

فقلت الفتاة : « المدّ مرتفع جداً مع هذه الرياح . ولقد عجز
الغندول من قبل عن بلوغ بعض مواطننا بالمرور تحت الجسور . أتأذن
لي في أن أدله الى ابن يحسن به أن يتجه ؟ »
- « من غير ريب ، يا بُنيّتي . »

- « ضع دلو الجليد هذا فوق ظهر الغندول ، » كذلك قال للنادل
الثاني ، الذي كان قد غادر الفندق برفقتها .
- « لقد كلفني المايسترو الاعظم ان اقول لك ، حين تتركب البحر ،
ان هذه الزجاجة هي هدية منه . »
- « احمل اليه شكري العميق وقل له انه لا يستطيع ان
يفعل ذلك . »

وقالت الفتاة : « من الأفضل للغناديلي أن يواجه الرياح بعض الشيء ،
اولاً ، وبعد ذلك أعرف في أي اتجاه يتعين عليه أن يمضي . »
وقال النادل الثاني : « لقد ارسل المايسترو الاعظم هذه . »
كانت بطانية غتيقة مطوية . وكانت ريناتا تتحدث الى الغناديلي ،
وقد عبث الرياح بشعرها . وكان الغناديلي يرتدي كنزة زرقاء سميكّة
من كنزات رجال الاسطول ، وكان حاسر الرأس أيضاً .
فقال الكولونيل : « أشكره باسمي . »

ووضع في يد النادل الثاني ورقة نقدية . ولكن النادل الثاني أعادها
اليه قائلاً : « لقد سبق لك ان ملأت الشيك . وعلى أية حال ، فليس ايّ
منا ، أنت أو أنا أو المايسترو الاعظم ، يجائع . »
- « وزوجتك واولادك ؟ »

- « ليس لديّ زوجة وأولاد . ان طائراتكم قد سحقت بيتنا في
تريفيزو . »
- « أنا آسف لذلك . »

فقال النادل الثاني : « لا داعي للأسف فقد كنت جندياً في سلاح المشاة كما كنتُ أنا . »

— « اسمح لي ان اعبر عن أسفي . »

فقال النادل الثاني : « من غير ريب . ولكن هل يقدم ذلك أو يؤخر ؟ إبتهج يا زعمي ، وابتهجي يا سيدتي . »

وامتطيا متن الغندول ، وكان ثمة ذلك السحر المأثور نفسه ، سحر المركب الخفيف ، وتنحية الماء المفاجئة التي أحدثها ثقلك ، ثم توزيعك ثقل المركب بحيث يتوازن فوق سطح الماء في تلك الخلوة القائمة ، وإعادة ذلك التوزيع كرة أخرى عندما شرع الغناديلي يجذّف بجذاف واحد ، مملاً المجذاف على جانبه بعض الشيء لكي يكون اقدر على التحكم فيه .

فقالت الفتاة : « والآن ، نحن في بيتنا ، وأنا احبك . ارجوك ان تقبلني ، وأن تفرغ حبك كله في قلبتك هذه . »

وضمها الكولونيل الى صدره في إحكام ، وقد ارتدت رأسها الى وراء وقبلها حتى لم يبق من القبلة غير القنوط .

— « أنا احبك . »

فقاطعته : « أيا ما كان معنى ذلك . »

— « أنا احبك ، وأنا أعلم كل ما قد يعنيه ذلك . اللوحة الزيتية

ظريفة ، ولكن ليس ثمة لفظة تستطيع أن تصفك أنت . »

— « طائشة ، » كذلك قالت ، « أو مهمة ، أو شعناء . »

— « لا . »

— « ان اللفظة الاخيرة كانت من أوائل الالفاظ التي تعلمتها من مربيتي .

إنها تعني انك لا تسرح شعرك تسريحاً كافياً . أما لفظة « مهمة » فتطلق حين لا تفرّش شعرك مئة مرة في الليل . »

— « سوف أمرّ يدي خلاله وأجعله اشدّ تشعثاً . »

— « يدك الجريح ؟ »

— « نعم . »

– « نحن جالسان في الجانبين غير الملائمين لهذا الغرض . فلنتبادل موضعينا . »

– « حسن . هذا طلب معقول مُفْرَغٌ في لغة بسيطة يسهل فهمها . »

وكان تبادلها موضعيتها متعة من المتع ، اذ كان عليها ان لا يفسد توازن الغندول ، وان يوزعاً ثقله كرة أخرى توزيعاً عادلاً في احتباس وعناية .

وقالت : « والآن أميكُ بي في قوّة بيدك الأخرى . »

– « هل تعرفين تماماً ماذا تريدن ؟ »

– « أنا أعرف من غير ريب . أهو عمل لا يليق بعذراء ؟ لقد تعلمت هذا التعبير ، أيضاً ، من مربيتي . »

فقال : « لا . إنه رائع . اسحي البطانية جيداً واستشعري هذه الريح . »

– « إنها مقبلة من الجبال العالية . »

– « اجل ، فاذا تجاوزت الجبال العالية فعندئذ تكون مقبلة من مكان آخر . »

وسمع الكولونيل اصطفاق الامواج ، واستشعر الريح وهي تهب عنيفة ، وألّفة البطانية الخشنة ، ثم استشعر الفتاة مقرورة – حارة – وحيية الى النفس وذات نهدين شائخين انزلت يده اليسرى فوقها انزلاقاً رقيقاً . وبعد ذلك أمر يده المشوهة خلال شعرها مرة ، ومرة ، ومرة ، ثم قبلها ، وكانت قبلته اسوأ من القنوط .

– « ارجوك ، ، كذلك قالت من تحت البطانية ، » دعني اقبلك الآن ، ،

فقال : « لا . اريد ان اقبلك كرة اخرى . »

كانت الريح قارسة ، وكانت تلهب وجهيها بسياطها ؛ أما تحت
البطانية فلم يكن ثمة ريح أو أي شيء . لم يكن غير يده الخريبة
الباحثة عن الجزيرة في النهر العظيم ذي الضفتين العاليتين الشديديتي
الانحدار .

وقالت : « هو ذاك . »

وقبلها عندئذ ، وراح يبحث عن الجزيرة ، مهتدياً إليها ، مضيقاً
إياها ، ثم مهتدياً إليها نهائياً . نهائياً أو غير نهائي ، كذلك قال في ذات
نفسه ، نهائياً وإلى الأبد .

وقال : « يا حبيبة نفسي . يا من أوثرها بالحب . ارجوك . »
- « لا . حسبك أن تضمني إلى صدرك ضمّاً محكماً ، وإن قلتشبت
بالأرض العالية أيضاً . »

ولم يقل الكولونيل شيئاً ، لأنه كان يشهد ، أو يتظاهر بأنه يشهد ،
السرّ القدسيّ الوحيد الذي كان يؤمن به بالإضافة إلى بسالة الإنسان
العرّضية .

وقالت الفتاة : « لا تتحرك ، ارجوك . ثم أسرف في الحركة . »
وواصل الكولونيل ، مضطجعا تحت البطانية في غمرة الريح ، عالماً
أن ما يفعله الرجل للمرأة هو كل ما يبقى له ، باستثناء ما يفعله لوطنه
الأب أو وطنه الأم ، أياً ما كانت الصيغة التي تؤثرها .

وقالت الفتاة : « ارجوك ، يا عزيزي . لست أفكر أني قادرة على
احتمال ذلك . »

- « لا تفكري في شيء . لا تفكري في شيء البتة . »

- « لست أفعل . »

- « لا تفكري . »

- « اوه ، ارجوك ، فلنكفّ عن الكلام . »

- « هل هذا حسن ؟ »

- « انت تعلم . »

- « انت واثقة من ذلك »

- « اوه ، ارجوك ان لا تتكلم . ارجوك . »

أجل ، كذلك قال في ذات نفسه . أرجوك وارجوك كرة اخرى .

ولم تقل شيئاً ، لا ولم يقل هو شيئاً . وحين انطلق الطائر الكبير من نافذة الغندول الموصدة وغاب عن الأنظار لم يقل أيّ منها شيئاً . لقد أمسك رأسها بذراعه السليمة ، في رفق ، وأمسكت ذراعهُ الاخرى - الآن - بالأرض العالية .

وقالت : « ارجوك ان تضعها حيث ينبغي ان توضع . يدك اعني . »

- « اضروري هذا ؟ »

- « لا . حسبك ان تضعني اليك في قوة ، وحاول ان تحبني حباً

صادقاً . »

فقال : « انا احبك حباً صادقاً . » وفي تلك اللحظة انعطف الغندول الى اليسار ، انعطافاً حاداً جداً ، وكانت الريح على خده الأيمن ، وقال وقد لمحت عيناه العتيقتان الخطوط الكبرى للقصر ، والتفتا نحوه ولاحظاه : « انت الآن في الجانب المحجوب عن الريح ، يا بنيتي . »

- « ولكن هذا اسرع مما ينبغي الآن . ألا تعلم كيف يكون احساس

المرأة ؟ »

- « لا . لست أعلم من ذلك الا ما تخبريني به انت . »

- « اشكرك على انتِ هذه . ولكن ألا تعلم فعلاً ؟ »

- « لا . انا لم اسأل عن ذلك قط . في ما احسب ، »

فقالت : « احسب الآن . وارجوك ان تنتظر ريثما نمرّ تحت الجسر

الثاني . »

- « خذي كأساً من هذا . » كذلك قال الكولونيل باسطاً يده على نحو مصيب ملتصقاً دلو الشامبانيا الحافل بالثلج ، نازعاً غطاء الزجاجاة التي كان المايسترو الاعظم قد نزع سدادتها ثم وضع مكانها فليئة خمر عادية .

- « هذه مفيدة لك ، يا بُنيّتي . إنها تساعد على التخلص من جميع الأسواء التي تستبدّ بنا جميعاً ، وتضع حداً لكل كآبة وتردد . »

- « لست أشكو شيئاً من هذه كلها ، » كذلك أجابت بلغة فصيحة كما كانت مربيتها قد علّمتها . « انا مجرد امرأة ، او فتاة » (سمّني ما شئت) تقوم بكل ما يتعين عليها ان لا تقوم به . فلنعاودُ عمل ذلك ، أرجوك ، ما دمتُ الآن في الجانب المحجوب عن الريح . »

- « أين الجزيرة الآن وفي أيّ نهر ؟ »

- « اذك انت الذي تستكشف . ولست أنا غير البلاد المجهولة . »

- « انها ليست مجهولة اكثر مما ينبغي . »

فقالت الفتاة : « أرجوك ان لا تكون فظاً . وأرجوك أن تشن هجومك في رفق ، وبمثل الطريقة التي اصطنعتها من قبل . »

فقال الكولونيل : « هو ليس هجوماً . انه شيء آخر . »

- « أياً ما كان ... أياً ما كان ، ما دمت لا ازال في الجانب المحجوب عن الريح . »

- « اجل » كذلك قال الكولونيل . « اجل ، اذا اردتِ ، أو اذا كنت ستوافقين تكرّماً . »

. « نعم ، أرجوك . »

إنها تتكلم مثل هرةٍ بالغة اللطف ، برغم أن الهرة البائسة لا تقوى على الكلام ، كذلك قال الكولونيل . ولكنه سرعان ما اقلع

عن التفكير ، وظلّ مقلماً فترة من الزمن طويلة .
كان الغندول الآن في إحدى القنوات الثانوية . وحين انعطف من
القناة العظمى كانت الريح قد أمالته بحيث اضطرّ الغناديليّ الى تحويل ثقله
الى الناحية الثانية وكأنه صابورة^١ ، وحول الكولونيل والفتاة ثقلها ايضاً ،
تحت البطانية ، وقد نفذت الريح الى ما تحت حافة البطانية في ضراوة .
وكانا قد اعتصما بالصمت برهة طويلة ، وكان الكولونيل قد لاحظ
ان الغندول لم يكن يفصله عن الارتطام بأدنى الجسر الاخير غير بضع
بوصات .

- « كيف انت ، يا بُنيّتي ؟ »

- « في أحسن حال . »

- « هل تحبينني ؟ »

- « ارجوك ان لا توجه اليّ اسئلة سخيفة . »

- « المدّ مرتفع جداً ونحن لم نجتزّ ذلك الجسر الأخير إلا منذ لحظات . »

- « احسب اني اعلم الى اين نحن ماضيان . لقد وُلدتُ هنا . »
فقال الكولونيل : « لقد ارتكبتُ انا بعض الاخطاء في نفس المدينة
التي وُلدتُ فيها . إن مجرد كون المرء « قد وُلد هناك » ليس هو
كل شيء . »

فقالت الفتاة : « إنه شيء هام جداً . وانت تعرف ذلك . ارجوك
ان تضمّني اليك في شدة بالغة حتى ليصبح في إمكان كل منا أن يكون
جزءاً من الآخر ، برهةً قصيرة . »

فقال الكولونيل : « في ميسورنا أن نجرب »

١ - bollast الصابورة، في منطاد او سفينة ، ثقل خاص يوضع في احدهما حفظاً لتوازنه .
(المعرب) .

« أليس في استطاعتي ان اكون انت ؟ »

– « هذا معقد الى حد رهيب . في امكاننا ان نجرب طبعاً . »
فقلت : « انا انت الآن . ولقد استوليت منذ لحظات على مدينة
باريس . »

فقال : « وحق المسيح ، يا بُنيّتي ، إن بين يديك الآن لمجموعة
رهبية من المشكلات . والشيء الذي سوف يلي هو انهم سيستعرضون
الفرقة الثامنة والعشرين في شوارعها . »

– « لست أبالي . »

– « أما أنا فأبالي . »

– « ألم يكونوا صالحين ؟ »

– « بلى كانوا صالحين ، من غير ريب . وكان لهم قادة ممتازون
ايضاً . ولكنهم كانوا « حرساً وطنياً » وحظاً سيئاً . ما ندعوه
فرقة T. S. أطلبي مقعدك الكنسي من القسيس . »

.. « لست افهم أياً من هذه الاشياء . »

فقال الكولونيل : « إنها غير جديرة بأن تُشرح . »

– « هل لك أن تخبرني بعض الاشياء الحقيقية عن باريس ؟ انا احب
ذلك كثيراً ، وحين أفكر انك قد استوليت عليها آنذاك يبدو لي وكأنني
امتطي متن هذا الغندول مع المارشال فاي^١ . »

– « تلك مهمة غير صالحة » ، كذلك قال الكولونيل . « وعلى أية
حال ، ليس بعد ان قام بجميع عمليات مؤخرة الجيش تلك في طريق
عودته من المدينة الروسية الكبيرة . لقد كان من دأبه ان يقاتل عشر مرات ،

١- Ney (١٧٦٩ - ١٨١٥) ، ماريشال فرنسة في عهد نابليون بونابرت . (المعرب)

واثنتي عشرة مرة ، وخمس عشرة مرة ، في اليوم الواحد . ربما اكثر .
وفي ما بعد لم يعد في ميسوره أن يتبين الناس ويميز ما بينهم . ارجوك
ان لا تركي متن أيّ غندول من الغناديل برفقته . »

— « لقد كان دائماً ، واحداً من أبطال العظام . »

— « أجل . ومن ابطالي العظام انا أيضاً . حتى كانت معركة « كاتر برا »^١ .
لعلها لم تكن « كاتر برا » . فالصدا اخذ يلمّ بذاكراتي . اخلعي عليها
لقب واترلو الشامل . »

— « وهل تكشّف هناك عن حماقة ؟ »

فقال لها الكولونيل : « الى حد رهيب . حاولي ان تنسيّ هذا .
لقد قام بعدد من العمليات « المؤخرية » اكثر مما ينبغي في طريق عودته
من موسكو . »

.. — « ولكنهم دَعَوْهُ أشجع الشجعان ؟ »

— « إنك لا تستطيعين ان تعيشي على هذا . ان عليك ان تكوني
هكذا ، دائماً ، وان تكوني أذكى الأذكاء أيضاً . وبعد ذلك تحتاجين
الى أمداد ومعدات كثيرة . »

— « حدثني عن باريس ، ارجوك . إن علينا ان لا نسترسل في
مزيد من الوصال . أنا اعلم ذلك . »

— « أنا لا أعلمه . من الذي يقول هذا ؟ »

— « انا . لأنني احبك . »

— « حسن جداً . لقد قلتِ هذا وانت تحبينني . فلنعمل بوحى من

١ — Quatre Bras قرية في وسط بلجيكا على مقربة من بروكسل ، حيث جرت معركة
مهدة لمعركة واترلو الشهيرة عام ١٨١٥ . (العرب)

ذلك . وليكن ما يكون . »

ـ « هل تعتقد ان في امكاننا ان نعيد الكرة إنت' لم يورثك ذلك
أذىً ما ؟ »

فقال الكولونيل : « يورثني أذىً ما ؟ ومتى أُوْرِثْتُ ، بحق الجحيم ،
أيما أذى ؟ »

- « ارجوك ان لا تكون خبيثاً ، » قالت ذلك وسحبت البطانية عليها معاً . ارجوك ان تشرب كأساً من هذه الخمر معي . انت تعلم أنك قد اوذيت . »

فقال الكولونيل : « تماماً . فلتنس ذلك . »
فقالت : « حسن جداً . لقد تكلّمت هذه الكلمة ، او هاتين الكلمتين ، منك . لقد نسينا ذلك . »

- « لماذا تحبين اليد ؟ » كذلك سأها الكولونيل ، واضعاً إياها حيث يجب ان يضعها .

- « ارجوك ان لا تتظاهر بالبلاهة ، ولنقلع عن التفكير في أي شيء ، او أي شيء ، او أي شيء ، ارجوك . »

فقال الكولونيل : « انا أبله . ولكني لن افكر بأي شيء ، أو بأي شيء ، حتى ولا بأخيه ، غداً . »

- « ارجوك أن تكون طيباً ودمثاً . »

- « سوف اكون . وسأفضي اليك ، الآن ، بسر عسكري . السرّ الرئيسي ، يساوي «السر الاعظم» عند الانكليز . انا احبك . »

فقالت : « هذا جميل . ولقد افرغته في قالب بارع . »

- « اني لطريف ، » كذلك قال الكولونيل ، وراقب الجسر الذي

كان يدنو منها ، ورأى ان في امكان الغندول ان يمر من تحته من غير
أن يرتطم به . « هذا اول ما يَبْدَهُ الناسَ من أمري . »
فقالت الفتاة : « اني لاستعمل الألفاظ المغلوطة دائماً . ارجوك ان
تحبني ليس غير . ولكم أتمنى لو كنت أنا القادرة على حبك . »
- « انت تحبينني . »

فقالت : « اجل ، انا احبك . من كل قلبي »
كانا ينطلقان الآن في اتجاه الريح ، وكان كل منهما 'متعباً . »
- « هل تفكرين ... ؟ »
فأحابت الفتاة : « انا لا افكر . »
- « حسناً ، حاولي أن تفكري . »
- « سوف افعل . »
- « اشربي كأساً من هذه . »
- « لمَ لا ؟ إنها جيدة جداً . »

ولقد كانت كذلك فعلاً . كان لا يزال ثمة ثلج في الدلو ، وكانت
الحجر باردةً وصافية .

- « هل استطيع البقاء في الغريقي ؟ »
- « لا . »
- « لمَ لا ؟ »
- « لن يكون ذلك مناسباً . لا لهم هم ؛ ولا لكِ أنت . أما أنا
فلست أبالي . »

. « اذن فأحسب أن عليّ أن امضي الى البيت . »
فقال الكولونيل : « اجل ، هذا هو الاقتراح المنطقي . »
- « تلك طريقة رهيبة لقول شيء محزن . اليس في استطاعتنا
مجرد التظاهر بشيء ما ، ايضاً ؟ »

- « لا . سوف آخذكِ الى المنزل حيث تنامين نوماً طويلاً عميقاً ،
وغداً سنلتقي حيثما تريدن وفي الساعة التي تريدن . »

- « هل أستطيع أن أتلفن للغريتي ؟ »

- « طبعاً . سوف اكون مستيقظاً دائماً . هل تعترمين ان تتلفني حين
تفيقين ؟ »

- « اجل . ولكن لماذا تفيق دائماً في ساعة مبكرة جداً من
الصباح ؟ »

- « إنها عادة من عادات صناعتي . »

- « اوه ، لشدّ ما أتمنى لو لم تكن من اهل تلك الصناعة ، ولو
انك لن تموت . »

فقال الكولونيل : « وكذلك انا . ولكني على وشك اعتزال هذه
الصناعة . »

فقالت وقد غلب عليها النعاس والارتياح : « اجل . وعندئذ نذهب
الى رومة ونشتري الملابس . »

- « ونحيا سعيدين بعد ذلك الى الأبد . »

فقالت : « ارجوك ان لا تقول هذا ، ارجوك أن لا تقول هذا .
انت تعلم اني اخذت على نفسي عهداً أن لا اذرف الدمع . »

فقال الكولونيل : « إنك تذرفين الدمع الآن . ليت شعري ما الذي
يتعيّن عليك ان تخسريه بسبب من ذلك العهد ؟ »

- « خذني الى البيت من فضلك . »

فقال لها : « ذلك ما كنت افعله بادیء ذي بدء . »

- « كن دمثاً مرةً واحدة ، قبل كل شيء . »

فقال الكولونيل : « سوف أكون . »

وبعد ان دفعا الاجرة ، أو على الاصح بعد ان دفع الكولونيل
الأجرة ، الى الغناديلي الذي كان يجهل كل شيء ، وبرغم ذلك يعلم كل شيء ،
والذي كان قوي البنية ، بارعاً ، كثير الاحترام ، جديراً
بالثقة ... اقول بعد ان دفع الكولونيل الاجرة الى الغناديلي
مشياً الى «بياتزيتا» Plazzeta ، ثم عَبَرا الساحة العريضة الباردة ، التي
كانت مسرحاً للريح ، والتي بدت صلبة عتيقة تحت أقدامها . أجل
مشياً ، وقد أمسك كل منها بيد الآخر في قوة وإحكام ، يكتنفها
أسامها وتكتنفها سعادتها .

وقالت الفتاة : « هذا هو المكان الذي اطلق فيه الالماني النار على
الحماة . »

فقال الكولونيل : « أغلب الظن اننا قتلناه . او قتلنا أخاه . ولعلنا
قد شنقناه . لست أدري . انا لست من رجال دائرة المباحث الجنائية
(C . I . D)

— « ألا تزال تحبني بعد ان وطئنا هذه الحجارة الباردة ، العتيقة التي
أبلستها المياه ؟ »

— « أجل . وإني لأودّ لو اتشر هنا فراشاً واقم الدليل على ذلك . »
— « خليك بهذا الصنيع أن يكون أمعن في البربرية من صنيع مُطلق
النار على الحماة . »

فقال الكولونيل : « أنا رجل بربري الخلق »
— « ليس دائماً . »

— « اشكرك على ليس دائماً هذه . »

— « يجب ان نتعطف هنا . »

— « احسب اني أعلم ذلك . متى سيدكتون « قصر السينما » اللعين هذا
ويقيموا مكانه كاتدرائية حقيقية ؟ ذلك ما يريده سائق سيارتي جاكسون . »

« عندما يضع امرؤ ما القديس مرقص تحت حمل من لحم الخنزير
وُرجعه من الاسكندرية كرة اخرى . »

« لقد كان الذي فعل ذلك غلاماً من تورشيلو . »

« انت غلام من تورشيلو . »

« غلام من نهر بيافتا الادنى ، وغلام من الـ «غرابا»^١ أو من
بيرتيكا . انا غلام من باسوبيو ، ايضاً ، اذا عرفت معنى ذلك . ولقد كان
مجرد العيش هناك اسوأ من القتال في أي مكان آخر . وفي الفصيلة كان
من دأبهم ان يشاركوا فيما امرىء ميكروبه الخاص بمرض السيلان المحمول
من « شيو » ضمن علبة كبريت . وإنما كانوا يقدمون على هذه المشاركة
لا لشيء إلا لكي يصبح في ميسورهم الانصراف ، لأن الاوضاع هناك
كانت لا تطاق . »

« ولكنك بقيت . »

فقال الكولونيل : « من غير ريب . انا دائماً آخر من يغادر الحفلة
الساهرة ، اعني الـ Fiesta ، لا الحزب السيامي^٢ . انا الضيف الذي لا
شعبية له حقاً . »

« هل ترى ان نذهب ؟ »

« حسبتُ انك عقدت العزم على ذلك . »

« لقد فعلت ، ولكنني نقضته حين تحدثت عن الضيف الذي لا

شعبية له . »

« احتفظي به معقوداً . »

١ - الـ grappa مرتفعات جبلية من الألب الشرقي في ايطالية . وبيرتيكا Pertica
موضع في تلك المرتفعات . (المغرب)

٢ - في الاصل تلاعب لفظي لا يمكن نقله الى العربية ، لان لفظة party تعني في الانكليزية
الحفلة الساهرة ، والحزب السياسي ايضاً . اما الـ fiasta فلفظة اسبانية تعني العيد او المهرجا .
(المغرب) .

- « إن في استطاعتي أن ألزم قراراً اتخذته . »
- « أدري . في استطاعتك أن تلزمي أي شيء لعين . ولكنك ،
يا بنيّتي ، لا تفعلين في بعض الأحيان . ان الحمقى هم الذين يلتزمون
قراراتهم دائماً . اذ يتعين على المرء ، أحياناً ، أن يغير موقفه في سرعة . »
- « سوف أغير موقفى إذا شئت أنت . »
- « لا . أنا أحسب ان القرار كان سليماً . »
- « ولكن ألن تكون فترة طويلة الى حد رهيب تلك التي تفصلنا
عن صباح غد ؟ »
- « ذلك كله رهنٌ بما اذا كان المرء محظوظاً ام غير محظوظ . »
. « ان عليّ ان انام نوماً عميقاً . »
فقال الكولونيل : « أجل . في مثل سنك يتعين عليهم ، اذا
استعصى عليك النوم ، ان يخرجوك ويعلقوك على أعواد المشنقة . »
- « اوه ، ارجوك . »
فقال : « آسف . عنيت ان يعدموك رماً بالرصاص . »
- « كدنا نبلغ المنزل ، وفي ميسورك الآن ان تكون دمثاً لو شئت . »
- « إني لأتعلق بأسباب الدمثة الى حدّ يجعلني نتناً . فليأخذ غيري
بأسباب الدمثة . »
كانا قد أمسيا أقام القصر الآن ، وما هو ذا القصر قائماً قبالتها .
ولم يكن ثمة ما يستطيعان عمله الآن ، غير جذب حبل الجرس ، او
الدخول بواسطة المفتاح . لقد استشعرت الضياع في هذا المكان ، كذلك
قال الكولونيل في ذات نفسه ، وانا لم أستشعر الضياع في حياتي قط من قبل .
- « ارجوك ان تقبلني متمنياً لي ليلة طيبة في دمثة . »
وفعل الكولونيل ذلك ؛ ولقد أحبها ، ومن هنا لم يستطع لهذا
الموقف احتمالاً .
وفتحت الباب بالمفتاح ، الذي كان في حقيبتها . ثم توارت عن

البصر ، وُخِلِّفَ الكولونيل وحيداً ، مع الرصيف البالي ، والريح التي
كانت تهب من ناحية الشمال ، والظلال في حيثما ظلت الاضواء مومضة .
وراح يمشي عائداً الى البيت .

ان السياح والعشاق وحدهم يستأجرون الغناديل ، كذلك قال في
ذات نفسه . إلا ابتغاء عبور القناة في المواطن الخالية من الجسور . ان
عليّ ، ربما ، ان اذهب الى حانة هاري ، او الى اي مكان آخر
لعين . ولكني اعتقد اني سأذهب الى البيت .

لقد كان بيتاً حقاً ، اذا كان في الامكان اطلاق هذا الوصف على حجرة في فندق . كانت بيجامته موضوعة على السرير ، وكانت ثمة الى جانب مصباح المطالعة زجاجة من الـ «فالبوليشيلا» ؛ والى جانب السرير كانت زجاجة مياه معدنية في دلو ثلج ، وقد وضعت قريبا فوق الصينية الفضية ، كأس . كانت اللوحة الزيتية قد 'جرّدت من اطارها ونُصبت على كرسيين اثنين بحيث يستطيع ان يرى اليها وهو مضطجع في سريره .

وبجانب وسائده الثلاث كانت الطبعة الباريسية من صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون» . كان يستعمل ثلاث وسائد ، كما عرف آرنالدو ، وكانت زجاجة دوائه الاضافية -- لا تلك التي حملها في جيبه -- موضوعة بجانب مصباح المطالعة . وكانت ابواب الخزانة الداخلية ، الأبواب ذات المرايا ، مفتوحة بطريقة تمكّنه من أن يرى اللوحة من جانب . وكان 'خفّاه اللذان لا عقبين لها على مقربة من السرير .

سوف اشترىها ، كذلك خاطب الكولونيل نفسه اذ لم يكن ثمة شخص آخر غير اللوحة الزيتية .

وفتح زجاجة الفالبوليشيلا التي كان قد نزع سدادتها ، ثم أعاد سدها بالفلين في عناية ، وإحكام ، وحبّ ، وأفرغ لنفسه قدحاً في تلك الكأس التي كانت احسن بكثير من اي واحدة ينبغي لأي فندق يواجه امكانية

الكسر والتحطيم ان يستعملها .

وقال : « اني اشربها على صحتك ، يا بنيقي ، الجميلة الظريفة . هل تعلمين ان بين محاسنك الكثيرة ان ريتاك طيبة دائماً ؟ ان لك لرائحة فاتنة حتى في مَهَبِّ الريح ، او تحت بطانية ، او عندما يقبلك المرء وهو يتمنى لك ليلة طيبة . وانت تعلمين أن هذا شيء لا تقع عليه عند الكثرة الكبيرة من الناس ؛ وانت لا تستعملين ضروب العطر والطيب . » ونظرت اليه من اللوحة الزيتية ولم تقل شيئاً .

فقال : « ليكن ما يكون . إني سأوجه الخطاب الى صورة . » ما الذي اصابه الحثل الليلة ، في ما تحسب ؟ كذلك فكر . انا ، في ما يخيل اليّ . حسناً ، سوف احاول ان اكون ، غداً ، غلاماً طيباً طوال النهار . منذ الحيط الأول من خيوط الفجر . - « بُنيّتي » ، كذلك قال وكان يتحدث اليها الآن لا الى صورة من الصور . « ارجوك ان تثقي انني احبك ، واني اودّ ان اكون رقيقاً وطيباً . وأرجوك ان تبقي الى جانبي ، الآن ، من غير انقطاع . » وكانت اللوحة الزيتية هي هي لم يتغير فيها شيء .

واخرج الكولونيل أحجار الزمرد من جيبه ، ورفا اليها ، وأحس بها تنزلق - باردةً ولكنها برغم ذلك دافئة ، باعتبار أنها توصل الحرارة وباعتبار ان لجميع الحجارة الكريمة حرارتها - من يده المشوهة الى يده السليمة .

« كان يجب عليّ ان أضع هذه الأحجار في ظرف وأن أغلق عليها درجاً من الأدراج ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكن هل ثمة سلامة » خيرٌ من تلك التي أستطيع ان اقدمها اليها ؟ إن عليّ ان اعيد هذه الأحجار اليك سريعاً ، يا بنيّتي .

لقد كانت ، برغم ذلك ، متعةً . وهي لا تساوي اكثر من

١ - هنا موضع لفظة مقذعة محذوفة في الاصل .

ربيع مليون . مبلغٌ ليس في امكاني أن اكسبه إلا في اربعمئة سنة .
إن عليّ أن أدقق في هذا الرقم . »

ووضع احجار الزمرد في جيب بيجامته ، ووضع عليها منديلا . ثم
إنه زبرّ الجيب . إن اول شيء سليم تتعلمه ، كذلك قال في نفسه ،
هو أن تزود جميع جيوبك بالسنة وأزرار . ويخيل اليّ أني تعلمتُ
ذلك على نحو مبكر أكثر مما ينبغي .

وكان ملمس الأحجار حسناً . كانت قاسية دافئة مما يلي صدره
المستوي ، القاسي ، العتيق الدافئ ؛ ولاحظ كيف كانت الريح تهب ،
ونظر الى اللوحة الزيتية وأترع كاساً اخرى من الفابوليشيلا ثم شرع يقرأ
الطبعة الباريسية من صحيفة « نيويورك هيرالد تريبيون . »

إن عليّ أن آخذ الأقراص ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكن
فلتذهب الأقراص الى الجحيم .

ثم إنه اخرجها ، برغم ذلك ، وقابع قراءته صحيفة « نيويورك هيرالد » .
كان يقرأ مقال ريد سميث ، وكان يحبه حباً عظيماً .

واستيقظ الكولونيل قبل انبلاج الفجر ، وتحقق من أن أحداً لم يكن نائماً معه .

كانت الريح لا تزال تهب قوية " عاتية " ، فمضى الى النوافذ المفتوحة ليتحرى حالة الجو . لم يكن ثمة في الشرق ، عبر القنال العظمى ، أيما ضوء ؛ ولكن عينيه استطاعتا ان تريا تلاطم الامواج العنيف . وقال في ذات نفسه : إن المدّ سوف يكون رهيباً ، اليوم . ولعله ان يغرق الساحة كلها . وهذه ، دائماً ، متعة " من المتع . إلا بالنسبة الى الحائث . ومضى الى الحمام ، آخذاً معه صحيفة " هيرالد تريبيون " وريد سميت ، وكأساً من الفالبوليشيلا أيضاً . لعنبا الله ، إني سأكون سعيداً حين يأتيني المايسترو الأعظم بتلك الالفيّات الكبار ، كذلك قال في ذات نفسه . إن هذه الحرة لتصبح كثيرة الثفل في النهاية .

وجلس هناك ، مع صحيفته ، مفكراً في أشياء ذلك اليوم .

انه سوف يتلقى مخابرة تلفونية . ولكن هذا قد لا يتم إلا في ساعة متأخرة ، لأنها سوف تظل نائمة حتى ساعة متأخرة . ان الصبايا لا يستيقظن إلا متأخرات ، كذلك قال في ذات نفسه ، والجميلات يستغرقن في النوم اكثر وأكثر أيضاً . وليس من ريب في أنها لن

تتلفن في ساعة مبكرة ، ولن تفتح الدكاكين أبوابها حتى الساعة التاسعة ،
أو بعد ذلك بقليل .

يا للجحيم ، كذلك قال في ذات نفسه ، ان لديّ هذه الجواهر
اللينة . كيف يستطيع أيما امرئ ان يفعل شيئاً كهذا ؟

ولكنك تعرف كيف ، كذلك قال في ذات نفسه ، وهو يطالع
الاعلانات المنشورة على الصفحة الأخيرة من الصحيفة . لقد رقيت
نفسك ، عدة مرات بشيء مثل ذلك في خط النار . ان هذا ليس
بالأحق او المرصّي . ولقد ارادت هي أن ترقيقك ليس غير . لقد كان
من حسن الطالع ان يقع اختيارها عليّ ، كذلك قال في ذات نفسه .
هذا هو الشيء الحسن الوحيد في كوني منّ أنا ، كذلك فكر .
حسناً ، أنا منّ أنا . على اية حال . ما رأيك في الجلوس على صحيفة
القمامة ، كما قد جلست كل يوم تقريباً من ايام حياتك اللينة ، وهذه
الجواهر في جيبك ؟

انه لم يكن يخاطب احداً ، إلا الذرية ، ربّما .

كم من صباح قعدت في الصيف الطويل مع الآخرين جميعاً ؟
كان ذلك اسوأ ما فيها . هو وحلق الذقن . والا انصرفت لتخلو الى
نفسك ، وتفكر ، أو لا تفكر ، ثم تختار لنفسك مفرزاً صالحاً فتجد
ان رجلين من رجال القدارات قد سبقاك اليه ، او تجد غلاماً ما
مستغرقاً في النوم .

ليس في الجيش خلوة الا بمقدار ما في ...^١ احترافيّ من خلوة .
ان قدمي لم تطلأ^١ ... احترافياً قط ، ولكن يخيل اليّ انه يدار بطريقة

١ - موضع كلمة مقذعة محذوفة في الاصل .

بمائلة الى حد بعيد . لقد كان في ميسوري أن أتعلم كيف ادير واحداً منها . كذلك قال في ذات نفسه .

وعندئذ أعمد الى تعيين جميع شخصياتي ...^١ الرئيسين سفراء ، أما غير الناجحين فاستطيع أن أعينهم قادة للجيش ، او قادة للمواقع العسكرية في زمن السلم . لا تكن لاذعاً ، أيها الغلام ، كذلك قال لنفسه . إن الضحى لما يرتفع بعد ، وإن مهمتك لما تقتته بعد .

ما الذي ستصنعه بزوجاتهم ، كذلك سأل نفسه . اشتر لهم قبعات أو أطلق النار عليهن ، كذلك قال . إن ذلك كله جزء من العملية نفسها .

ونظر الى نفسه في المرآة ، المثبتة في الباب نصف المغلق . فأرته نفسه عند زاوية ضئيلة . انها طليقة زائفة . وانهم لم يسددوا العيار الناري الى ما ورائي ، تسديداً كافياً ، يؤدي آخر الأمر الى اصابتي^٢ .

أيها الغلام ، كذلك قال ، انت من غير ريب نغل بال تبدو عليه امارات الهرم .

والآن يتعين عليك ان تحلق ذقنك وان تنظر الى وجهك وانت تفعل ذلك . ثم يتعين عليك أن تقص شعرك . إن ذلك هين في هذه المدينة . انك كولونيل في سلاح المشاة ، أيها الغلام . وليس في استطاعتك ان تطوف في كل مكان بمظهر اشبه بمظهر جان دارك ، او الجنرال (رتبة تشريف) جورج آرمسترونغ كاستر . ذلك الفارس الجميل . واحسب

١ - هنا موضع لفظة مقذعة محذوفة في الاصل .

٢ - يقصد كما نصيد بطة بأن تشدد العيار الناري الى ما وراءها ، وهي ظاهرة ، حتى يُحسب حساب تحركها بينا يكون العيار في طريقه اليها . (المعرب)

ان من الممتع ان يكون المرء هكذا ، وان تكون له زوجة محبة ، وان يتخذ من النشارة عقلاً . ولكن لا ريب في ان صناعة الحرب بدت وكأنها ليست الصناعة التي 'خلق لها عندما 'قتلوا في تلك الهضبة القائمة فوق «ليتل بينغ هورن» وقد اخذت الافراس القصيرة الجسم تدور حولهم وسط سحابة من الغبار ووسط 'مجمع القصعين الذي سحقته حوافر خيل العدو ، ولم يبق للجنرال ، طوال الأيام الباقية من حياته ، غير تلك الرائحة المستحبة العتيقة التي انبعثت من البارود الأسود ، وجنوده يطلقون النار على بعضهم بعضاً وعلى أنفسهم ، لأنهم كانوا يخشون ما قد يفعله بهم المقاتلون البيض المتزوجون من نسوة هنديات حراوات .

لقد 'شوّهت الجثة تشويهاً لا سبيل الى وصفه ، كذلك كانوا يقولون في هذه الصحيفة نفسها . وعلى تلك الهضبة لتدرك انك ارتكبت غلطة حقيقية ، آخر الأمر والى الأبد وحتى أقصى درجة . يا للفارس المسكين ، كذلك قال في ذات نفسه . تلك كانت نهاية أحلامه كلها . وهذه احدى المحاسن التي ينطوى عليها كون المرء جندياً في سلاح المشاة . إنك لم تعرف في حياتك الأحلام قط ، باستثناء أحلامك المزعجة .

حسناً ، كذلك قال في ذات نفسه ، لقد انتهينا الآن ، ولن تنقضي غير لحظات حتى يتدفق النور ويصبح في ميسوري ان أرى اللوحة الزيتية . سوف اكون ملعوناً اذا طويت هذه . إني سأحتفظ بها .

يا للمسيح ، كذلك قال ، ليت شعري كيف تبدو الآن وهي مستغرقة في النوم ؟ أنا اعرف كيف تبدو ، كذلك قال في ذات

نفسه . رائعة . إنها تمام وكأنها لم تستسلم للنوم . وكأنها تمخّدت الى
الراحة ليس غير . انا أرجو ان تكون هكذا ، كذلك قال في ذات
نفسه . أرجو ان تكون ناعمة بالراحة حقاً . يا ليسوع المسيح ،
لشدّ ما أحبها وأتمنى أن لا أؤذيها أبداً الدهر .

وحين شرعت الشمس ترسل خيوطها رأى الكولونيل اللوحة الزيتية .
ولعله رآها ، في اغلب الظن ، بمثل السرعة التي يرى بها أيما رجل
متمدن يتعين عليه ان يطالع وان يوقع الناذج التي لم يكن يؤمن بها ...
أقول بمثل السرعة التي يرى بها أيما رجل متمدن شيئاً من الاشياء ، حالما
يتبدى ذلك لناظره . اجل ، كذلك في ذات نفسه ، إن لي عينين ،
وانها لا تزالان قادرتين على الادراك السريع الى حد غير يسير ، ولقد
كان لها ذات يوم طموح . ولقد قدتُ رجالي الأجلاف الى حيث أمطروا
بالرصاص . ان ثلاثة فحسب ، من أصل مجموعهم البالغ عدده مئتين
وخمسين رجلاً ، لا يزالون على قيد الحياة ، ولقد قصدوا الى اقصى البلدة
ليستندوا اكف المحسنين بقية عمرهم .

وقال للوحة الزيتية : هذا من شكسير . الفائز والبطل الذي لا
منازع له .

ان امرءاً ما قد يقهره ، في نزال قصير . ولكني أوثر أن أجله
وأجتهده . هل قدّر لك أن تقرأي « الملك لير » ، يا بُنيتي ؟ لقد
قرأها مستر « جين ثاني » ، Gene Tunney ، ولقد كان بطل العالم . ولكني

أنا قرأتها ايضاً . ان الجنود يعنون بمستر شيكسبير ايضاً ، برغم ان ذلك قد يبدو مستحيلاً .

أليس لديك ما تدافعين به عن نفسك غير ردّ رأسك الى الوراء ؟ كذلك سأل اللوحة الزيتية . هل تريد مزيداً ، يا شيكسبير ؟

انك في غير ما حاجة الى الدفاع . ليس عليكِ الا ان تستريحى وتُبقي كل شيء على حاله . انه عمل لا غناء فيه . ودفاعك ودفاعي مجرد عبث لا طائل تحته . ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقول لك أن تمضي وتشنقي نفسك كما تفعل نحن ؟

لا احد ، كذلك قال لنفسه وللوحة الزيتية . من الراهن ان هذا الشخص ليس هو أنا .

وخفض يده السليمة ووجد نادل الحجرة قد ترك زجاجة فالبوليشيلا ثانية في محاذاة المكان الذي كانت فيه الزجاجة الاولى .

اذا احببت بلاداً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، فيحسن بك أن تعترف بذلك أيها الغلام .

لقد احببت ثلاثاً وفقدتها ثلاث مرات . كن منصفاً . لقد استردّينا اثنتين . ثم صحح خطأه فقال : استردّينا .

ولسوف نسترد الثالثة ، الجنرال فرانكو البدين على متن زورق صيده ، مزوّداً بنصيحة طبيبه وببطّة الداجن وبدرية من الفرسان المغاربة حين يطلق النار .

— « اجل » ، كذلك قال في رقة للفتاة التي نظرت اليه في وضوح ، الآن ، على هدي اول النور وأحسنه .

سوف نسترد ذلك ولسوف يُشنقون كلهم ، رأساً على عقب ، خارج محطات البنزين ، ثم اضاف : لقد حذّرتكم .

ثم قال : « أيتها اللوحة الزيتية ، لماذا بحق الجحيم لا تستطيعين أن

تضطجعي مني في السرير بكل بساطة بدلاً من أن تكوني على مبعدة ثمانى عشر بلاطة صلبة عني ؟ انا لم أعد الآن لاذعاً بقدر ما كنت من قبل في اي وقت . »

« ايتها اللوحة الزيتية ، ، كذلك قال للفتاة ، وللوحة معاً ؛ ولكن لم يكن ثمة اية فتاة وكانت اللوحة الزيتية مرسومة كما كانت .

« ايتها اللوحة الزيتية ، أبقى ذقنك اللعينة مرفوعة بحيث تستطيعين أن تفتري فتاوي في سهولة أعظم . »

لقد كانت من غير ريب هدية طريفة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

« هل تستطيعين ان تناوري ، ، كذلك سأل اللوحة الزيتية ، « في اجادة وسرعة . »

ولم تقل اللوحة شيئاً فأجاب الكولونيل : أنت تعلم جيداً أنها قادرة على ذلك .

ولقد بزّتك في فن المناورة في الكثرة العظمى من أيام حياتك ، وخلقيت بها ان تمكث وتقاتل ، حيث تكون انت منصرفاً الى عبثك الوضع ، وان تفعل ذلك في حصافة بالغة .

وقال : « ايتها اللوحة . غلاماً كنتِ أو بنتاً أو حيي الحقيقي الوحيد أو أي شيء آخر . انتِ تعرفين ما هو ، ايتها اللوحة . »

ولم تجب اللوحة ، شأنها من قبل . ولكن الكولونيل ، الذي عاد الآن جنراً من جديد ، في تلك الساعة المبكرة من الصباح وفي الوقت الوحيد الذي عرف معرفة جيدة ، وقد احتسى شراب الفالبوليشيلا ، ادرك ادراكاً قاطعاً وكأنه قد قرأ « فاسيرمان » للمرة الثالثة منذ لحظات ، انه لم يكن ثمة في اللوحة اي ... ١ ، واستشعر الخجل لتحديثه الى

١ - هنا موضع كلمة مقذعة محذوفة في الاصل الانكليزي ايضاً . (العرب)

اللوحة بمثل هذا الحديث اللاذع .

- « سوف اكون احسن غلام لعين قدّر لك ان تربيته اليوم . وفي استطاعتك ان تخبري رئيسك ذلك . »

ولكن اللوحة ، كدأبها دائماً ، ظلت صامته .

لعلها ان تتحدث الى فارس في سلاح الفرسان ، كذلك قال الجنرال ، ذلك بأنه كان الآن ذا نجمتين ، ولقد صرّفت نجومه على كتفيه وتبدّت بيضاء أمام الحمرة الغامضة الناصلة على اللوحة المعدنية التي في مقدمة سيارة « الجيب » . إنه لم يستعمل سيارات القيادة قط ، ولا العربات نصف المصفحة المتممة بأكياس الرمل .

وقال : « الى الجحيم بك ، أيتها اللوحة ، أو اطلبي مقعدك الكنسي من قسيسنا الكونيّ كلنا ، نحن المؤمنين بأديان مشتركة . ان عليك ان تكوني قادرة على العيش من هذه السبيل . »

فقلت اللوحة ، من غير أن تتكلم : « الى الجحيم بك ، أيها الجندي ذو الدرجة الوضيعة . »

- « اجل ، » كذلك قال الكولونيل ، ذلك بأنه كان الآن كولونيلاً كره أخرى ، وتخلّى عن رقبته السابقة كلها .

- « انا احبك ، أيتها اللوحة ، حباً عظيماً . ولكن لا تخاشيني . انا احبك حباً عظيماً لأنك جميلة . ولكني احب الفتاة اكثر . مليون مرة اكثر ؛ أسمعت ؟ »

ولم يكن ثمة أية أمانة تفيد انها سمعت . وهكذا سئما وملها . وقال : « أنت تلزّمين موقفاً ثابتاً . سواء أكنت من غير إطار أو ضمن إطار ما . وإني لأعترم أن أتاور . »

كانت اللوحة الزيتية صامته كصمتها منذ أن حملها بواب الفندق الى الحجرة ، وجلاها للكولونيل والفتاة ، يعاونه النادل الثاني على ذلك . ونظر الكولونيل اليها ، ورأى ان من المتعذر الدفاع عنها ، بعد

أن أصبح الضياء غامراً أو شبه غامر .
لقد رأى ، أيضاً ، أنها كانت صورة حبيبته الغالية ، ومن اجل ذلك قال :
« آسف لكل ما تلفظتُ به من حماقات ، أنا لا أودّ أبد الدهر ان اكون
وحشياً . ولعل في ميسورنا كلينا ان تنام برهة قصيرة ، مع الحظ ،
وعندئذ ربما عمدت سيدتك الى الاتصال التلفوني بي . »
ومن يدري ، فلعلها أن تأتي لزيارتي أيضاً ، كذلك قال في ذات
نفسه .

دفع حاجب الردهة صحيفة الـ غازيتينا، تحت الباب ، فتلقّاها الكولونيل ، من غير ان يحدث ضجة ما ، حالما مرّت ، او كادت ، من خلال الشّق .

لقد نثرها ، تقريباً ، من يد حاجب الردهة . ولم يكن يحبّ حاجب الردهة ، بسبب من انه فاجأه ، ذات يوم ، وهو يعبث بمحتويات حقيبته ، عندما عاود هو - الكولونيل - دخول الحجرة بعد أن غادرها ، مبدئياً ، لفترة قصيرة من الزمان . كان قد انقلب عائداً الى الحجرة لكي يجيء بزجاجة عتّاره ، التي كان قد نسيها ، فإذا به يجد حاجب الردهة ماضياً في العبث بمحتويات حقيبته .

- « احسب انكم ، في هذا الفندق ، تهددون الناس ابتغاء سلبهم . » كذلك كان الكولونيل قد قال . « ولكنك لست بمفخرة لمدينتك . » وكان الرجل ذو الوجه الفاشستي والصُدرة المخططة قد اعتصم بالصمت فقال الكولونيل : « تابع ، ايها الغلام ، عبثك بسائر المحتويات . أنا لا احمل اسراراً عسكرية مع ادوات زينتني . »

ومنذ ذلك الحين أصبح بينهما ودّ مفقود ، واستمتع الكولونيل بمحاولة نثر الصحيفة الصباحية من يد الرجل ذي الصدرة المخططة ، في غير

ما ضجة ، كلما سمعها او رآها تتحرك اول ما تتحرك تحت الباب .
- « أو . كي . لقد كسبت اليوم ، أيها الغرّ الحقير ! » . كذلك قال
بأحسن لهجة فينيسية استطاع أن يصطنعها في تلك الساعة . « اذهب
واشوق نفسك ! »

ولكنهم لا يشنقون انفسهم ، كذلك قال في ذات نفسه . كل ما
عليهم ان يفعلوه هو الاستمرار في وضع الصحف تحت أبواب الناس
الآخرين الذين لا يضمرون لهم حتى البغض . ان كون المرء « فاشستياً
سابقاً » لا بدّ ان يكون مهنة عسيرة جداً . ولعله أن لا يكون
« فاشستياً سابقاً » . ما يُدريك ؟

أنا لا استطيع أن أبغض الفاشستين ، كذلك قال في ذات نفسه .
حتى ولا النمساويين ، ما دمت - لسوء الطالع - جندياً .
وقال : اسمعي ، أيتها اللوحة . هل يتعين عليّ أن أبغض النمساويين
لأننا نقتلهم ؟ هل يتعين عليّ أن أبغضهم كجنود ومخلوقات بشرية ؟
ان هذا يبدو لي حلاً يسيراً أكثر مما ينبغي .
حسناً ، أيتها اللوحة . إنسي ما قلت . إنسي ما قلت . أنت لم
تبلغني من السن مبلغاً يمكّنك من معرفة شيء عن ذلك . انت أصغر
بستين من الفتاة التي تمثلينها ، وهي اصغر سناً واكبر سناً من الجحيم
... والجحيم مكان بالغ العتيق والقديم .

- « اسمعي ، أيتها اللوحة ، » كذلك قال . وفيما هو يقول هذه
الكلمات ادرك انه سوف يكون لديه الآن ، ما امتدّت به الحياة ،
شخصٌ يستطيع أن يتحدث اليه في ساعات الصباح المبكرة التي يفتق
من نومه خلالها .

- « كما كنت أقول ، أيتها اللوحة . الى الجحيم بهذا أيضاً .
وهذا ايضاً شيء لم تبلغني من السن مبلغاً يمكّنك من معرفته .
إنه أحد الأشياء التي لا يستطيع المرء ان يقولها مها تكن صحيحة .
وهناك جمهرة من الاشياء لا يستطيع ابد الدهر ان اقولها لك ، وربما

كان ذلك خيراً لي . انها عن عهد مضي تقريباً .. ما الذي تحسبينه خيراً لي ، أيتها اللوحة ؟ »

— « ما خطبك ، أيتها اللوحة ؟ وكذلك سألتها . هل بدأت تحسن بالجوع ؟ أنا بدأت احس به . »

وهكذا رنّ الجرس للنادل ليكلفه بالاثيان بطعام الصباح .

لقد عرف انه لن يكون ثمة الآن — برغم سطوع الضياء الى حدّ تجلّت معه كل موجة من موجات القناة العظمى ، رصاصية اللون ثقيلة عارمة مع مجرى الريح ، وبرغم ان المدّ ارتفع الآن فغمر درجات « مهبّط » القصر القائم قبالة حجرته مباشرة — اقول لقد عرف انه لن يكون ثمة اي اتصال تلفوني قبل عدة ساعات .

إن الذين لا يزالون في مستقبل العمر ينامون نوماً عميقاً ، كذلك قال في ذاته نفسه . إنهم أهل لذلك .

— « لماذا يتحتم علينا ان نشيخ ؟ » كذلك سألت النادل الذي كان

قد اقبل بعينه الزجاجية وبلائحة الطعام .

— « لست ادري ، يا زعمي . انا احسب أنها عملية طبيعية . »

— « اجل . يخيّل اليّ اني اظن ذلك ايضاً . بضغ بيضات مقلوة

منتفخة الوجوه . وشيء من الشاي والخبز المحمص . »

— « الا تريد شيئاً اميركياً ؟ »

— « الى الجحيم بكل ما هو اميركي ما عداي ! هل افاق المايسترو

الأعظم من نومه ؟ »

لقد جاءك شراب فالبوليشيلا في ألفيات كبيرة مطوقة بأغصان

مجدولة ، تسع كل منها ليترين . ولقد حملت اليك هذه الزجاجاة

معها . . »

— « هذه ؟ » كذلك قال الكولونيل . « لشد ما اتمني لو استطيع أن
أقدم اليه فرقة عسكرية . »
— « لست احسب انه راغب ، فعلاً ، في واحدة . »
فقال الكولونيل : « لا . وانا ايضاً غير راغب ، فعلاً ، في واحدة . »

وتناول الكولونيل فطوره بمثل أداة مصارع تلقى ضربة قاسية ،
فهو يسمع لفظة «اربعة» ويعرف كيف يسترخي استرخاء حسناً طوال
خمس ثوان اخرى .

وقال : « ايتها اللوحة ، يتعين عليك انت ايضاً ان تسترخي . ذلك هو
الشيء الوحيد الذي سيكون عسيراً في أمرِك . ذلك ما يدعونه العامل
السكوني في فن الرسم . انت تعرفين ايتها اللوحة أنه يكاد لا يكاد ثمة
أية صُور ، او على الاصح أية لوحات زيتية ، تتحرك بأية حال . إن
قلة منها لتتحرك . ولكن ليس كثرتها الكبيرة .
« إني لأتمنى لو كانت سيدتك هنا ، ولو كان في ميسورنا ان نتمتع
بالحرية . كيف تقوى الفتيات اللواتي يشبهنك ويشبهنّها على معرفة
هذه الأشياء كلها وهن في مثل هذه السن الغضة ، ثم يكنّ فوق ذلك
فاتنات الى هذا الحد ؟

« عندنا نحن ، اذا كانت فتاة ما فاتنة حقاً تكون من بنات تكساس ،
ولربما استطاعت ، اذا اسعفها الحظ ، أن تنبئك في أي شهر نحن .
إن في استطاعتهم جميعاً ، برغم ذلك ، أن يحسنّ العدّ .

« انهم يعلمونهم كيف يعدّدون وكيف يبقين ارجلهم متلاصقات
وكيف يرفعن شعرهن مموّجاً الى أعلى بواسطة الدبابيس . إن عليك
في بعض الاحيان ، ايتها اللوحة ، من أجل آثامك - ان كانت لك أية

آثام - ان تضطجع مع فتاة رفعت شعرها متموجاً الى اعلى بواسطة
الدبابيس لكي تكون جميلة غداً ، لا الليلة . انهن لا يبنين ابداً أن يكن
الليلة جميلات . فالحق انهن يفعلن ذلك كله من أجل الغد ، حين 'ننجري
المباراة .

« ان الفتاة ، ريناتا ، التي أنتِ هي ، لثائمة الآن من غير ان تفعل
بشعرها أيما شيء البتة . إنها ثائمة وقد استرسل شعرها على الوسادة ،
وكله بالنسبة اليها لا يعدو أن يكون ازعاجاً حريباً ماجداً داكناً بحيث
لا تكاد تتذكر كيف تسرحه لولا أن مرييتها قد علمتها ذلك .

« اني لأراها في الشوارع وهي تخطو رشيقة طويلة الساقين وقد عبثت
الريح بشعرها ما شاء لها العبث ، وقد نهت ثدياها الحقيقيان تحت الكنزة ،
ثم ا تذكر الليالي في تكساس والفتيات بدبابيسهن المموجة للشعر واجسامهن
المشدودة بالأدوات المعدنية والمخضعة لها . »

وقال للوحة الزيتية : لا تصطنعي من اجلي دبابيس لتمويج الشعر ،
يا حبيبتي .

ان عليّ ان لا اكون لاذعاً ، كذلك قال في ذات نفسه .
ثم انه قال للوحة ، ذلك بأنه فكر فيها ، الآن ، بوصفها نكرة
لا معرفة : « انك ذات جمال لعين الى حد يجعلك ثنتين . ثم انك
طعم سجن أيضاً . ان ريناتا اكبر منك بسنتين الآن . انتِ دون السابعة
عشرة . »

ولماذا لا استطيع ان افوز بها ، واحبها ، وادللها ، وان لا اكون
لا لاذعاً ولا شريراً ، وان انجب الاولاد الخمسة الذين سوف يمضون الى
زوايا العالم الخمس ؛ ايا ما كان معنى ذلك ! لست ادري . يخيل الي ان
ورق اللعب الذي نسجه هو الورق الذي بين أيدينا . انتِ لا تحب ان
تعيد توزيع الورق ، أليس كذلك ايها الموزع ؟

لا . انهم يوزعون الورق لك مرة واحدة ، وعندئذ تتلقف انت اوراقك وتلعب بها . ان في استطاعتي ان العب بها ، اذا ما سحبت^١ أيما اوراق منها تكن ، كذلك قال للوحة الزيتية ، التي ظلت جامدة لا تبين عليها اي اماراة من أمارات التأثر .

وقال : « ايتها اللوحة . من الخير لك ان تنظري الى الناحية الأخرى بحيث لا تكونين غير عذرية . اني سوف اقف تحت الدش الآن واحلق لحيتي ، وهو شيء لن تضطري ابد الدهر الى صنعه ، وسأرتدي بذلي العسكرية وامضي واطوِّف في هذه المدينة مشياً على القدمين حتى في مثل هذه الساعة المبكرة من النهار . »

وهكذا غادر السرير ، مُحَابِياً^٢ رجله المصابة التي كانت تؤلمه دائماً . لقد اطفأ مصباح المطالعة بيده المشوهة . كان ثمة ضوء كافٍ ، وكان قد هدر الطاقة الكهربائية طوال ساعة تقريبا .

وندم على ذلك كما ندم على جميع اخطائه . ومشى متخطياً^٣ اللوحة الزيتية غير ناظر اليها إلا في لا مبالاة ، ورأى الى نفسه في المرآة . وكان قد خلع جزأي بيجامته ، ونظر الى نفسه نظرة انتقادية صادقة . وقال للمرأة : « ايها النغل العجوز المضحى ! » كانت اللوحة الزيتية شيئاً من اشياء الماضي . وكانت المرآة واقعا^٤ ، ومن بنات هذا اليوم . ان الامعاء مسطحة ، كذلك قال من غير ان يلفظ الكلمات . والصدر لا غبار عليه ، باستثناء ذلك الجزء الذي يشتمل على العضلة المعتلة^٥ . اننا نُشْتَقُّ على الطريقة التي نُشْتَقُّ بها ، على أية حال ، أو بأية طريقة

١ - يقصد قلبه الضعيف . (المعرب)

رهيبة اخرى .
لقد بلغت من العمر نصف قرن ، ايها النغل الزنيم . والآن ادخل
الحمام وخذ دُشّاً ، وافرك جلدك جيداً وبعد ذلك البس سترتك
العسكرية . ان هذا اليوم هو يوم آخر .

ووقف الكولونيل عند منضدة الاستقبال في الردهة ، ولكن البواب لم يكن قد اقبل بعد . كان ثمة بواب الليل ليس غير .

— « هل تستطيع ان تضع لي شيئاً في الصندوق الحديدي ؟ »
 — « لا يا زعمي ، ان احداً لا يستطيع ان يفتح الصندوق الحديدي »
 ما لم يأت المدير المساعد أو البواب على الأقل . ولكني مستعد لأن اصون لك ايما شيء ترغب في صيانتة . »

— « شكراً . ليس ثمة ما يستحق مثل هذا العناء . » قال هذا ووضع غلافاً من غلافات فندق غريتي كانت احجار الزمرد في جوفه (وكان الغلاف موجهاً اليه هو) داخل جيب سترته العسكرية الايسر ثم زرّ الجيب عليه .

وقال بواب الليل : « ليس هنا ، اليوم ، اية جرائم حقيقية . »
 كان ليله ليلاً طويلاً ، ولقد سرّ ان يتحدث الى ايما امرئ : « ولم يكن هنا ، في ايما يوم من الايام ، اية جرائم حقيقية ، يا زعمي . ليس هنا غير خلاقات في الرأي والسياسة . »

— « وما مذهبك في السياسة ؟ » كذلك سأله الكولونيل ، ذلك بأنه كان يستشعر هو ، ايضاً ، وخشة وسأماً .

— « ما قد تتوقعه تقريباً . »

— « فهمت . وما مدى النجاح الذي احرزه جماعتك ؟ »

- « اعتقد انهم سائرون في طريق النجاح . ربما ليس بمثل السرعة التي ساروا بها في العام الماضي . ولكنهم يتقدمون بخطى ثابتة . لقد قهرنا من قبل ، ويتعين علينا أن نتنظر ، الآن ، فترة ما . »

- « وهل تعمل في السياسة ؟ »

- « ليس كثيراً . انها عندي سياسة قلبي اكثر منها سياسة عقلي . أنا اؤمن بها بعقلي ايضا ، ولكن درايتي السياسية ضئيلة جداً . »

- « حين تم الدراية السياسية لأمريء لا يبقى له ايما قلب . »

- « ربما كان هذا صحيحاً . أليكم سياسة في الجيش ؟ »

فقال الكولونيل : « لدينا كثير . ولكن ليس من ذلك الضرب الذي تعنيه انت . »

- « حسناً ، من الخير لنا ان لا تناقشها اذن . انا لم اقصد أن اكون متطفلاً . »

- « لقد طرحتُ انا السؤال ، السؤال الاصيلي على الأصح . وكان ذلك مجرد التحدث . انه لم يكن استنطاقاً . »

- « لست احسب انه كان كذلك . فليس لك ، يا زعمي ، وجه مستنطق . وانا أعرف اشياء عن «المنظمة» برغم اني لست عضواً فيها . »
- « قد تكون مادة عضو . سأتابع النظر في هذه المسألة مع المايسترو الأعظم . »

- « نحن من بلدة واحدة ، ولكن من حيتين مختلفين . »

- « انها بلدة طيبة . »

- « يا زعمي ، انا من ضالة الدراية السياسية بحيث أحسب جميع الشرفاء شرفاء . »

فقال له الكولونيل مؤكداً : « اوه ، سوف تتغلب على هذه الصعوبة . لا تقلق ، ايها الغلام . ان عندكم حزباً فتياً . وطبيعي ان تقترفوا

بعض الاخطاء . »

- « ارجوك ان لا تتكلم هكذا . »

- « لقد كان مجرد فراغ لاذع يُرسل في ساعات الصباح الاولى . »

- « قل لي ، يا زعيمى ، ما هو رأيك الحقيقى فى تيتو ؟ »

- « ان لى آراء كثيرة فيه . ولكنه جارى الأدنى . ولقد وجدت من

الخير لى ان لا اتحدث عن جارى . »

- « انى احب ان اتعلم . »

- « اذن تعلم ذلك بالطريقه القاسية . ألا تعلم ان الناس لا يحبون

عن اسئلة كهذه ؟ »

- « كنت رجوت ان يفعلوا . »

فقال الكولونيل : « انهم لا يفعلون . وبخاصة اذا كانوا فى مثل مركزى .

كل ما استطيع ان اقله لك هو ان مستر تيتو يواجه مشكلات كثيرة . »

- « حسناً ، انا اعرف ذلك الآن احسن معرفة ، » كذلك قال حاجب

الليل الذى كان فى الواقع مجرد غلام .

فقال الكولونيل : « أرجو ذلك . انا لا ازعم ان هذه المعرفة درة

مكتونة . والآن ، طاب يومك ، اذ يتعين على ان اتمشى قليلاً لمصلحة
كبدى او شىء آخر . »

- « طاب يومك ، يا زعيمى » Fa brutto tempo

فقال الكولونيل : « Bruttissimo » وشدة حزام بمطره شداً محكماً ،

مسوياً إياه حول المنكبين منزلاً أطرافه الى أدنى ، وغادر الفندق
مندفعاً نحو الريح .

وركب الكولونيل متن غندول العشرة سفتيات عبر القنال ، دافعاً الورقة النقدية القدرة المعتادة ، راقفاً وسط حشدٍ من أولئك الذين حكم عليهم الدهر بأن يفيقوا من نومهم باكراً .

والتفت الى «الغريتي» فرأى نوافذ حجرة ؛ كانت لا تزال مفتوحة . لم يكن ثمة أيما وعدٍ بهطول المطر ، أو وعيدٍ به ؛ لا ، كان ثمة نفس الريح الباردة ، القوية ، العاتية ليس غير ؛ الريح الهابّة من ناحية الجبال . وبدأ كل من على متن الغندول مقروراً وقال الكولونيل في ذات نفسه : لشدّة ما أتمنى لو أستطيع أن اوزع هذه السترات الواقية من الريح على ممتطي الغندول جميعاً . يا إلهي ، وكل ضابط قدّر له أن يرتدي واحدة منها يعرف انها لا تحول دون تسرّب الماء ومن الذي جنى الثروة الطائلة من وراء ذلك .

انك لا تستطيع أن تتقيّد الماء من خلال سترة من سترات «بوربيري» . ولكنني احسب ان لأحد الرجال الحقيرين البارعين غلامه ، الآن ، في «غروتون» ، او ربما في «كانتربوري» حيث يذهب غلمان المقاولين الكبار بسبب من ان ستراتنا ترشح .

وما حلّ بزميلي الضابط الذي اختص معه ؟ واني لأتساءل من كان «بيني مايرز» قوات البر ؟ ولعله لم يكن ثمة شخص واحد ليس غير . واغلب الظن ، كذلك قال في ذات نفسه ، أنه كان ثمة كثير

من هؤلاء بلا ريب . إن تحدّثك على هذا النحو ، وبكل بساطة ،
ليفيد انك لم تتفق من رقادك بعد . فهي تقي ، برغم ذلك ، من الريح .
الماطر ١ اعني . الماطر يا حماري .

واندفع الغندول بين الدعامتين القائمتين عند الضفة القصوي من القناة ،
وراقب الكولونيل القوم المتشحين بالسواد يغادرون العربية المطلية باللون
الأسود . أهى عربية حقاً ؟ كذلك قال في ذات نفسه . أم ان العربية لا
بد لها من عجلات ومن أن "تجرّ" على خط حديدي ؟

ان ايما امرئ لن يشتري أفكارك هذه بينس واحد ، كذلك قال
في ذات نفسه . ليس في هذا الصباح . ولكني رأيتها من قبل تساوي
مقداراً ما من المال عندما شحّت «فيشات» اللعب .

ونقذا الى الجانب الأقصى من المدينة ، الجانب الذي واجه ، آخر
الأمر ، شاطئ البحر الأدرياتي ، والذي كان هو يؤثره بالحب . وكان
يسير في احد الأزقة الضيقة ، وكان يعتزم ان لا يتتبّع ارقام الشوارع
الشمالية والجنوبية ، اذا جاز التعبير ، التي اجتازها وأن لا يحصي الجسور
ثم يحاول ان يوجّه نفسه بحيث ينتهي الى السوق من غير ان يجد نفسه في
بعض الطرق غير النافذة .

كانت لعبة تلعبها ، كما تعود بعض الناس ان يلعبوا «الكافيلد» ٢
المزدوج او أياً من ألعاب الورق التوحّدية . ولكنها تتميز بتحريكك
وأنت تقوم بها . وبأنك تنظر خلالها الى البيوت ، والى الشوارع التي
تكتنفها الاشجار من جانبيها ، والى البكاكين ، والى المطاعم Trattorias
والى قصور «البندقية» العتيقة فيما أنت تمشي . واذا كنت تحب مدينة

١ - جمع مطر ، وهو المعطف الواقى من المطر ،

٢ - لعبة ورق يلعبها لاعب واحد . (المعرب) .

البندقية فليس من ريب في أنها لعبة ممتازة .

انها ضرب من «التجول المتوحد» ، وما نكسبه منه هو ابتهاج عينك وفؤادك . فإذا ما انتهيت الى السوق ، على هذا الجانب من المدينة ، من غير أن تجد نفسك في وضع حرج فعندئذ تكون قد كسبت الجولة . ولكن عليك ان لا تجعلها سهلة اكثر مما ينبغي ، وأن لا تعدّ البتة .

وعلى الجانب الآخر من المدينة كانت اللعبة تقتضيه أن يبدأ التجول من فندق غريتي وان يصل الى «الريالتو» من طريق «الفوندامانت نووف» Fondamente Nuove من غير ان ترتكب اي خطأ .

وعندئذ كان في استطاعتك ان تتسلق الجسر ، وان تعبره ، وتهبط الى السوق . لقد أحب السوق اكثر من اي شيء آخر . كان هو اول موطن يقصد اليه كلما زار مدينة من المدن .

وفي تلك اللحظة بالذات سمع الشابين خلفه يتحدثان عنه . لقد عرف ، من صوتهما ، انها كانا شابين ، ولم يلتفت الى الورا ، ولكنه أصغى في انتباه بسبب من المسافة الفاصلة ، وانتظر ريثما يبلغ المنعطف المثالي لكي يراها في ما هو منعطف حوله .

انها ماضيان الى عملها ، كذلك قرر في ذات نفسه . لعلها فاشيستيان سابقان ، او ربما كانا شيئاً آخر ، ومن يدري فلعلمها لا يتكلمان إلا عن قوة الجيش الضاربة . ولكنهما ينقلان حديثها الآن من العموم الى الخصوص . انه لم يعد يدور على الاميركيين فحسب ، وانما اخذ يتناولني انا ايضاً ، انا نفسي : شعري الأشيب ، ومشيتي الظالعة بعض الشيء ، والحذاء العسكري العالي العنق . (ان هذا الضرب من الناس يكره الصفة العملية التي تتميز بها الاحذية العسكرية ذات الاعناق العالية . انهم يؤثرون الاحذية التي ترن على بلاط الشارع والتي تلمع بصقال

أسود متوهج .)

ان نقدهما لينصبّ على بذلتي العسكرية زاعمين انها خلوة من الكياسة . وها هما يعبران بعد ذلك عن اطمئنانها المطلق الى سلامتهما لأنني تجاوزت السن التي يتزع فيها المرء الى الأخذ بأسباب الغزل والحب . وانعطف الكولونيل انعطافاً حاداً عند الزاوية التالية ، مدركاً ما الذي كان ينتظره والمسافة التي كانت تفصله عنهما على وجه الضبط . وحين انعطف الشبان حول الزاوية التي شكلها « قبا »^١ apse كنيسة الـ « فراري » Frari كان الكولونيل قد توارى عن البصر . كان قد انتهى الى الزاوية غير النافذة ، خلف « قبا » الكنيسة العتيقة ؛ وفيها هما يجتازانه سمعها يقبلان ، من صوتهما ، فأسرع في مشيه واضعاً كلتا يديه في جيبي منظره الخفيضين واستدار هو والمطر نحوهما ، ويداه الاثنتان في الجيبين .

ووقفاً ، فنظر اليهما كليهما في الوجه ، وابتسم ابتسامته الحدادية العتيقة البالية . ثم انه خفض بصره الى اقدامهما ، كما تنظر دائماً الى أقدام امثالهما من الناس ، إذ انهم ينتعلون احذية شديدة الضيق ، فإذا ما خلعت احذيتهم تلك رأيت اصابعهم المشوّهة بحكم الالتواء الزاوي . وبصق الكولونيل على الرصيف ، ولم يقل شيئاً .

ونظر كلاهما اليه ، فقد كان كما ظنهما منذ اللحظة الاولى ، في حقد وفي ذلك الشيء الآخر . ثم انهما انطلقا مثل « دجاجات الوادي » ، ماشيين بمثل خطى «مالك الحزين» الواسعة ايضاً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وبشيء من طيران الكروان ، وملتفتين الى الوراء في كراهية ، منتظرين ان يطلقا الكلمة الأخيرة اذا ما كانت المسافة مواتية . من المؤسف انها لم يكونا عشرة ضد واحد ، كذلك فكر الكولونيل .

١ - الموضع المدور او المتعدد الجنبات عند الطرف الشرقي من كنيسة . (المغرب)

ولقد كان من الجائز عندئذ ان يعمدوا الى القتال . ان عليّ ان لا الوصيا ،
ذلك بأن جماعتها قد هزمت في الحرب .

ولكن مسلكتها لم يكن صالحاً البتة بالنسبة الى رجل في رتبتي
وسني . والى هذا فلم يكن من الذكاء ان يظننا ان جميع الكولونيلات
البالغين من العمر خمسين عاماً لا يفهمون لغتها . لا ، ولم يكن من الذكاء
ان يظننا ان الجنود القدامى في سلاح المشاة لن يقاتلوا في مثل هذه
الساعة من الصباح بهذه النسبة البسيطة ، نسبة اثنين ضد واحد .

اني لأكره أن اقاتل في هذه المدينة التي أحب أهلها . وخليقي بي
ان أتفادى ذلك . ولكن ألم يكن في ميسور هذين الشابين الرديهي
الثقافة ان يدركا بأي ضرب من الحيوان كانا يحتكان ؟

ألا يعرفان كيف يتعين على المرء ان يمشي في تلك الطريق ؟ ألا يعلمان
فوق ذلك ، أياً من تلك الأمارات الأخرى التي يتكشف عنها المقاتلون
تكشفاً لا لبس فيه كما تنبئك يدا صياد السمك انه صياد سمك من
الأخايد الناشئة عن الجراح التي يحدثها الخيط فيها ؟

صحيح انها لم يريا غير ظهري ورجليّ وخذائي . ولكنك قد تعتقد
أنها ربما حزرا من الطريقة التي يتعين على المقاتلين ان يصطنعوها في
المشي . ومن يدري ، فلعل المقاتلين ما عادوا يصطنعون تلك الطريقة .
لا ، لقد حزرا ذلك عندما أتيج لي ان التفت اليها وافكر . إقتلح
الرجلين كليهما واشنقهما ، فأنا اعتقد أنها فيها . لقد فيها في وضوح بالغ .

وكم تساوي حياة المرء على اية حال ؟ عشرة آلاف دولار اذا كانت
قيمة تأمينه مدفوعة كلها في جيشنا . ولكن ، يا للجحيم ، اية
علاقة لهذا بما انا فيه ؟ اوه ، نعم ، لقد كانت ذلك هو الموضوع الذي
استغرقت في التفكير فيه قبل ان يبرز الغيران الحقيران . ما اضخم
الاموال التي وفرتها على حكومتي ، في زماني حين كان رجال من مثل

بيني مايرز في المذود .

أجل ، كذلك قال ، وكم خسرتها في الـ «شاة» ، في ذلك العهد ،
بمعدل عشرة جنيهات لكل جندي . حسناً ، ان أحداً لم يفهم ذلك
البتة فهماً حقيقياً باستثنائي أنا ، في ما أحسب ، وليس ثمة ما يدعو
الى إنبائهم بذلك الآن . فقائلك العام يدون الأشياء ، في بعض الاحيان ،
بوصفها «ثروات حرب» . وهناك في الجيش يعرفون ان امثال هذه
الأشياء لا بد ان تحدث . انت تؤديها ، وفقاً للأوامر ، وبفاتورة جزاء
ضخمة ، فيعتبرك القوم بطلاً .

يا للمسيح ! اني لأكره فاتورة الجزاء الضخمة ، كذلك قال في ذات
نفسه . ولكنك تتلقى الأوامر ، وإن عليك أن تضعها موضع التنفيذ .
انها الاخطاء التي لا فائدة من الاضطجاع معها . ولكن ما الحكمة ، بحق
البحيم ، من الاضطجاع معها بأية حال ؟ ان ذلك لم يعد على احد ،
في أيما يوم ، بفائدة . ولكن في استطاعتها من غير ريب ان تدب الى
كيس من الاكياس احياناً . إن في استطاعتها ان تدب وتبقى
هناك معك .

طب نفساً ، ايها الغلام ! كذلك قال الكولونيل مخاطباً ذاته .
تذكر انك كنت تملك عمالاً كثيراً عندما تصديت للقتال في تلك المعركة .
ولقد كان من الجائز ان تجرّد من كل شيء لو خسرتها ، انك لم تعد
قادراً البتة على القتال بيديك هاتين ، ولم يبق لديك أي سلاح .

اذن اطرح هذه الكتابة ، ايها الغلام ، او ايها الرجل ، او
ايها الكولونيل ، او ايها الجنرال المفلس . لقد كدنا ان نصل الى السوق
الآن ، ولقد بلغتها من غير ان تنتبه الى ذلك تقريبا .

ثم اضاف : ان عدم الانتباه تقريبا شيء رديء .

لقد احب السوق . كان جزءٌ كبير منها مكتظاً متشعباً الى عدة شوارع جانبية حاشدة ، وكانت مزدحمة الى درجة من العسير عليك معها ان لا تدفع الناس بالمنكبين ، في غير تعمّد . وكلما توقفت لترى ، او تشتري ، او تعجب ، شكّلت «جُزيرة مقاومة» *ilot de resistance* ضدّ تدفق سيل المشتريين الصباحي .

واحب الكولونيل ان يتأمل ضروب المربيات والجبن المرحوم عالياً واللقاتق الكبيرة . إن الناس في ارض الوطن يحسبون «المورتاديل» مقاومة ، كذلك قال في ذات نفسه .

ثم انه قال للمرأة التي في الكشك : «دعيني أذوق من ذلك اللقاتق ، اذا سمحت . شريحة صغيرة ليس غير .»

فقطعت له شريحة رقيقة ، رقيقة كالورق ، في شراسة ومودة . وحين ذاقها الكولونيل وجد فيها نكهة اللحم الحقيقية نصف الداخنة المتبلة بالفلل الأسود ... نكهة لحم الخنازير التي تغذّت بثر البلوط في الجبال .

- « سوف آخذ ربع كيلو . »

كانت موائد الغداء التي يمدّها البارون تحت سقائف القنص ذات طابع

اسبارطي^١ ، وهو طابع احترامه الكولونيل ، اذ كان يعلم انه ليس ينبغي لأحد ان يُسرف في الطعام أثناء الصيد . ولكنه استشعر ، برغم ذلك ، ان من الخير له ان يعزّز الغداء بهذه اللقائقة ، وأن يتقاسمها مع السواري ومتلّقّف الطرائد . وقد يقدم شريحة الى « بوبي » ، كلب القنص ، الذي سوف يردّه الى مخبأه مبلاً ، مرات عديدة ، مفعماً - ما يزال - بالحماسة ولكنه مرتعدٌ من شدة البرد .

- « اهذا افضل ما عندك من اللقائق ؟ » كذلك سأل المرأة . « اليس لديك ايما صنف غير معروض ... ايما صنف محفوظ للزبائن الافضل والأشدّ ثباتاً ؟ »

- « هذه هي اللقائق الفضلى . ان ثمة ضرباً كثيرة منها ، كما تعلم . ولكن هذه هي الفضلى . »

- « اذن اعطيني ثمن كيلو من لقائق مغذية جداً ولكنها غير متبيلة بكثير من الفلفل . »

فقالت : « عندي من ذلك الصنف . انه حديث العهد بعض الشيء ، ولكنه كما وصفت تماماً . »

وكانت هذه اللقائقة من اجل « بوبي » .

ولكنك لا تعلن انك تشتري اللقائق من اجل كلب ، في ايطالية ، حيث الجريمة العظمى هي ان تُعتبر مخبولاً وحيث يذوق كثير من الناس طعم الجوع . ان في ميسورك ان تقدم لقائقة غالية الى كلب امام رجل يكدح كسباً للقوت ويعرف ما يقاسيه الكلب في الماء حين يكون الجو بارداً . ولكنك لا تشتريها ، وانت تنصّ على غرضك من امتلاكها ، إلا اذا كنت مخبولاً ، او صاحب ملايين ربحها من الحرب أو مما بعدها . ودفع الكولونيل ثمن الرزمة المغلفة ، وواصل سيره في السوق مستنشقاً

١ - نسبة الى اسبارطة ، والمراد انها قُسمت بسمة البساطة والتقتير . (المرب)

عقب البنّ المحمص ، ناظراً الى مقدار الدهن الذي على كل ذبيحة من الذبائح في القسم الخاص بالجزارين ، وكأنه يستمتع بآثار الرسامين الهولنديين ، الذين لا يتذكر اسماءهم أحد ، والذين رسموا في تفصيل يتسم بالكمال ، جميع الاشياء التي تصيدها أو جميع الأشياء القابلة للأكل .

ان السوق ، اي سوق ، هي أقرب الاشياء الى متحف جيد كال «برادو» Prado أو كالاكاديمية Accademia الآن ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

وسلك طريقاً مختصرة فألفى نفسه في سوق السمك .

وفي السوق كان «جراد البحر» الضخم الرمادي الضارب الى الخضرة ، بلونه الإضافي الأرجواني المحمر الذي يؤذن بموته في الماء الغالي ... كان «جراد البحر» هذا منشوراً على ارضية الشارع الحجرية الزلقة أو ممدداً في سلاله . لقد اصطيدت كلها بالخدعة والغدر ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وضربت برائتها حتى الموت .

وكان ثمة «سمك موسى» الصغير ، وكان ثمة ايضاً قليل من سمك «البكورة»^١ و «البنيث»^٢ . وهذا الضرب الاخير ، كذلك فكّر الكولونيل ، يبدو أشبه برصاصات زورقية الأذنان ، وهو جليل في موته ذو عين هائلة كعيون السمك الاوقيانوسي .

إنها لم تجعل لسكي تصطاد إلا بسبب شرهها . إن سمك موسى المسكين ليوجد في المياه الضحلة لكي يغذي الانسان . ولكن هذه الرصاصات الهائلة على وجهها ، زرافات زرافات ، تحيا في المياه الزرقاء ، وترتحل مجتازة الاوقيانوسات كلها ، والبحار كلها .

إن أفكارك هذه لتستحق مكافأة مقدارها خمسة سنتات ، كذلك

١ - البكورة ، albicore ، سمكة بحرية من فصيلة السقمري . (المغرب)

٢ - البنيث ، benito سمك استوائي من فصيلة التوتة . (المغرب)

قال الكولونيل في ذات نفسه . دعنا نرى ما عندهم ايضاً .
كان ثمة كثير من الانكليسي ، الحي ، الفاقد ثقته بأنكليسيته . وكان
ثمة براغيث بحر (قُريدس) رائعة تستطيع ان تؤلف «سكامي بروشيتو»
Scampi brochetto مشبُوكَة ومشوَّية في أداة شبيهة بسيف مستدق
الطرف ، ذي حدَّين ، يمكن ان تُصطنع «معولاً» بروكلينياً لتحطيم
الثلج . وكان ثمة سمك أربيان متوسط الحجم ، رمادي متلألئ ،
يلتظر دوره ايضاً في الماء الغالي وفي الخلود لكي تتمكن أغلفتها المقشورة
من العوم في سهولة ويسر عند انحسار الماء بعد المدّ في القناة العظمى .
ان سمكة الاربيان السريعة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ،
«بلامسها»^١ التي تفوق شاربي ذلك الاميرال الياباني العجوز طولاً ،
لتجيء الى هنا الآن كي تموت لمصلحتنا . اوه ، ايها الاربيان المسيحي ،
كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، يا أمير التراجع ، بدائرة استخباراتك
الكامنة في هذين السوطيَّين الخفيفين ، لماذا لم يلقنوك شيئاً عن الأشراك
وأن الاضواء خطيرة ؟

لا ريب في أن هفوة ما قد ارتكبت ، كذلك فكر الكولونيل .
وراح الآن ينظر الى القشريات الصغيرة الكثيرة ، وسمك بطلينوس
ذي الحدّ الشبيه بمجد الموصى ، والذي يتعين عليك ان لا تأكله إلا نيئاً اذا
كنت ملقحاً ضد التيفوئيد منذ قريب ، وسائر الأشياء الصغيرة الشبيهة الاخرى .
واجال طرفه في هذا كله ، متوقفاً ليسأل احد الباعة من أين اصطيده
سمك بطلينوس الذي يعرضه للبيع . فأجابه انه اصطيد من موطن طيّب
بعيد عن البواليع والمجارير ، فسأله الكولونيل أن يشقّ له ستاً من تلك
الأسماك . لقد شرب العصير ، واخرج السمكات من أغلفتها شاقاً القشور بالمديّة

١ - اللامس ، ومفردها ملمس ، هي الشعيرات التي تتلمس بها بعض الحشرات والاسماك
طريقها . (المعرب)

المعقوفة التي قدّمها الرجل اليه . وكان الرجل قد قدّم المديّة اليه لأنه عرف ، بالتجربة ، ان الكولونيل يذهب في شق قشور السمك الى ابعد مما علّم هو أن يشقّها .

ودفع اليه الكولونيل القروش المعدودة التي كانت ثمناً لها ، والتي كانت من غير ريب اكثر بكثير من القروش المعدودة التي نالها اولئك الذين اصطادوها . وقال الكولونيل في ذات نفسه : يتعين عليّ الآن ان أرى سمكات النهر والقناة ، وأن انقلب راجعاً الى الفندق .

ووصل الكولونيل الى ردهة فندق « غريتي بالاس » . كان قد دفع الى غناديليه أجرهما ، وصرفهما . ولم يكن ثمة الآن ، داخل جدران الفندق ، ريحٌ ما .

كان الاثنيان بالغندول من السوق الى القناة العظمى قد احتاج الى جهود رجلين اثنين . وكان كلاهما قد بذلا جهداً شاقاً ، ولقد دفع اليهما ما استحقته ذلك الجهد ، واكثر بعض الشيء .

وسأل البواب الذي كان الآن منصرفاً الى أداء مهامه : « هل اتصل بي أحدٌ بالهاتفون ؟ »

وكان بواب الفندق نشيطاً ، خفيف الحركة ، صارم الوجه ، ذكياً ، لطيفاً - دائماً - في غير ذلّة . وكان يحمل مفاتيح مكتبه المتصالبة على طيّة صدر سترته الرسمية الزرقاء في غير تباهٍ . لقد كان هو البواب . وانها لمرتبة شبيهة جداً بمرتبة الكابتن ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . إنه ضابط ، لا « جنتلمان » . اجعله رقيباً (سرجان) أول في الايام الغابرة . مع فارق واحد ، هو انه يُعنى بالنحاس الأصفر .

- « لقد تلفنت سيدي مرتين » ، قال بواب الفندق بالانكليزية .
أيا امم يجب ان نطلقه على تلك اللغة التي نتكلمها كلنا ، كذلك فكر

الكولونيل . أبتقر لها نعت « الانكليزية » . ذلك كل ما تركوا لنا من حرية ، تقريباً . ويجب ان يجاز لهم الاحتفاظ باسم اللغة . ومن يدري ، فلعل كرييس ^١ ان يقنن ذلك عما قريب .

وقال لبواب الفندق : « ارجوك ان تصليني بها في الحال . »

وشرع البواب يدير قرص التلفون .

وقال : « في استطاعتك ان تتكلم من هناك . لقد امّنت لك الاتصال بها . »

— « إنك لسريع . »

— « من هناك ، » كذلك قال بواب الفندق .

وفي داخل الكشك ، رفع الكولونيل الساعة ، وقال على نحو اوتوماتيكي : « الكولونيل كاتتويل يتكلم . »

فقالت الفتاة : « لقد تلفنت مرتين ، يا ريتشارد ، ولكنهم اوضحوا لي أنك غادرت الفندق . اين كنت ؟ »

— « في السوق . كيف أنت يا حلوتي ؟ »

— « لا أحد يسمع على هذا التلفون في هذه الساعة . أنا حلوتك . أياً من كانت هذه . »

— « انت . هل نمت نوماً عميقاً ؟ »

— « كان ذلك اشبه بالتزلج في الظلام . ليس تزلجاً حقيقياً ، ولكنه ظلام حقيقي . »

— « هكذا يجب ان يكون . لماذا افقت باكراً الى هذا الحد ؟ لقد روّعت بواب فندقي . »

١ — يقصد السير ستافورد كرييس الوزير البريطاني ١٨٨٩ - ١٩٥٢ (العرب)

- « احب ان اسألك ، اذا كان سؤالي هذا ليس من النوع الذي لا يليق بعذراء ، متى نستطيع ان نلتقي ، وأين ؟ »

- « حيث تشائين ومتى نشاء . »

- « ألا تزال احجار الزمرد في جيبك ، وهل اسعفتك « الأنسة » اللوحة » بشيء ما ؟ »

- « نعم في ما يتصل بالسؤالين معاً ، فالاحجار مزورٌ عليها في جيبى الأيسر الأعلى . ولقد تجاذبت اطراف الحديث مع « الأنسة اللوحة » في ساعة مبكرة من الصباح ، ولقد جعلت كل شيء أهونَ عليّ وأيسر بكثير . »

- « هل تحبها اكثر منى ؟ »

- « لم أصبح امرأ شاذاً بعد . ربما كانت هذا تفاخراً . ولكنها حلوة . »

- « هل تؤثرين أن تتناول طعام الصباح في الـ « فلوريان » على الجانب الأيمن من الساحة ؟ لا ريب في ان الساحة سوف تكون مغمورة بالماء ، ولسوف يكون النظر اليها شيئاً مائتاً . »

- « سأكون هناك في مدى عشرين دقيقة اذا اردتني ان اذهب . »

- « انا اريدك ان تذهبي ، » كذلك قال الكولونيل ، وأقفل الخط .

واذ غادر كشك التلفون استشعر اعتيلاً صحيحاً مفاجئاً ، ثم أحس وكأن الشيطان قد احتجزه في قفص حديدي ، مصنوع على شكل رئة حديدية او عذراء حديدية . ومشى ، رمادي الوجه ، الى منضدة البواب وقال ، بالإيطالية : « دومينيكو ، ايلو ، هل تستطيع ان تأتيني بكأس ماء من فضلك ؟ »

ففضى البواب ليأتيه بالكأس ، وانحنى هو على الطاولة التماساً للراحة . لقد استراح في لا مبالاة ، ومن غير قوهم . ثم ان البواب رجع حاملاً

كأس الماء ، فتناول الكولونيل اربعة اقراص من ذلك النوع الذي يأخذ الناس منه قرصين اثنين ، وواصل استراحتة بمثل لامبالاة الصقر حين يستريح .

وقال : «دومينيكو» .

— « نعم . »

— « ان لديّ ههنا شيئاً في ظرف تستطيع ان تضعه في الصندوق الحديدي . وفي امكانك ان تسلمه اليّ اذا طلبتهُ بشخصي ، او من طريق الكتابة ، او الى الشخص الذي وصّلتني به تلفونياً منذ لحظات . هل تريد أن يُشفع ذلك بطلب خطي أيضاً ؟ »

— « لا . هذا غير ضروري . »

— « وانت ايها الغلام ؟ انت حيّ لا يموت ، أليس كذلك ؟ »

فقال له البواب : « هذا صحيح الى حد بعيد . ولكني سوف أنصّ على رغبتك كتابياً ، ومن بعدي يحيى المدير ، والمدير المساعد . »
فأقره الكولونيل على ذلك قائلاً : « كلاهما رجل طيب . »

— « الا تريد ان تجلس يا زعمي ؟ »

— « لا ، ومن الذي يجلس غير الرجال والنساء في فنادق سن اليأس ؟ هل تجلس أنت ؟ »
— « لا . »

— « في ميسوري ان استريح على قدمي ، أو وأنا مستندٌ الى شجرة لعينة . إن مواطني يجلسون ، او يضطجعون ، او يسقطون على الارض . أعطيتهم شيئاً من بسكويت الطاقة لوضع حد لنشيجهم . »

كان يسرف في الكلام ليستعيد ثقته بنفسه في سرعة .

— « وهل لديهم بسكويت طاقة فعلاً ؟ »

— « من غير ريب . إن له لميزة تحول بينك وبين الغضب والاحتياج . »

انه أشبه بالقنبلة الذرية ، إلا انه يفجر على نحو ارتجاعي .
- « انا لا أستطيع ان اصدق هذا . »

- « ان لدينا أفضع الأسرار العسكرية التي أفضت بها في ايام يوم من الأيام زوجة جنرال الى زوجة جنرال . ومفرقات الطاقة هي أقلها شأنًا . وفي المرة القادمة سوف ننظر « البندقية » كلها بالتسمم اللقائقي من ارتفاع مقداره ٥٦,٠٠٠ قدم . وليس في هذا أية غرابة ، « كذلك أوضح الكولونيل . « إنهم يعطونك داء الجمره الخبيثة وأنت تعطهم التسمم اللقائقي . »

- « ولكن هذا سوف يكون رهيباً . »

فقال له الكولونيل مؤكداً : « إنه سوف يكون أسوأ من ذلك . هذا ليس بسرٌ يُخشى ان يتناهى الى العدو . فقد نشر ذلك كله على الملأ . وفيما هو آخذٌ سبيله ، تستطيع ان تسمع مارغاريت ، اذا احسنت ادارة إبرة الراديو ، تتغنى بأغنية « عَلمَ الولايات المتحدة الاميركية الوطني » . واحسب أن في الامكان تسوية ذلك . أما الصوت فلست اميل الى القول إنه عظيم . ليس كما نعرف الاصوات ، نحن الذين سمعنا الاصوات الرخيمة في أيامنا . ولكن كل شيء زائف الآن ، وفي استطاعة الراديو ان يصنع الصوت ، تقريباً . و « عَلمَ الولايات المتحدة الاميركية الوطنية » معصوم حتى من جهالة الجاهل . »

- « هل تظن انهم يطروننا بشيء هنا ؟ »

- « لا ، إنهم لم يفعلوا ذلك في ايام يوم مضى . »

فقال الكولونيل (الذي عاد الآن جنرالاً ذا اربعة نجوم ، بسبب من خيظه وألمه المبرح وحاجته الى الثقة بالنفس ، ولكنه كان مطمئناً مؤقتاً من طريق امتصاص الاقراص) : « الى اللقاء Ciao يا دومينيكو . »

وغادر فندق غريقي .

وتصور أنه في حاجة الى اثنتي عشرة دقيقة ونصف دقيقة لبلوغ
الموطن الذي ربما بلغته حبيبته الحقيقية متأخرة بعض الشيء . وانشأ
يطوي المسافة في احتراس ، وبالسرعة التي يتعين عليه اصطناعها في المشي .
كانت الجسور كلها كمهدا من قبل .

واستوت حبيته الحقيقية الى المائدة في الميقات الذي قالت انها سوف
تصل فيه الى موطن اللقاء . كانت فاتنة كشأنها دائماً في ضياء الصباح
القارس المتدفق عبر الساحة الغاصة بالناس ، وقالت : « ارجوك ، يا
ريتشارد ؟ هل انت بخير ؟ ارجوك ؟ »

فقال الكولونيل : « من غير ريب ايتها الفتنة الرائعة . »

- « هل ذهبت الى جميع مواطننا في السوق ؟ »

- « الى قليل منها ليس غير : أنا لم اذهب الى حيث يبيعون

البط البري . »

- « شكراً لك . »

فقال الكولونيل : « على لا شيء . انا لا اذهب الى هناك البتة

حين لا نكون معاً . »

- « الا تعتقد ان عليّ ان امضي معك للصيد ؟ »

- « لا . انا على مثل اليقين من ذلك . ولو قد كان ألفاريتو يريدك

ان تكوني معنا لدعائك لمرافقتنا . »

- « لعله لم يدعني لأنه يريدني أن اكون معكم . »

- « هذا صحيح . » كذلك قال الكولونيل ، وتفكر في ذلك

طوال ثائيتين . مم ترغين أن يتألف فطورنا هذا الصباح ؟
- « الفطور نأفه هنا ، وانا لا احب الساحة حين تكون مغمورة
بالماء . إنها كثيبة والمخائم لا تجد موطىء قدم تحط فيه . وهي لا
تكون مائعة إلا حوالى النهاية حين يسرح الاطفال ويلعبون . ما رأيك
في الذهاب وتناول الفطور في الغريتي ؟ »

- « اراغبة انت في ذلك ؟ »

- « نعم . »

- « حسن . سوف نتناول الفطور هناك . لقد تناولت أنا فطوري

قبلك . »

- « فعلاً ؟ »

- « سوف آخذ بعض القهوة والارغفة الساخنة ، وسوف ألمسها

بأصابعي ليس غير . هل أنت جائعة الى حد رهيب ؟ »

فقلت صادقة : « الى حد رهيب . »

فقال الكولونيل : « سوف نغنى بفطور الصباح عناية كاملة . وسوف

تتعين لو أنك لم تسمعي بفطور الصباح البتة . »

وفيا هما يمشيان ، والرياح من ورائهما ، وشعرها يخفق خيراً مما تخفق

اية راية ، سألته وهي تضغط على يده في إحكام : « الا تزال تحبني في

ضياء «البندقية» الصباحي البارد القاسي ؟ الجو بارد وقاسٍ فعلاً ، أليس

كذلك ؟ »

- « انا احبك ، والحب باردٌ وقاسٍ . »

- « لقد احببتك طوال الليل حين كنت اتزلج في الظلام . »

- « كيف تفعلين ذلك ؟ »

- « إنها الجولات نفسها مع فارق واحد هو ان الدنيا مظلمة وان

الثلج داكن بدلاً من أن يكون مشرقاً . والمرء يتزلج في هذه الحال

كشأنه في العادة ؛ رابطاً الجأش بارعاً . »

« هل تزججت طوال الليل ؟ لا بد ان يكون ذلك قد اشتمل على جولات كثيرة . »

« لا . وبعد ذلك نمت نوماً عميقاً ، وأفقت سعيدة . كنت انت معي ، وكنت مستغرقاً في النوم مثل طفل . »

« أنا لم اكن معك ، ولم اكن مستغرقاً في النوم . »
فقلت وهي تضغط على يده في قوة : « انت معي الآن . »
« ونكاد ان نكون هناك . »

« نعم . »
« هل قلت لك ، على النحو الصحيح ، إنني احبك ؟ »
« لقد قلت ذلك لي . ولكن قلته لي كرة اخرى . »
فقال : « أنا احبك . خذها صريحة ورسمية ، ارجوك . »
« اني لآخذها على اية صورة تشاء ما دامت صادقة . »
فقال : « هذا هو الموقف الصحيح . أيتها الفتاة الحلوة الشجاعة
الطيبة . اديري شعرك على نحو جانبي مرة واحدة عند اعلى هذا
الجسر ودعيه يتهادى مع الريح منحرفاً . »
وكان قد تساهل فقال obliquely بدلاً من ان يقول ، وهو

الصواب ، oblique . »

وقالت : « هذا هيّن ميسور . هل تحبه ؟ »
ونظر فرأى صورتها الجانبية ، ولونها الصباحي العجيب ، وصدرها ناهداً ،
في الكنزة السوداء ، وعينيها في الريح ، وقال : « اجل ، أنا أحبه . »
فقلت : « إني لسعيدة جداً . »

وفي « الغريقي » أجلسها المايسترو الأعظم الى المائدة القائمة في محاذة النافذة التي تطل على القناة العظمى . ولم يكن ثمة أيما شخص آخر في حجرة الطعام .

كان المايسترو الأعظم مبتهجا ونشيطا مع الصباح . لقد تقبل قرحتَه المِعدية يوما بعد يوم ، وتقبَّلَ قلبه العليل بالطريقة نفسها . فحين كانت قرحتَه وقلبه رائقَيْن كان هو رائقا أيضا .

وأسرَّ الى الكولونيل : « إن مواطنك المجدد يأكل في الفراش في فندقه ؛ هكذا اخبرني زميلي . قد نستقبل بعض البلجيكيين عما قريب . » وكان أشجع هؤلاء هم البلجيكيين « كذلك استشهد بالقول المأثور . » إن ثمة اثنين من المتهالكين على الريح المحرَّم وَقَدَا من مكان لا يعلمه أحد . ولكنها مرهقان أعظم ارهاق ، وأحسب انها سوف يأكلان ، كالخنازير ، في حجرتيها .

فقال الكولونيل : « تقرير ممتاز عن الوضع . مشكلتنا ، ايها المايسترو الأعظم ، هي انني اكلت في حجرتي كما يفعل الرجل المجدد وكما سوف يفعل المتهالكون على المال الحرام . ولكن هذه السيدة . »

- « الفتاة الصغيرة ، » كذلك قاطعه المايسترو الاعظم بابتسامته العريضة المائلة وجهه . كان يستشعر بهجة غامرة بسبب من استقبله

نهاراً جديداً بالكلية .

— « هذه السيدة البالغة الصغر تريد فطور صباح لإنهاء فطورات الصباح . »^١

فقال المايسترو الأعظم : « فهمتُ ، » ونظر الى ريناتا ، وقد خرج قلبه في صدره كما يفل « سمك يونس » في البحر . وانها لحركة جميلة ، وان قلة من الناس في هذا العالم فحسب ، يستطيعون ان يستشعروها وان يقوموا بها .

— « ماذا تريدان ان تأكلي يا بُنيَّتي ؟ » كذلك سأها الكولونيل ، وهو يرنو الى جماها الصباحي المبكر ، الاسمر ، غير المُرَوَّش .
— « كل شيء . »

— « هل لك ان تعطيني بعض المقترحات ؟ »
— « الشاي بدلاً من القهوة ، وايماء شيء يستطيع المايسترو الأعظم ان ينقذه من الفرق . »
فقال المايسترو الأعظم : « لن يكون ذلك انقاذاً من الفرق ، يا بُنيَّتي . »

— « انا الذي ادعوها بُنيَّتي . »
فقال المايسترو الأعظم : « لقد قلت ذلك في اخلاص . ان في استطاعتنا ان نُعيد بعض الكُتلى المشوية مع نبات 'فطر اقتلعه أُناسُ أعرفهم . أو 'زرع في أقبية رطبة . وفي الامكان إعداد شيء من «الأومليت» مع كمأة نبشتها خنازير من الطراز العالي . ومن الميسور تحضير شيء من لحم الخنزير الملح الكندي ، بل الوارد من كندا نفسها عند الاقتضاء . »
فقالت الفتاة مبتهجة لم تفارق غشاوة الوهم عينها : « او من اياما مكان آخر . »

١ — على غرار قولهم : الحرب لانهاء الحرب ..

فقال الكولونيل في جدّة : « او من أيما مكان آخر . وأنا أعلم احسن العلم اين هو . »
- « أعتقد ان علينا أن نكف عن المزاح الآن ونشرع في إعداد الفطور . »
- « وانا اعتقد ذلك ايضاً ، ان لم يكن مثل هذا الاعتقاد غير لائق بفتاة عذراء . »
- « اما فطوري أنا فسيكون زجاجة من الفالبوليشيلا المروقة . »
- « ولا شيء آخر ؟ »
فقال الكولونيل : « إيتني بحراية من لحم الخنزير الكندي المزعوم . »
ونظر الى الفتاة ، اذ كانا وحدهما الآن وقال لها : « كيف حالك ، يا أعز الناس ؟ »
- « جائعة جداً ، في ما أحسب . ولكنني أشكرك لأخذك بأسباب الدمائه طوال هذه الفترة المديدة كلها . »
فقال لها الكولونيل بالاطيالية : « لقد كان ذلك سهلاً . »

لقد جلسا هناك الى المائدة ، وراقبا الضياء الصباحي العاصف المتألق فوق صفحة القناة ، كان اللون الرمادي قد استحال الآن الى رمادي اصفر ، مع الشمس ، وكانت الامواج تقاوم المد المنحسر .

وقالت الفتاة : « ماما تقول إنها لا تستطيع ان تحيا هنا طويلا في أيما وقت ، لأنه ليس ثمة أشجار . وهذا هو السبب الذي يجعلها تذهب الى الريف . »

— « هذا هو السبب الذي يجعل كل امرئ يذهب الى الريف . »
كذلك قال الكولونيل : « في استطاعتنا ان نزرع بضع شجرات اذا وجدنا بيتا ذا حديقة واسعة بعض الشيء . »

— « انا أحب حور لومبارديا وسحر الدلب اكثر ما يكون ، ولكني لا أزال غير مثقفة بكل ما في التعبير من معنى . »

— « أنا احبها وأحب شجر السرو وشجر الشهبوط ايضا . الشهبوط الحقيقي والشهبوط الهندي . ولكنك لن تَرَيِ الاشجار أبداً ، يا بُنيتي ، حتى نذهب الى اميركة . انتظري حتى تَرَيِ صنوبرة بيضاء أو صنوبرة بونديروزا ponderosa »

— « هل سنراها عندما نقوم بالرحلة الطويلة ، ونقف عند جميع محطات

البنزين أو محطات الاستراحة أو أيما اسم آخر يطلقونه عليها ؟ »
فقال الكولونيل : « الأكواخ ومعسكرات السياح . ولسوف نقف
عند هذه الاخرى ، ولكننا لن نبيت فيها . »

- « لشد ما اتمنى أن نتقدم بسيارتنا الى محطة استراحة ، وأن أدفع
النفقات من مالي ، واسألم ان يملأوا خزان السيارة بالبنزين ، وان
يتحروا الزيت ، على الطريقة التي نراها في الكتب الاميركية ، أو في
الأفلام . »

- « هذه محطة بنزين . »

- « واذن فما محطة الاستراحة ؟ »

- « حيث يذهب المرء ، كما تعلمين ... »

- « أوه ، » كذلك قالت الفتاة وتصرّج وجهها . « أنا آسفة . لشدّ
ما اريد أن اتعلم اللغة الاميركية ، ولكنني احسب اني سوف اقول اشياء
بربرية كما تفعل انت ، احياناً ، في الايطالية . »

- « انها لغة هينة . وكلما امعنت في الاتجاه غريباً أصبحت أسهل
واكثر استقامة . »

وجاء المايسترو الأعظم بالفطور فبلغتها رائحته - برغم انها لم تفتح
في الحجرة بسبب من الاغطية الفضية على الاطباق - في اطراد وبوصفها
رائحة لحم خنزير وكلّى مشوية ، مع الرائحة القاتمة المكمّدة المنبعثة
من نبات الفطر المشويّ المضاف .

وقالت الفتاة : « انه يبدو رائعاً . شكراً جزيلاً ، أيها المايسترو
الأعظم . هل يتعين عليّ ان اتكلم باللسان الاميركي ؟ » كذلك سألت
الكولونيل . وبسطت يدها الى المايسترو الأعظم في خفة ومسرعة ، بحيث

اندفعت اندفاع المُقَفَّر^١ ، وقالت : « ضعها هناك ، ايها الصديق .
هذا الطعام grub ممتاز . »

فقال المايسترو الاعظم : « اشكرك ، يا سيدتي . »
- « هل كان يتعين عليّ ان أقول chow بدلاً من grub ؟^٢ » كذلك سألت
الفتاة الكولونيل .

- « إنها في الواقع متعاوضتان^٣ . »
- « هل كانوا يتكلمون هكذا ، هناك في الغرب ، عندما كنت
صبياً ؟ ما الذي كنتم تقولونه عند فطور الصباح ؟ »
- « كان الطاهي يسكب الطعام او يقدمه الينا . وكان يقول : تعالوا
كلوه ، يا أبناء العاهرات ، وإلا ألقيته في صندوق القمامة . »
- « يجب ان اتعلم هذا لترديده في الريف . ففي بعض الاحيان
حين يكون السفير البريطاني وزوجته البليدة يتناولان طعام العشاء على
مائدتنا سوف اعلم النادل ، الذي سيعلن ان الطعام اصبح جاهزاً ، ان
يقول : تعالوا كلوه ، يا أبناء العاهرات ، وإلا ألقيته في صندوق
القمامة . »

- « خلّيق به عندئذ ان يُنقص من القيمة . وعلى اية حال ، فسوف
تكون تجربة مائعة . »

- « علمني شيئاً تستطيع ان أقوله ، باللسان الاميركي الخالص ،
لنرجل المجدور اذا ما اقبل . اني سوف اهمس ذلك في اذنه وكأنتا
نتواعد على لقاء ، كما كانوا يفعلون في الأيام الخالية . »

١ - المقفر ، سيف الطعن أو « الشيش » .

٢ - grub و chow لفظتان عاميتان بمعنى « طعام » . (المرب)

٣ - اي تحمل احدهما محل الاخرى وتكون عوضاً عنها .

– « يتوقف ذلك على سياء وجهه . فإذا كان شديد الاكتئاب استطعت ان تهمني في اذنه قائلة : اسمع يا ماك ، لقد اجرت نفسك للظهور بمظهر الرجل الصلب القاسي ، اليس كذلك ؟ »

– « هذا رائع ، » كذلك قالت ، وكررت بصوت كانت قد تعلمته من إيدا لوبينو Ida Lupino . « هل تستطيع ان اقوله للمايسسترو الاعظم ؟ »

– « طبعاً . لم لا . أيها المايسسترو الاعظم ! »

واقبل المايسسترو الاعظم وانحنى الى امام في انتباه بالغ .

فقالت له الفتاة ، في نبرة جافة : « اسمع ، يا ماك . لقد اجرت نفسك للظهور بمظهر الرجل القاسي ، أليس كذلك ؟ »

فقال المايسسترو الاعظم : « لقد فعلتُ ، من غير ريب . أشكرك لأنك عبرت عن ذلك بمثل هذه الدقة كلها . »

– « اذا أقبل ذلك الرجل ، وأردت أن تتحدثي اليه بعد ان يكون قد تناول طعامه فليس عليك إلا ان تهمني في اذنه : امسح البيض عن ذقنك ، يا جاك ، وتصدّرْ وطرْ في الحال . »

– « سوف اتذكر هذا واترن عليه في البيت . »

– « ما الذي سنفعله بعد الفطور ؟ »

– « هل نصعد الى الدور العلوي ونلقي نظرة على اللوحة ونرى ما اذا كان لها اية قيمة – أعني اية فائدة – في ضوء النهار ؟ »

فقال الكولونيل : « نعم » .

وفي الدور الاعلى كانت الحجرة قد رُتبت . فسُرَّ الكولونيل ، اذ كان قد توقع أن يجد القوضى وعدم الترتيب يسودان المكان .

وقال : قفي بجانبها في الحال . « ثم تذكر ان يضيف : «ارجوك» . ووقفت بجانب اللوحة الزيتية ، ونظر اليها من حيث كان قد نظر اليها الليلة البارحة .

وقال : « ليس ثمة مجال للمقارنة ، طبعاً . أنا لا اعني الشبه . الشبه ممتاز . »

- « هل كان من المفروض ان يكون ثمة مجال للمقارنة ؟ » كذلك سألت الفتاة ، وأمالت رأسها الى الوراء ووقفت هناك مع كنزة «اللوحة» السوداء .

- « طبعاً لا . ولكني الليلة البارحة ، ومع ارتفاع الضحى من هذا اليوم ، تحدثت الى اللوحة وكأنها أنت . »
- « كان ذلك لطفاً منك ، وهو يُظهر ان اللوحة قد كان لها بعض النفع . »

كانا مضطجعين الآن على السرير ، وقالت الفتاة له : « ألا تغلق النوافذ ابداً ؟ »

- « لا . هل تغلقينها انت ؟ »

- « حين يهطل المطر فقط . »

- « الى ايّ حد يشبه أحدنا الآخر ؟ »
- « لست أدري . ان الايام لم تتح لنا قط اي فرصة لاكتشاف ذلك . »
- « الايام لم تتح لنا قط فرصة متكافئة . ولكنها أتاحت لي انا فرصة كافية لمعرفة ذلك . »
ثم تساءل الكولونيل : « وحين تعرف ، ما الذي تفوز به بحق الجحيم ؟ »
- « لست أدري . شيء افضل مما هو كائن ، في ما احسب . »
- « من غير ريب . ان علينا ان نسعى في سبيل ذلك . انا لا اؤمن بالأهداف المحدودة . ولكنك مضطر الى ذلك ، في بعض الأحيان . »
- « ما هو أساك الاكبر ؟ »
فقال : « أوامر الآخرين . وما أساك أنت ؟ »
- « أنت . »
- « لست اريد ان اكون أسي . لقد كنت ابن عاهرة بائساً في كثير من الأحيان ، ولكني لم اكن في أيام يوم من الايام مصدر أسي لأحد . »
- « حسناً ، انت الآن اساي . »
فقال : « حسن ؛ سوف نتقبل المسألة على هذا النحو . »
- « جميلٌ منك ان تتقبلها على هذا النحو . انت لطيف جداً هذا الصباح . انا خجلة جداً من هذا الوضع . ارجوك ان تضمني اليك ضمناً محكماً وان لا نتحدث ، أو نفكر ، كيف كان يمكن لهذا الوضع أن يكون غير ما هو عليه . »
- « هذا واحد من الاشياء القليلة التي اعرف كيف اقوم بها يا بنيتي . »
- « انت تعرف اشياء كثيرة ، كثيرة جداً . لا تقل شيئاً كهذا . »
فقال الكولونيل : « من غير ريب . انا اعرف كيف أقاتل مهاجماً

- وكيف اقاتل منكفئاً وأي شيء آخر ؟
- « ولك علم بالصُّور ، وبالكتب ، وبالحياة . »
- « هذا هين . ليس عليك إلا ان تنظري الى الصُّور في غير ما هوى ، وان تقرّاي الكتب بأقصى الانفتاح الذي يستطيعه عقلك ، وان تعيشي الحياة . »
- « لا تنزع سترك العسكرية ، ارجوك . »
- « حسن . »
- « انت تفعل ايما شيء حين اقول ارجوك . »
- « لقد فعلت اشياء بدونها . »
- « ليس في كثير من الاحيان . »
- « صحيح » ، كذلك اقرّها الكولونيل على ما ذهبت اليه . ارجوك لفظة حلوة .
- « ارجوك ، ارجوك ، ارجوك . »
- « Per piacere ^١ . انها تعني : من أجل المتعة . لشد ما أتمنى لو نتكلم الايطالية دائماً . »
- « في استطاعتنا ان نفعل ذلك في الظلام . على الرغم من ان ثمة أشياء يحلو قولها بالانكليزية اكثر . » وهنا استشهدت بهذه الاقوال : « انا احبك حبي الاخير الصادق الأوحـد . عندما نور البنفسج آخر الأمر في الفناء المحيط بالباب . وخارج المهد المترنج ترنجاً لا يعرف نهاية . وتعالوا كلوه ، يا ابناء العاهرات ، وإلا ألقيته في صندوق القمامة . انت لا تريد أن تسمع هذه الاقوال في لغات اخرى ، اليس كذلك يا ريتشارد ؟ »
- « لا . »

١ تعبير ايطالي يؤدي معنى « ارجوك » ، أو « اذا راق لك ذلك » (العرب)

- « قبّلني مرة أخرى ، أرجوك . »

- « هذه الـ « أرجوك » غير ضرورية . »

- « أغلب الظن اني سوف انتهي ، انا نفسي ، الى ان اكون مثل « أرجوك » غير ضرورية . والشئ الحسن في اقتراب أجلك هو أنك لا تستطيع ان تفارقني . »

فقال الكولونيل : « هذه لاذعة بعض الشيء . إفرضي مراقبة يسيرة على فمك الجميل لكي لا ينطق بمثل هذا الكلام . »

فقالت : « إني لأخذ بأسباب اللذع حين أجذك لاذعاً . انت لا تريدني أن اكون غير ذلك بالكلية ؟ »

- « أنا لا أريدك ان تكوني غير ما انتِ البتة ، وإني لأحبك حباً صادقاً ، ونهائياً ، الى الأبد . »

- « انت تقول اشياء ظريفة في وضوح بالغ احياناً . ما الذي حدث بينك وبين زوجتك ، اذا جاز لي أن اسأل ؟ »

- « كانت امرأة طموحاً جداً ، وكنت أقيم خارج البيت اكثر مما ينبغي . »

- « تعني أنها غادرتك بسائق من الطموح ، يوم وجدتك انت تغادره بسائق من الواجب ليس غير ؟ »

- « بلا ريب ، » كذلك قال الكولونيل ، وحاول ان يتذكر في غير مرارة ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً . « كانت تتمتع بطموح اعظم من طموح نابوليون ، وبموهبة تقارب موهبة فتاة متفوقة في مدرسة ثانوية . »

فقالت الفتاة : « أياً ما كان معني ذلك . ولكن دعنا لا نتكلم عنها . انا آسفة لطرحي هذا السؤال . لا ريب في أنها محزنة لاضطرارها

الى ان لا تكون معك . »

« لا . كانت من العُجب بحيث لا تعرف الحزن ابداً ، ولقد تزوجت مني لكي تصبح لها قدم راسخة في دوائر الجيش ، ولكي تقوم باتصالات افضل في سبيل ما اعتبرت حرفة أو فنًا . لقد كانت صحافية . »

فقلت الفتاة : « ولكن الصحفيين يخيفون . »

« هذا صحيح . »

« ولكن كيف جاز لك ان تتزوج امرأة صحافية تصرّ على الاحتفاظ بصفته هذه بعد الزواج ؟ »

فقال الكولونيل : « لقد قلت لك اني ارتكبت في حياتي بعض الأخطاء . »

« دعنا نتحدث عن شيء سائغ . »

« حسن . »

« ولكن ذلك كان رهيباً . كيف تأتّى لك أن 'تقدم على شيء مثل هذا ؟' »

« لست ادري . في استطاعتي أن أسهب لك في شرح ذلك ، ولكن دعينا نطرح هذا الموضوع »

« اطرحه من فضلك . ولكنني لم اكن لأنوم من قبل قط أنه كان شيئاً رهيباً الى هذا الحد . انك لن تقدم على شيء مثل هذا الآن ، أليس كذلك ؟ »

« أنا أعيدك ، يا حبيبي . »

« ولكنك لن تكتب اليها ابد الدهر ؟ »

« لا ، من غير ريب . »

« ولن تحدثها عن حبنا لكي يكون في ميسورها ان تكتب عنه ؟ »
« لا . لقد حدثتها ذات مرة عن اشياء ، فكتبت عنها . ولكن
ذلك كان في بلاد اخرى . والى هذا ، فالبغي قد ماتت . »
« وهل ماتت فعلاً ؟ »

« إنها أشد موتاً من فوبوس الفينيقي . ولكنها لم تعرف ذلك
حتى الآن . »

« ما تفعل لو كنا معاً في ساحة كاتدرائية القديس مرقس ووقع
بصرك عليها ؟ »

« انظر اليها في وجهها لكي أريها كم هي ميتة ! »
فقالت الفتاة : « اشكرك شكراً جزيلاً . انت تعلم ان المرأة الاخرى ،
او المرأة القابعة في الذاكرة شيء رهيب ليس من اليسير على فتاة صغيرة
أن تطيقه وهي بعد من غير خبرة ولا تجربة . »

فقال لها الكولونيل ، وكان في عينيه خبث وكان يتذكر : « ليس ثمة
اية امرأة اخرى . لا ، وليس ثمة امرأة قابعة في الذاكرة . »

فقالت الفتاة : « اشكرك اعظم الشكر . حين انظر اليك أنزع
الى الاعتقاد بأنك تقول صدقاً . ولكن أرجوك ان لا تنظر اليّ هكذا
ابداً ، وان لا تفكر بي هكذا ابداً . »

فسألها الكولونيل في توقّع : « هل يتعين علينا ان نطاردها وان
نشنقها على شجرة عالية ؟ »
« لا . دعنا ننساها . »

« لقد نسيت . » كذلك قال الكولونيل . ومن عجب انها نسيّت
فعلاً ، وانما كان ذلك عجيباً لأنها كانت حاضرة في الحجرة برهة قصيرة ،
وكانت قد اوشكت أن تحدث ذعراً ؛ وهو شيء من اغرب الاشياء على

الاطلاق ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

ولكنها كانت قد ولت الآن ، نهائياً والى الأبد ، موسومة^١ متعوضاً
منها بضروب العزائم ، مزودة بالاحدى عشرة نسخة من اوراق اعادة
تصنيفها ، وفي جملتها وثيقة الطلاق الأصلية المصدقة من الكاتب العدل
بنسخها الثلاث .

وقال الكولونيل : « لقد نسيت . » وكان ذلك صحيحاً
مئة بالمئة .

وقالت الفتاة : « أنا مسرورة بذلك جداً . لست ادري ما الذي
يدعوم الى السماح لها بدخول الفندق . »

فقال الكولونيل : « نحن متماثلان الى حد كافٍ . ومن الخير لك ان
لا تحمل ذلك الى ابعد مما ينبغي . »

— « في استطاعتنا ان نشنقها اذا شئتَ لأنها هي المسؤولة عن عدم
تمكننا من الزواج . »

فقال لها الكولونيل : « لقد نسيت . لعلها ان تلقي على ذاتها
نظرة طويلة في المرآة ، ذات يوم ، وتشنق نفسها . »

— « ما دامت قد غادرت الحجرة فيتعين علينا أن لا نرجو
لها حظاً طاعساً . ولكني كفتاة فينيسية صالحة ، أتمنى لو أنها كانت
ميتة . »

فقال الكولونيل : « وكذلك أنا . والآن ، وما دامت غير ميتة ،

١ — من الرسم ، وهو الكي .

فلننسها الى الأبد . »

فقلت الفتاة : « الى الأبد ودائماً . أنا أرجو أن تكون هذه

هي الصيغة الصحيحة . وفي الاسبانية para sempre . »

فقال الكولونيل : « para sempre وأخوه . »

كانا الآن مستلقين معاً ، ولم يتكلما ، وشعر الكولونيل بفؤادهما يخفق . إنه لمن اليسير عليك أن تشعر بالفؤاد يخفق تحت كنزة سوداء حبكها امرؤ ما من افراد الاسرة ، وكان شعرها الداكن الطويل الثقيل يتدلى على ذراعه السليمة . إنه ليس ثقيلًا ، كذلك قال في ذات نفسه ؛ إنه اخف من ايما شيء آخر . كانت مضطجعة في سكون ومحبة ، وكان كل ما يملكانه في تواصل كامل . لقد طبع على ثغرها قبلة رفيقة ونهمة ؛ وفجأة ، وبعد أن أمسى التواصل كاملاً ، حدث ما يشبه ذلك الاضطراب الذي يصيب جهاز الراديو المستقبل بحكم الظواهر الجوية الكهربائية .

وقالت : « ريتشارد ، أنا آسفة لبعض الأشياء . »
 فقال الكولونيل : « لا تأسفي ابداً . لا تناقشي عدد الاصابات ابداً ، يا بنيّتي . »
 - « قلها كرة اخرى . »
 - « يا بنيّتي . »
 - « هل لك ان تقول لي اشياء سعيدة تزود بها طوال الاسبوع ، وتروي عليّ مزيداً من انباء الحرب اوسع به ثقافتني ؟ »
 - « فلندع الحرب وشأنها . »

— « لا . أنا في حاجة اليها من اجل ثقافتى . »

فقال الكولونيل : « وأنا في حاجة اليها ايضا . لا الى المناورات . أنت تعلمين أن احد الجنرالات استطاع يوماً في جيشنا ، ان يضع يده — من طريق الغش والاحتيال — على خطة المناورة . لقد عرف ، مسبقاً ، بكل حركة من حركات العدو ، فتصرف في براعة بالغة حملت الدولة على ترفيته الى مرتبة تخطى بها رجالاً كثيرين كانوا خيراً منه . وهذا هو السبب الذي جعلنا نمنى بهزيمة قاصمة ، ذات مرة . هذا وتفتشى اجازات نهاية الاسبوع . »

— « نحن الآن في إجازة نهاية الاسبوع . »

فقال الكولونيل : « ادري . انا لا ازال قادراً على العد حتى رقم سبعة . »

— « ولكن هل ثمة ما يثير في نفسك المرارة ؟ »

— « لا . كل ما هنالك انى بلغت من العمر نصف قرن وانى اعرف الأشياء . »

— « زدني من الحديث عن باريس لأنى احب ان افكر فيك وفي باريس خلال الاسبوع . »

— « لماذا لا تسرحين باريس مؤقتاً ، يا بُنيّتى ؟ »

— « ولكنى زرت باريس من قبل ، وسوف اعود الى هناك ككرة اخرى ، وانا احب أن أعرف . إنها أجمل مدينة في العالم ، بعد مدينتي وانا اريد ان أعرف عنها بعض الأشياء الحقيقية لكي آخذها معي . »

— « سوف نذهب اليها معاً ، وسوف احدثك عنها هناك . »

— « شكراً . ولكن حدثني الآن حديثاً موجزاً اتزود به لهذا الاسبوع

فحسب . »

— « كان لوكيرك غرّاً كريم المتمد كما سبق لي أن شرحت في ما أعتقد . كان شجاعاً جداً ، متكبراً جداً ، طموحاً الى حد مغالى فيه . لقد مات ، كما قلت لك من قبل . »
— « أجل ، لقد قلت لي ذلك . »

— « يقولون إن من حسن الأدب أن لا يذمّ المرء الموتى . ولكنني أحسب أن ذلك هو أنسب الأوقات للتحديث عنهم في صدق . وأنا لم أقل في حياتي قط عن أيما رجل ميت شيئاً أحجم عن قوله له في وجهه . » وصمت لحظة ثم اضاف : « إني اقول للأعور انت اعور ، وأقولها في عينه . »

— « فلنكفّ عن التحديث عنه . لقد اعدتُ تصنيفه في عقلي . »
— « عمّ تريدان ان احدثك اذن ؟ عن شيء مائع ؟ »
— « أجل ، ارجوك ، لقد فسد ذوقي من قراءة المجلات المصورة . ولكنني سوف اقرأ دانتي طوال الاسبوع حين تمضي انت لسبيلك . ولسوف أشهد القديس كل صباح . وأحسب ان ذلك سيكون كافياً . »

— « واذهي الى حانة هاري قبل الغداء ايضاً . »
فقالت : « سأفعل . ارجوك أن تحدثني عن شيء مائع . »
— « ألا تعتقدين ان من الخير لنا أن نأوي الى النوم ليس غير ؟ »
— « كيف تستطيع أن تنام الآن بعد أن لم يبق لدينا غير متسع من الوقت يسير ؟ إلمس هذا ، قالت ذلك ودفعت رأسها كله الى اعلى ، تحت ذقنه ، حتى لقد اضطرت رأسه الى الارتداد للوراء . »

— « حسن جداً ، سوف احدث . »
— « اعطيني يدك أولاً ، لكي أمسكها . سوف اضعها في يدي عندما اقرأ دانتي وافعل الاشياء الاخرى . »
— « لقد كان دانتي شخصية مقيّنة . أشدّ عجباً وغروراً من

لوكيرك . «

- « ادري . ولكنه لم يكتب على نحو مقيت . »

- « لا . ولقد كان لوكيرك قادراً على القتال ايضاً . وبصورة ممتازة . »

- « والآن حدثني . »

كان رأسها على صدره الآن ، وقال الكولونيل : « لماذا لم تريدي لي ان انزع سترتي العسكرية ؟ »

- « انا أحب أن ألبس الأزرار . هل في ذلك بأس ؟ »

فقال الكولونيل : « سوف أكون ابن عاهرة بائساً . كم رجلاً من أفراد أسرتك خاض غمار الحرب ؟ »

فقالت : « كلهم . دائماً . لقد كانوا تجاراً ايضاً ، وكثير منهم كانوا حكاماً لهذه المدينة كما تعلم . »

- « ولكن هل قاتلوا كلهم ؟ »

فقالت : « كلهم بقدر ما اعلم . »

فقال الكولونيل : « او . كي . سوف أحدثك عن أيما شيء لعين ترغبين في معرفته . »

- « أريد ان تحدثني عن شيء مائع . ليس غير . عن شيء لا يقل رداءة عما تنشره المجلات المصورة أو أردأ . »

- « مجلة درمينيكا ديل كوريير Domenica Del Corriere ام مجلة تريبوننا إيلاستراتا Tribuna Illustrata ؟ »

- « اسوأ ، اذا كان ذلك ممكناً . »

- « قبليني أولاً . »

وقبلته في كرم وفي قوة وعلى نحو يائس ، ولم يستطع الكولونيل ان يتذكر أيًا من المواقع الحربية أو أيًا من الحوادث المائعة أو الغريبة .

إنه لم يفكر إلا فيها ، وفي ملمسها ، وفي مدى دنو الحياة من الموت حين يستغرق المرء في نشوة روحية . ولكن ما النشوة الروحية ، بحق الجحيم ، وما رتبة النشوة الروحية ورقمها المتسلسل ؟ وأي ملمس لكنتها السوداء ؟ ومن الذي أبدع كل نعومتها وبهجتها ، وكبرياءها الغريبة وتضحيتها وحكمتها الطفلية ؟ أجل ، ان النشوة الروحية هي الشيء الذي كان من الجائز ان تفوز به ، ولكنك بدلاً من ذلك تجتذب أخا الرقاد الآخر .^١

الا لعن الله الموت ، كذلك قال في ذات نفسه . إنه ينسل اليك في اجزاء صغيرة يتعذر عليك معها ، او يكاد ، ان تدرك من اين دخلت . وهو يبيثك في بعض الأحيان ، على نحو وقع . انه قد يجيء من الماء غير المغلي ، أو من ناموسية لم 'تنصب' ، او قد يجيء مع الهدير العظيم ، المصلصل ، الحامي حتى الأبيضاض الذي عشنا معه . إنه يجيء في تلك الوشوشات الصغيرة المفرقة التي تسبق جلبة السلاح الاوتوماتيكي . وفي امكانه ان يجيء مع قوس القنبلة اليدوية المطلق 'دخاناً' ، او مع سقوط قنابل 'مدافع الهاون' ، الحاد ، المفرقع .

لقد رأيت يجيء محرراً نفسه من ضباب القنبلة ، هابطاً مع ذلك الخط المنحرف العجيب . إنه ينبعث من تحطم سيارة ما بصوت معدني ، أو مجرد فقدان الاحتكاك الكافي فوق طريق زلقة .

إنه يجيء معظم الناس وهم في الفراش ، انا اعلم ذلك ، مثل نظير الحب المقابل . ولقد عشت معه طوال حياتي تقريباً ، وكان توزيعه على الناس هو صناعتي . ولكن اي شيء استطيع ان أرويه

١ - يقصد بأخي الرقاد الآخر : الموت . (المعرب)

لهذه الفتاة الآن في هذا الصباح البارد العاصف في فندق غريقي
بالاس ؟ »

وسألها : « ما الذي ترغبين في معرفته ، يا بُنَيَّتِي ؟ »

- « كل شيء . »

فقال الكولونيل : « حسن . اسمعي اذن . »

لقد استلقيا على السرير الجديد القاسي على نحو عذب ، وقد مست
رجله رجلها ؛ وكان رأسها على صدره ، وكان شعرها منشوراً عبثاً عنقه
القاسي العجوز . وأنشأ يحدثها :

« لقد هبطنا البرّ من غير ما كبير مقاومة . وإنّا واجهونا
بالمقاومة الحقيقية عند الشاطئ الآخر . ثم إنه كان علينا أن ننضم الى
الجنود الذين أنزلوا بالمظلات ، وان نحتلّ رنهيم على مدن مختلفة ، ثم
استولينا على شيربورغ . وكان ذلك عسيراً ، وكان علينا ان نتجزه في
سرعة خاطفة ، وكانت الاوامر صادرة من جنرال يدعى « لايتننج جو »
كان من الجائز ان لا تسمعي باسمه البتة . جنرال بارع . »

« تابع » ، ارجوك . لقد تحدثتَ عن « لايتننج جو » من قبل .
« وبعد شيربورغ كان لدينا كل شيء . ولم آخذ شيئاً غير بوصلة
اميرال ، إذ كان عندي آنذاك مركب صغير في خليج تشيزابيك .
ولكننا دمغنا الاسلحة الالمانية كلها بامم مارتل ، واستولى بعض الجنود
على ثروات لا تقل عن ستة ملايين فرنك فرنسي مطبوع في المانيا .
وكانت هذه الأوراق النقدية صالحة الى ما قبل عام واحد ، وكل خمسين
فرنكاً منها كانت تساوي آنذاك دولاراً واحداً ، وكم من رجل يملك
الآن تراكتوراً بدلاً من مجرد بغلٍ لأنه عرف كيف يرسلها الى الوطن

من طريق زملائه وأعوانه .

- « ولم اسرق قط شيئاً غير البوصلة لأنني اعتقدت ان بما يجلب الطالع النكد ان يسرق المرء ، لغير ما ضرورة ، في حرب من الحروب . ولكنني شربت الكونياك ، وجعلت من دأبي ان أحسب المقادير الثانوية التي تكفل الدقة في استعمال البوصلة ، كلما وجدت متسعاً من الوقت لمثل هذا الصنيع . لقد كانت البوصلة هي صديقي الوحيد ، وكان التلفون حياتي . كان لدينا من الاسلاك الموترة اكثر مما في تكساس من ال... »^١ ، - « ارجو ان تواصل تحديثي ، وأن تجتنب الفظاظ ما استطعت الى ذلك سبيلاً . انا لا اعرف ما تعنيه تلك الكلمة ، ولا أريد أن اعرف . »

فقال الكولونيل : « إن تكساس ولاية كبيرة ، وهذا هو السبب الذي من اجله اتخذتها واتخذت نساءها رمزاً ، فأنت لا تستطيعين ان تقولي « اكثر... »^١ من ويومينغ » لأن عدد السكان هناك ثلاثون ألفاً ، أو ربما خمسون ألفاً اذا شئت . قلت انه كان عندنا اسلاك كثيرة ، فكنت لا نفتأ نوترها ثم نلفها ، ثم نوترها من جديد . »

- « تابع » .

فقال الكولونيل : « سوف أنتقل بك الآن الى اقتحام خطوط العدو . ارجوك ان تخبريني . هل يُضجرك كلامي ؟ »

- « لا . »

- « وهكذا قمنا بالأقتحام المخزي ، ، كذلك قال الكولونيل ، وكان وجهه الآن قد التفت الى وجهها ، ولم يكن يحاضر ؛ كان يعترف .

١ - مهنا مرقع كلمة مقذعة مخدوفة في الاصل الانكليزي ايضاً . (المعرب)

« وفي اليوم الأول اقلبت كثرتهم الكبيرة وأسقطوا من الجو زينة شجرة الميلاد التي بلبلت «رادار» الاعداء ، وهكذا ارجيء الهجوم . كنا على استعداد للزحف ، ولكنهم ارجأوا الهجوم . وكان ذلك في محله من غير ريب . انا احب جنرالات الجيش الكبار كما احب الخنازير التي تعرفونها . »

— « حدثني عن ذلك ولا تكن خبيثاً . »

فقال الكولونيل : « لم تكن الأحوال ملائمة ، وهكذا انطلقنا في اليوم الثاني في تلك السبيل ، كما يقول أبناء عمومتنا البريطانيون الذين لم يستطيعوا ان يشقوا طريقهم ومناشفهم ما تزال رطبة ، وأقبل شعب ذلك البحر الأبد الذي هناك . »

« وكانوا لا يزالون ينطلقون من الحقول التي عاشوا فيها على حاملة الطائرات المعشوشبة تلك التي يدعونها انكلترا ، عندما رأينا أولهم كانت الطائرات لامعة ، مشرقة ، جميلة ، لأنهم كانوا قد أزالوا ، قبيل ذلك ، دهان الغزو عنها ، او لعلمهم لم يفعلوا . ان ذاكرتي ليست دقيقة في ما يتصل بهذا الجزء من القصة . »

« وأياً ما كان ، يا بنيّتي ، فقد كان في ميسورنا ان نشهد أسراها مرتجعة نحو الشرق بأسرع ما نستطيع أن نرى . كانت أشبه شيء بقطار عظيم . وكانت حلقة في الجو ، فهي أجملُ منها في أيما يوم مضى . وقلت لزميلي الثاني ان علينا ان نسميها « اكسبريس فالهالا »^١ هل سئمت هذا الحديث ؟ »

— « انا استطيع أن أرى اكسبريس فالهالا . إننا لم نره قط على

١ - Valhalla Express . و«فالهالا» ، في الميثولوجيا السكنديناافية ، هي حجرة الخلود التي تستقبل فيها ارواح الأبطال الذين سقطوا صرعى في ساحة القتال. (المعرب)

مثل هذه الضخامة . ولكننا رأيناها . مراتٍ عديدة . »

– « وكنا على مبعدة ألفي ياردة من المكان الذي كان علينا أن نتطلق منه . أنت تعرفين ما معنى ألفي ياردة ، يا بنيقي ، في حرب تكونين فيها في موقف الهجوم ؟ »
– « لا . وكيف استطيع ذلك ؟ »

– « ثم إن الجزء الأمامي من « اكسبريس فالهالا » اسقط دخاناً ملوناً ثم انعطف وانقلب راجعاً إلى الوطن . وكان هذا الدخان قد أُسْقِطَ في دقة بالغة ، وكشف في وضوح عن الهدف الذي كان مواقع النمساويين . كانت مواقع حصينة . ولقد كان من الجائز أن يتعذر علينا اخراجهم منها من غير لجوء الى شيء جبار وماتع كالذي كنا نقوم به فعلاً .

« وبعد ذلك ، يا بنيقي ، اسقطت الاجزاء الاخرى من « اكسبريس فالهالا » كل شيء في العالم على رؤوس النمساويين وحيث كانوا يقيمون ويعملون لصدنا . وفي ما بعد بدا وكأن كل شيء على الارض قد تار وفار ، وراح الاسرى الذين أخذناهم يرتعدون كما يرتعد المرء حين تستبد به الملائيا . كانوا جنوداً جدّ بواسل من « فرقة المظلات السادسة » ، وكانوا كلهم يرتعدون ولا يستطيعون لذلك الارتعاد دفعاً برغم محاولتهم ان يفعلوا .

« وهكذا تستطيعين أن ترأي أنه كان قصفاً موفقاً . الشيء نفسه الذي نحتاج اليه دائماً في هذه الحياة ، على وجه الضبط . أن نجعلهم يرتجفون من خوف العدالة والقوة .

« وكانت الريح يا بنيقي ، ولسوف اوجز لكي لا أدخل السأم على نفسك ، تهب من ناحية الشرق ، وشرع الدخان يرتدّ نحونا . وكانت المدافع الثقيلة هي التي استهلّت ذلك ، ولم يكن أحد في حاجة الى ان يقلق او يحشّم نفسه عناء السؤال عن كان هناك ذلك اليوم . وبعد

هذا ولكي 'يُجعل' اقتحام مواقع العدو ناجحاً ولكي لا يُترك في كل من خطي القتال إلا أقلّ عدد ممكن من الجند ، أقبلت الطائرات وقصفت كل ما بقي . ثم إننا اقتحمنا تلك المواقع حالما رجع « اكسبريس فالهالا » إلى أرض الوطن ، منتشراً في جماله وجلاله من ذلك الجزء من فرنسة حتى سماء انكلترة كلها .

لو كان لرجل ما ضمير ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، إذن لفكر في سلاح الطيران ذات يوم .

وقال الكولونيل : « اعطيني زجاجة من تلك الفالبوليشيلا . » ثم تذكر أن يضيف : « ارجوك . »

وقال : « أتمس عفوك ، هدئي من روعك يا كلبتي الحلوة ، ارجوك . انك أنت التي سألتني أن أروي لك ذلك . »

— « انا لست كلبتك الحلوة . انها لا بد أن تكون امرأة اخرى . »

— « صحيح . انت حيي الأخير الصادق الوحيد . هل هذا صحيح ؟ ولكنك انت التي سألتني أن احدثك عن ذلك . »

فقالت الفتاة : « حدثني ، ارجوك . وإني لأحب أن اكون كلبتك الحلوة لو عرفت كيف افعل ذلك . ولكني مجرد فتاة من هذه المدينة التي تحبك . »

فقال الكولونيل : « سوف نعمل على هذا الأساس . وأنا احبك . ولعلي تلقّنت تلك العبارة في الفيلبين . »

فقالت الفتاة : « ربما . ولكني أؤثر ان اكون فتاتك الشريفة . »

— « إنك كذلك . الى اقصى حد ، وعلى رؤوس الأشهاد . »

فقالت : « ارجوك ان لا تنزع الى السخرية . ارجوك ان تحبني في صدق ، وان تحدثني على اصدق نحو تستطيعه من غير ان تؤذي نفسك بأية حال . »

فقال : « سوف احدثك في صدق . على اصدق نحو استطيع ان
اتحدث به ، وليُصبِ الاذى من قد يصيب . فلأن تسمعي نبأ ذلك
مني ، اذا آنست في نفسك فضولاً يغريك بالاطلاع هذا الموضوع ، خيرٌ
لك من ان تقرأيه في كتاب ما ، ذي دفتين متينتين . »
- « لا تكن لاذعاً ، ارجوك . كل ما أسألك اياه ان تصدقني القول
وتضمنني اليك في إحكام وان تصدقني القول حتى 'تفترغ' كل ما في جوفك ،
اذا كان هذا امراً ممكناً . »

- « لست في حاجة الى إفراغ ما في جوفي باستثناء ضرورة اصطناع
المدافع على نحو يتفق والقواعد العسكرية . أنا لن انقيم منهم اذا ما
اصطنعوها في إحكام حتى ولو أصابوا منك مقتلاً . ولكن أعطيني ،
لإمداد المشاة ودعمهم ، رجلاً مثل بيت كيزادا Pete Duesada . ذلك
رجل قادرٌ على طردهم برفسة من نعله . »
- « ارجوك . »

- « اذا ما رغبت ذات يوم في التخلي عن رجل متهدم مثلي فخليق
بذلك الفتى ان يمدك بالعون . »
- « انت لست متهدماً ، اياً ما كان معنى ذلك ، وأنا احبك . »
- « ارجوك ان تعطيني قرصين من تلك الزجاجاة ، وان تملاي كأس
الفالبوليشيلا التي املت ملأه ، ولسوف اروي لك طرفاً من بقية
القصة . »

- « لا داعي لا تروي لي بعد شيئاً . اجل ، لا داعي لذلك ؛ وانا
أعلم الآن ان هذا يؤذيك . وخاصة اذا كان الكلام عن يوم « اكسبريس
فالهاالا » ، ذاك . أنا لست مستنطقاً ، او اياً ما كان مؤنث المستنطق .
فلنكتفِ بالاضطجاع في سكون والاطلال من النافذة ، ومراقبة ما يجري
في قناتنا العظمى . »

- « لعل هذا خير لنا . ومن ذا الذي يبالي بالحرب على اية حال ؟ »

— « انت وانا ، ربما . » كذلك قالت وهزت رأسها . « دونك
الشيئين اللذين طلبتها من الزجاجة المربعة . وها هي ذي كأس «الفينو»
المروقة . سوف أبعث اليك من اطياننا بنجر أفضل . ارجوك ، دعنا
ننام فترة قصيرة . ارجوك ان تكون غلاماً صالحاً ، وان نكتفي
بالاستلقاء معاً ويتبادل الحب . ضع يدك هنا ، ارجوك . »

— « يدي السليمة أم يدي المشوهة ؟ »

فقالت الفتاة . « يدك المشوهة . اليد التي احبها والتي يتعين عليّ أن
افكر فيها طوال الاسبوع . انا لا استطيع ان احتفظ بها كما تحتفظ انت
بأحجار الزمرد . »

فقال الكولونيل : « إنها في الصندوق الحديدي . » وصمت لحظة ثم
أضاف : « على اسمك . »

— « فلنكتف بمجرد النوم ولننقلع عن الكلام على ايما شيء عادي وعن
أيما ضرب من ضروب الأسى . »

— « الى الجحيم بالأسى كله ، » كذلك قال الكولونيل ، مُغمضاً عينيه ،
مُسنداً رأسه في رفق على الكنزة السوداء التي كانت وطنه الأم . ان
المرء لفي حاجة الى ان يكون له وطن أم ، كذلك قال في ذات
نفسه . وها هو ذا وطني الأم . »

وسأله الفتاة : « لماذا لم تُنتخب رئيساً للولايات المتحدة ؟ لقد كان
خليقاً بك ان تكون رئيساً ممتازاً . »

— « أنا رئيساً ؟ لقد خدمت في حرس مونتانا الوطني حين كنت في
السادسة عشرة . ولكنني لم ألبس في حياتي عقدة رقبة على شكل
فراشة . » ولست — ولم اكن في ايما يوم قط — بائع كرافقات وقمصان
رجالية فاشلا انا لا اتمتع بأي المؤهلات التي تساعد المرء على ارتقاء سدة
الرئاسة . بل لم يكن في إمكاني ان أُرثس المعارضة ، حتى على الرغم من .

اني غير مضطر للجلوس على «حوليّات التلفون» لكي تؤخذ صُورِي .
وفوق هذا فلست جنرالاً لا محارباً . يا للجحيم ، فأنا لم اكن في ايّام
يوم من الأيام عضواً في «القيادة العليا للقوات الخليفة الموجهة الى اوروبه»
SHAEF . بل اني لم اوفق الى أن اكون رجل دولة أرشد . فأنا لا أزال دون
السن التي تؤهلني لذلك . إننا نُحكّم اليوم ، بطريقة ما ، بالحالة .
نحن نُحكّم بما قد تجدينه في قعر كؤوس الجمعة الميتة التي غمست
فيها البغايا سكايرهن . ان المكاتب لا يُكتس ولو مجرد كنسٍ حق
الآن ، وإن ثمة عازف بيان هاوياً يضرب على الصندوق .

— « انا لا افهم هذا لأن معرفتي باللغة الاميركية ناقصة الى حد
بعيد . ولكنه يبدو رهيباً . ولكن لا تغضبْ بسبب من ذلك . دعني
اغضب نيابةً عنك . »

— « هل تعرفين ما بائع الكرافتات والقمصان الرجالية الفاشل ؟ »
— « لا . »

— « إنه ليس شيئاً معيباً . وان عندنا كثيراً منهم في بلادنا . هناك
واحد ، على الاقل ، في كل بلدة . لا يا بُنيّتي ، انا مجرد جنديٍ
مقاتل ، وهذا أحط شيء على سطح الأرض . وبهذا الوصف استطيع ان
اخوض الانتخابات مرشحاً عن آرلينغتون ^١ ، اذا ما أعادوا الجثة . إن
لأسرتي عندئذ حق الاختيار . »
— « هل آرلينغتون لطيفة ؟ »

فقال الكولونيل : « لست ادري . أنا لم أدفن هناك قط . »
— « أين تُؤمّر ان تُدفن ؟ »

— « هناك في الهضاب ، » كذلك قال متخذاً قراراً سريعاً . « في
ايما جزء من اجزاء النجاد التي هزمناهم فيها . »

١ - Arlington ، المقبرة الوطنية الاميركية . وتطلق ايضاً على قبر الجندي المجهول .
(العرب)

- « يخيّل إليّ أنه ينبغي لك أن تدفن في الغرابا^١ . »
- « في الزاوية الميتة من ايما منحدر مجدور الوجه بالقنابل ، شرط ان يرعوا الماشية فوق في ايام الصيف . »
- « وهل لديهم ماشية هناك ؟ »
- « طبعاً . إن لديهم دائماً ماشية في المواطن التي ينبت فيها العشب الصالح أيام الصيف . وبنات البيوت العليا – القوية البناء ، اعني البيوت والبنات معاً – التي تقاوم الثلج في الشتاء ، ينصبّين الاشرار للذئاب في فصل الخريف بعد أن ينزلن الماشية من الأعالي . إنها تقتدي على اكدياس التبن المُنْقَلَة بالاعمدة الخشبية . »
- « ولست تريد آرلينغتون أو « الاب لاشيز »^٢ أو ما عندنا هنا ؟ »
- « اريد مقبرتكم البائسة . »
- « انا أعلم انها أتفهّ ما في البلدة (town) . أو على الأصح أتفهّ ما في المدينة city . لقد تعلّمت منك أن ادعو كل مدينة بلدة ، ولكني سأحرص على أن اراك تذهب حيث تشاء الذهاب ، ولسوف اذهب معك اذا احببت ذلك . »
- « لست احب ذلك . ان هذا هو الشيء الوحيد الذي يقوم به كل منا على انفراد . مثل الذهاب الى الحمام . »
- « لا تكن وعراً ، ارجوك . »
- « غنيت اني احب ان تكوني معي . ولكن هذه عملية أنانية جداً ، وبشعة جداً . »
- وامسك عن الكلام ، واستغرق في تفكير عميق ، ولكن في موضوع آخر وقال : « لا . سوف تتزوجين ، وترزقين خمسة اولاد ، وتسمينهم

١ – Grappa مرتفعات جبلية من الألب الشرقي في ايطالية ، وقد مر ذكرها من قبل . (العرب)

٢ – Pere Lachaise مقبرة باريس الرئيسية . (العرب)

كلهم ريكاردوس ... »

... « قلب الأسد » كذلك قالت الفتاة ، « مرتضية » الوضع من غير ان تلقي ولو مجرد نظرة ، لعبة بالورقات التي في يديها كما يلقي المرء بجميع اوراقه بعد ان يكون قد حسب في دقة وضبط .
فقال الكولونيل : « قلب القملة . الناقد الظالم اللاذع الذي يطعن في الناس جميعاً . »

فقالت الفتاة : « لا تكن خشناً في حديثك ، أرجوك . وتذكر انك تطعن أسوأ ما تطعن في نفسك . ولكن ضمني اليك بأقصى الإحكام الذي نستطيعه ، ولنحاول أن لا نفكر في شيء . »
وضمها الى صدره بأقصى ما استطاع من إحكام ، وحاول ان لا يفكر في شيء .

كان الكولونيل والفتاة مستلقين على السرير ، في سكون ، وحاول الكولونيل ان لا يفكر في شيء ، كفعله حين احجم عن التفكير في ايما شيء مرات كثيرة في مواطن كثيرة . ولكن ذلك امتنع عليه هذه المرة . لقد امتنع عليه منذ اليوم ، لأن الاوان كان قد فات .

انها لم يكونا عطيلًا ودَيِّمونة ، بحمد الله ، برغم أنها كانا في المدينة نفسها ، وبرغم ان الفتاة كانت من غير ريب أملح وجهاً من بطة شكسبير ، وبرغم ان الكولونيل قد خاض غمرات القتال بقدر ما خاضها المراكشي المهذار^١ أو اكثر .

إنهم جنود ممتازون ، كذلك قال في ذات نفسه . اولئك المراكشيون الراجعون . ولكن ما اكثر الذين صرَّعوا منهم في ايامي ! احسب اننا قتلنا منهم اكثر من جيل كامل اذا ما ادخلت في الحساب آخر حملة 'جرّدت على عبد الكريم'^٢ . ولقد كان عليك ان تقتل كلاً منهم على حدة . ان ايما امرئ لم يقتلهم قط جماعات^٣ ، كما قتلنا النمساويين قبل أن

١ - يقصد عطيلًا . (العرب)

٢ - يقصد الامير عبد الكريم الخطابي ، البطل المراكشي الشهير . (العرب)

يكتشفوا آينهايت . »

وقال : « بنيتي ! هل تريدني فعلاً أن أحدثك عن الحرب ، لكي تعلمي ، اذا لم اكن خشناً في حديثي عنها ؟ »

- « اني لأحب ان تحدثني عنها اكثر مما احب اي شيء آخر .
إذ يصبح في ميسوري عندئذ ان اشاركك إياها . »

- « هي ارق من ان استطيع قطعها لتشاركيني اياها . إنها كلها لك ، يا بنيتي . وحديثي عنها سوف يقتصر على الخطوط الكبرى ليس غير . فأنت لن تطيقي فهم الحملات في تفصيل ، وقليلٌ هم اولئك الذين يطبقونه . ان رومل قد يطبق ذلك . ولكنهم كانوا يبقونه دائماً تحت غطاء كثيف في فرنسة ؛ والى هذا فقد كنا دمرنا مواصلاته . لقد دمرها سلاحا الطيران الحربيان . سلاحنا وسلاح الطيران الملكي RAF ولكنني أتمنى لو استطيع ان اجاذبه اطراف الحديث في بعض الشؤون . اني لأحب ان أتحدث اليه والى ارنست أوديت . »

- « حسبك أن تخبرني ما الذي تتمناه ، وخذ كأس الفالبوليشيلا هذه ، وأمسك عن الكلام اذا كان فيه ما يقع في نفسك الاشتمزاز . أو أحجم عن رواية ذلك كله بالمرّة . »

- « كنت عند البدء كولونيلا رديفاً او كولونيل «تبديل» ، كذلك شرح في احتراس . وكولونيلات التبديل كولونيلات متسكعون يوضعون تحت تصرف قائد الفرقة العسكرية لكي يحتلوا محل زميل لهم صُرع في الميدان ، او أعفي من القيادة . ان أياً منهم ، تقريباً ، لم يُصرع في الميدان ؛ ولكن كثيراً منهم كانوا يُعفون من القيادة . ان جميع الكولونيلات الممتازين يُرَقَّون . ويُرَقَّون في سرعة عندما تبدأ الحرب في اضرام ما يشبه نيران الغابات ، »

- « تابع من فضلك . هل آن لك أن تأخذ دواءك ؟ »

فقال الكولونيل : « الى الجحيم بدوائي . وإلى الجحيم بالقيادة العليا
للقوات الحليفة الموجهة الى اوروية SHAEF . »

فقلت الفتاة : « لقد شرحت ذلك لي من قبل . »
- « لشدّ ما أتمنى لو كنت جندياً بما تتمتعين به من عقل نير
وذاكرة حلوة . »

- « اني لأتمنى ان اكون جندياً اذا استطعت أن اقاتل تحت إمرتك . »
فقال الكولونيل : « حذارِ أن تقاّتي تحت إمرتي في أيّام يوم . أنا
حذِر . ولكنني غير محظوظ . كان نابوليون يريد من جنوده ان يكونوا
محظوظين ، ولقد كان على صواب . »
- « لقد كان لنا بعض الحظ . »

فقال الكولونيل : « نعم . حظ حسن وحظ سيّء . »
- « ولكنه كان كله حظاً . »

فقال الكولونيل : « طبعاً . ولكن المرء لا يستطيع أن يقاتل استناداً
الى الحظ ليس غير . انه مجرد شيء يحتاج اليه المقاتل . والذين قاتلوا استناداً
الى الحظ ليس غير ماتوا كلهم ميتة ماجة مثل سلاح الفرسان في جيش
نابوليون . »

- « لماذا تكره سلاح الفرسان ؟ ان الكثرة الكبيرة من الفتيان
الطيبين الذين عرفتهم كانوا في فرق الفرسان الثلاث الممتازة أو في
الاسطول . »

- « أنا لا اكره ايّام شيء ، يا بنيّتي ، » قال الكولونيل ذلك ،
ورشف قليلاً من الخمر الحمراء الخفيفة الصّرف التي كانت ودوداً مثل
بيت اخيك ، ان كنت انت واخوك صديقين حميمين . « كل ما في الأمر
ان لي وجهة نظر خاصة ، انتهيت اليها بعد تفكير 'مروئي' فيه ،
وعلى اساس من تقدير لمقدراتهم . »

- « هل هم غير صالحين فعلاً ؟ »

فقال الكولونيل : « إنهم تافهون . » ثم اضاف ، وقد تذكر ان يكون دمثاً : « في عصرنا هذا . »

- « كل يوم يزيل الغشاوة عن أبصارنا . »

- « لا . كل يوم هو تمويه جديد ورائع . ولكن في ميسورك ان تقطعي كل ما هو خادع في ذلك التمويه وكأنك تقطعينه بحدّ موسى مستقيمة النصل . »

- « ارجوك ان لا تقطعني ابداً . »

- « انت لست قابلة للقطع . »

- « هل لك ان تقبلني وتضمّني الى صدرك في قوة ، ثم وبعد ذلك ذلك نرؤ معاً الى القناة العظمى حيث النور فاتن الآن ، وتريدني من حديثك ؟ »

وفيا هما يرنوان الى القناة العظمى حيث كان الضوء ، في الواقع ، فاتناً ، تابع الكولونيل حديثه فقال : « لقد قدّمت كتيبة لأن الجنرال أعفى من المهمة غلاماً كنت قد عرفتُه منذ كان في الثامنة عشرة من العمر . إنه لم يكن غلاماً حين أعفى ، طبعاً ، ولكن قيادة تلك الكتيبة كانت فوق ما يطيق ، على حين كانت هي اقصى ما طمحت اليه في ايما يوم من الايام ، في هذه الحياة ، حتى خسرناها . » ثم اضاف : « بحكم الأوامر ، طبعاً . »

- « ولكن كيف نخسر المرء كتيبة من الكتائب ؟ »

- « عندما تحاول ان تصعد في النجاد ويكون كل ما يتعين عليك ان تفعله هو ان تلوح براية ، فيتداولون في الأمر ، ويبرزون اذا كنت مصيباً . ان المحترفين شديرو الذكاء ، ولقد كان هؤلاء النمساويون كلهم

محترفين ؛ لا المتعصبون . ويرن جرس الهاتف ، ويتلفن شخص ما من الضباط ، شخص مزود بأوامر من الجيش ، او ربما من « القيادة العليا للقوات الحليفة الموجهة الى اوروبة SHAEF » نفسها ، لأنهم كانوا قد قرأوا اسم البلدة في صحيفة ما - ولعل احد المراسلين هو الذي بعث به من «سبا»^١ - وينقل اليك الاوامر : أن تستولي على البلدة بالسلاح الأبيض . وهذا شيء مهم جداً ، لأن المسألة تسربت إلى الصحف . ان عليك أن تهاجم وتستولي على المدينة بالسلاح الأبيض !

« وهكذا تُخَلَّفَ إحدى السرايا مهيئة على طول الجزء الأعلى من الوادي . وتحسر سرية^٢ أخرى برمتها ، وتدمر ثلاثاً اخريات . ان الدبابات لتُسَحِّقُ بمثل السرعة التي تتحرك بها ، ولقد كان في ميسورها أن تتحرك في خفة الى أمام والى وراء .

« ويقذفونها بالقنابل : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة .

« ان ثلاثة رجال يخرجون عادة من اصل الخمسة (الذين هم في داخلها) ، ويركضون في غير نظام مثل لاعبين شاعت الفوضى في ساحتهم حين تكونين انت مينيذوتا ، ويكون الآخرون بيلوا من اعمال ويسكونسون^٣ .

« هل اوقع الضجر في نفسك ؟ »

« لا . انا لا أفهم هذه الإشارات المحلية . ولكن في استطاعتك ان تشرحها حين يحلو لك ذلك . ارجوك ان تواصل تحديثي . »

« وقدخلين البلدة ، فيشن^٤ غر^٥ وسم^٦ حملة^٧ جوية من فوقك . ومن الجائز أن تكون هذه الحملة تنفيذاً لأمر قد صدر ، ثم لم يُلغَ البتة . فلنمنح

١ - Spa منتجع صحي في شرقي بلجيكة، جنوب شرقي لياج ، Liege وهو مشهور بينابيعه المعدنية .

٢ - Minnesota ويسكونسون Wisconsin ولايتان اميركيتان، وييلو Beloi مدينة في ولاية ويسكونسون . (المعرب)

كل امرئ فرصة الاستفادة من الشك . انا لا ازيد على تصوير الأشياء لك بطريقة إجمالية . فمن الخير أن لا اوغل في التفاصيل ، لأن المدني لا يفهمها . حق انت لن تفهمها .

« وهذه الحملة الجوية لا تساعدك كثيراً ، يا بنيّتي . اذ ربما تعجزين عن البقاء في البلدة لأن عدد جنودك قد أمسى هزلاً جداً ، ولأنك تكونين منهمكة الآن في رفعهم عن حصباء الطريق أو في تركهم على حصباء الطريق . إن ثمة مذهبين أو « مدرستين فكريتين » في هذا الموضوع . وهكذا يطلبون اليك ان تحتلي البلدة بالسلاح الأبيض . وهم يكررون ذلك .

« وقد أريد هذا تأييداً قاطعاً من قبل سياسي يرتدي ثوباً عسكرياً ، سياسي لم يقتل أحداً في حياته كلها ، إلا وفه فوق سماعة التلفون ، أو على الورق ، ولم يُصَب قط بأي جرح . تصوريه مثل رئيسنا القادم اذا شئت . تصوريه كيفما أحببت . ولكن تصوريه وقومه ، مؤسسة العمل التجاري العظمى كلها ، بعيدين عن الجبهة الى درجة تجعل الطريقة الفضلى للاتصال بهم في سرعة هي اصطناع حمام الزاجل . باستثناء أنهم قد ينزعون - مع ذلك القدر من الاحتراس الذي التزموه لسلامة اشخاصهم هم - الى تصويب نيران مدافعهم المضادة للطائرات لاسقاط تلك الحمام . اذا استطاعوا أن يصيبوا منها مقتلاً .

« وهكذا تعاودين ذلك كرة اخرى . ولسوف انبئك ، في ما بعد ، كيف يكون ذلك . »

ورفع الكولونيل بصره الى اضطراب الضياء على سقف الحجرة . كان الضياء منعكساً ، بعضه لا كله ، من القناة العظمى . وقد أحدث حركات غريبة ، ولكنها مطردة ، متغيرة ، كما يتغير تيار جدول

من سمك الاطروط ، ولكنها باقية ” ، برغم تغيرها مع حركة الشمس .
ثم انه نظر الى جميلته الساحرة ، بوجهها الغريب الاسمر ، الشبيه
بوجه طفلٍ شب عن الطوق ، فتفطر قلبه وقد تذكر انه سوف
يرتحل و (ذلك امر لا ريب فيه) . قبل الساعة الثالثة عشرة والدقيقة
الخامسة والثلاثين ، فقال : « فلنقلع عن الكلام على الحرب ،
يا بُنيّتي . »

فقلت : « ارجوك ، ارجوك . أنا أريد ان اتزوّد من حديثك
لهذا الأسبوع كله . »

- « هذا نص 'حكم' sentence موجز . انا استعمل هذا اللفظة بمعناها
الجنائي ، كما تقولين : نص الحكم بالسجن ' . »

- « أنت لا تدري كم قد يتناول الاسبوع ويتناول ، حين يكون
المرء في التاسعة عشرة . »

فقال الكولونيل : « لقد عرفتُ ، مراتٍ عديدة ، كم قد تتناول
الساعة وتتناول .. وفي استطاعتي ان اخبرك الى أي حدّ قد تطول
الدقيقتان ونصف الدقيقة أيضاً . »

- « ارجوك ان تخبرني . »

- « حسناً ، لقد قضيت اجازة يومين في باريس بين معركة « شني -
ايغل » وهذه المعركة . ونظراً للصدافة التي كانت تربطني مع رجل او رجلين
من كبار المسؤولين مُنِحتُ شرف حضور اجتماع لم يشهده غير من كانوا موضع
الثقة والاعتماد ، اجتماع شرح لنا فيه الجنرال والتر بيدل سميث الى أي حد
سوف تكون هينة يسيرة تلك العملية التي حملت بعد اسم عملية غابة
هورتجين . انها لم تكن غابة هورتجين فعلاً . لقد كانت قطاعاً صغيراً

١ - في الأصل تلاعب لفظي بين كلمة sentence بمعنى « الجملة » ، وكلمة sentence
بمعنى « الحكم » .

ليس غير . لا ، لقد كانت هي ستاتروولد ، وكان ذلك هو الموضع الذي اختارته القيادة الالمانية العليا ، بحق ، للقتال بعد ان احتلت «آخن» وبعد أن قُطِعَت الطريق الى المانيا . انا ارجو ان لا يكون في هذا الكلام ما يُضجرك .

- « انت لا تضجركي أبداً . وليس في حديث الحرب ما يضجركي غير الأكاذيب . »

- « انت فتاة غريبة ! »

فقلت : « نعم . لقد عرفتُ ذلك من عهد بعيد . »

. « هل تحبين ان تقايلي فعلاً ؟ »

- « لست ادري ماذا كنت استطيع القتال . ولكن خليقٌ بي ان أجرب اذا ما علمتني . »

- « لن اعلمك ابد الدهر . سوف اجتريء برواية بعض الحكايات على مسمعك . »

- « حكايات حزينة عن موت الملوك . »

- « لا . عن الجنود الاميركيين او الـ GIs كما سمّاهم بعضهم . والله يعلم كم اكره هذه اللفظة وكيف اصطُنِعَتْ . قراء كتب هزلية مصورة . وكلهم من مكان بعينه . ومعظمهم قد سيقوا الى هناك برغمهم . لا كلهم . ولكنهم جميعاً يقرأون صحيفة تدعى «النجوم والخطوط» . ولقد كان يتعين عليك ان تغري كتيبتك بطالعتها ، وإلا كنت قائداً مخففاً . ولقد كنت اكثر القادة اخفاقاً . لقد حاولت أن احب مراسلي الصحف ، وكان فريقٌ من خيارهم يشهدون ذلك الاجتماع . انا لن اسمي اسماء ، لأنني قد أغفِلُ بعض الممتازين منهم ، وفي ذلك ظلم وعدم إنصاف . لقد كان ثمة مراسلون صالحون غابت اسمائهم عن ذاكرتي . ثم كان هناك مراوغون اختيروا بالقرعة ، وزائفون كان من دأبهم ان يزعموا انهم

جُرحوا اذا مستهم قطعة معدنٍ مُستنفدة ، وجماعة يحملون وسام « القلب الارجواني » بسبب من حادث سيارة جيب ، ومطلعون على بواطن الامور ، وجبناء ، وكذابون ، ولصوص ، ومسرفون في اصطناع التلفون . ولقد غاب عن هذا الاجتماع بعض الموتى . فقد كان لهم موثاقهم . نسبةٌ منهم كبيرة . ولكن ايا من الموتى لم يشهد الاجتماع ، كما قلت . لقد شهد بعض الناس ولكن في ثياب عسكرية رائعة .

- « ولكن كيف تزوجت في يوم من الايام واحدة منهم ؟ »

- « بالغلط ، كما اوضحت لك من قبل . »

- « تابع تحديثي . »

- « كانت في الحجرة عدد من الخرائط اكثر من ذلك الذي يستطيع سيدنا المسيح أن يقرأه في احسن ايامه . » كذلك تابع الكولونيل « فهناك الخرائط الكبيرة ، والخرائط المبالغ في تكبيرها . ولقد تظاهر اولئك القوم كلهم بأنهم فهموها ، كما فعل الجنود حاملو المؤشرات ، وهي ضرب من عصي البليارد نصف الشرجية وكانوا يصطنعونها للشرح والتفسير . »

- « لا تنطق بكلمات فاحشة . ومع ذلك فأنا لا ادري ما معنى

نصف الشرجية هذه . »

- « انها تعني : مختصرة ، او موجزة على نحو لا يفني بالمرام . » كذلك شرح الكولونيل . « وقد تستعمل لوصف اداة ما ، أو تُخلق ما ، بالنقص . إنها كلمة عتيقة . ولعلك تجدونها في السنسكريتية . »

- « ارجوك ان تواصل تحديثي . »

- « ولم ؟ وما الذي يحملني على تخليد العار بضمي ؟ »

- « سوف اكتب ذلك اذا شئت . في استطاعتي ان اكتب ، في أمانة ،

ما اسمعه او افكر فيه . وخليقٌ بي طبعاً ان ارتكب بعض الاخطاء . »

« إذا استطعت ان تكتبي ، في أمانة ، كل ما تسمعيه او تفكرين فيه كنت فتاة محظوظة من غير ريب . أما أنا فلن اكتب ، أبدا الدهر ، كلمة واحدة من هذا . »

واستأنف حديثه قائلاً : « كان المكان غاصاً براسلين صحفيين ارتدى كل منهم ما شاء له ذوقه ان يرتديه . كان بعضهم نزاعين الى السخرية ، وكان بعضهم شديدي الشوق الى المعرفة .

« ولتوجيههم كما يوجه الراعي البارع القطيع ، ولاصطناع المؤثرات على احسن وجه كان ثمة مجموعة من «صافقي الغدارات» . إننا نطلق لقب «صافق الغدارات» على الرجل اللامحارب ، المتنكر في بذلة عسكرية او ربما استطعت ان تدعوها ثوباً رسمياً ، والذي يحتاج كلما صفق السلاح على فخذه أو مسها مساً رقيقاً . وبالمناسبة يا بنيتي فإن الغدارة ، لا الغدارة القديمة ، ولكن الغدارة الحقيقية ، قد أخطأت عدداً من الناس في المعركة اكبر ، في اغلب الظن ، من عدد الذين اخطأهم ايما سلاح في العالم كله . فلا تدعي احداً يعطيك غدارة إلا اذا أردت أن تضربي الناس بها على رؤوسهم في حانة هاري . »

« انا لم ارد في ايما يوم من الايام ان اضرب احداً ؛ إلا - ربما - آندريا . »

« اذا قدّر لك ذات مرة ان تضربي آندريا فاضربه بأنبوبية الغدارة ، لا بعقبها . فالعقب بطيء الى حد رهيب ، وهو يخطيء الهدف ، فاذا اصابه وجدت الدم على يديك حين تطرحين البندقية . وارجوك ، أيضاً ، أن لا تضربي آندريا ابد الدهر لأنه صديقي . وعلى أية حال ، فلست أحسب انه سوف يكون لقمة سائغة بالنسبة الى من يرغب في ضربه . »

« وانا لا احسب ذلك ايضاً . ارجوك أن تزيدني علماً بأمر ذلك

الاجتماع ، او المؤتمر . يخيّل اليّ ان في استطاعتي الآن أن أُميّز صافقي الغدارات من غيرهم ولكنني أريد أن يكون علمي بهذه الأشياء أدق وأعمق . »

- « حسناً ، لقد كان صافقو الغدارات ، بكامل فخسار اصطفاق غداراتهم ، ينتظرون وصول الجنرال العظيم المكلف بشرح العملية .
« كان المراسلون يغمغمون أو يغردون ، وكان الاذكياء منهم عابسين أو مبتهجين ابتهاجاً سليباً . لقد استوى كل منهم على كرمي قابلة للانطواء وكأنه اقبل لسماع محاضرة من محاضرات مركز التربية الصيفي في تشوتوكا^١ . أنا آسف لاصطناعي هذه التعابير المحلية ، ولكننا شعبٌ محليّ . »

- « ويدخل الجنرال الحجرة . إنه ليس صافق غدارات ، ولكنه رجل أعمال كبير ؛ وسياسي ممتاز ، من الضرب التنفيذي . وكان الجيش ، آنذاك ، هو اكبر المشروعات التجارية في العالم . ويتناول الجنرال المؤثرة نصف الشرجية ، وُيرينا ، في ايمان كامل ، ومن غير هواجس مشؤومة ، كيف سيجري الهجوم تماماً ، والسبب الذي من اجله نشنته ، وكيف سينجح في سهولة ويُسر . فليس ثمة مشكلة . »

فقالت الفتاة : « تابع . ارجوك ان تدعني أترع كأسك ، وارجوك ان تنتظر أنت الضوء المنعكس على السقف . »

- « أترعها ولسوف انظر الى الضوء ، واتباع الحديث .
« وحدّثنا بائع ضغط الدم العالي هذا - ولست اقول ذلك في غير احترام ، ولكن أقوله في اعجاب بمواهبه كلها أو بموهبته - عن الاشياء الضرورية التي ستؤوفر لنا . إن أيما شيء منها يكن لن يُعوّزنا . وكانت

١ - Chautauqua قرية جنوب غربي نيويورك ، على بحيرة تشوتوكا . (المعرب)

المنظمة المدعوة « القيادة العليا للقوات الحليفة الموجهة الى اوروبا » SHAEF تتخذ من بلدة تدعى فرساي ، خارج باريس ، مقراً لها . وكان علينا ان نشن هجوماً الى الشرق من « آخن » على مسافة تبعد ٣٨٠ كيلو متراً من مقرها ذاك .

« في استطاعة الجيش ان يصبح ضخماً » ، ولكن في استطاعتك ان ترص صفوفه بعض الشيء . واخيراً تقدموا حتى رايمس ، الباعدة ٢٤٠ كيلو متراً عن ميدان القتال . وكان ذلك بعد شهر عديده .

— « انا افهم الضرورة التي تقضي بأن يكون الرجال التنفيذيون الكبار في نجوة من الاحتكاك برجالهم العاملين . وأفهم شيئاً عن احجام الجيوش ومختلف المشكلات . بل اني لأفهم علم اطعام الجنود وايوائهم في الميدان ، وهو شيء غير عسير . ولكن التاريخ لم يعرف أيما قائد قاد جيوشه من على مثل هذا البعد . »

— « حدثني عن المدينة . »

فقال الكولونيل : « سوف أحدثك ، ولكني لا أريد أن أؤذيك . »
— « انت لا تؤذيني أبداً . إن مدينتنا مدينة عتيقة ، ولقد كان لنا دائماً رجالنا المقاتلون . إننا نحترمهم اكثر من احترامنا جميع الفئات الاخرى ، وأحسب اننا نفهمهم كأنا ، يقعون اعظم الضرر في نفوس النساء . »

— « هل أوقع أنا الضرر في نفسك ؟ »

فسأله الفتاة : « ما رأيك انت ؟ »

— « أنا أضجر نفسي ، يا بُنَيَّتِي . »

— « لست أظن ذلك ، يا ريتشارد . لقد كان خليقاً بك ان لا تعمل

ايما شيء طوال حياتك . لا تكذب عليّ ، ارجوك ، يا حبيبي ، بعد ان لم يبق لدينا غير متسع من الوقت قصير . »

— « لن اكذب . »

- « ألا ترى أنك في حاجة إلى إنبائي ببعض الأشياء لكي تنفض عن نفسك غمّها ؟ »

- « أنا أعلم أنني أنبئك بها . »

- « ألا تعلم أنني أريدك أن تموت ممتعاً بنعمة موت سعيد ؟ أوه ، لقد بدأت أرتبك . لا تدعني أرتبك أكثر مما ينبغي . »

- « لن أدعك ، يا بُنَيَّتي . »

- « زدني من أحاديثك ، واستسلم للمرارة والغمّ ما شئت . »

وقال الكولونيل : « اسمعي ، يا بنيّتي . سوف نكف الآن عن كل اشارة الى السحر الخادع والى النحاس الاصفر الرفيع ^١ ، حتى ولو كان من كانساس ^٢ ، حيث ينمو النحاس الاصفر ويرتفع الى أعلى مما يرتفع « برتقال اوسايج ^٣ » على طريقك . إن هذا البرتقال يحمل ثمرأ لا يستطيع المرء أن يأكله ، وهو كانسامي خالص . فلم يقدر قط لأحد غير أهل كانساس ان تكون له علاقة به ، ربما باستثناءنا نحن الذين خضنا غمار الحرب . لقد اكلنا منها كل يوم ، من برتقالات اوسايج أعني . » كذلك اضاف الكولونيل ، « ولكننا كنا ندعوها جرايات كانساس K . Rations . انها لم تكن رديئة . (اما جرايات مخزن التموين العسكري C . rations فكانت رديئة .) كانت كثرتها الكبرى جيدة .

« وهكذا قاتلنا . ان ذلك رتيب ولكنه 'مثقّف' . وفيما يلي الطريقة

١ - يرمز بذلك الى قادة الجيش الكبار . (المعرب)

٢ - ولاية في اواسط الولايات الاميركية المتحدة . (المعرب)

٣ - شجر يشبه ثمره برتقالاً كثير الثآليل والبثور ، وهو ينسب الى نهر اوسايج Usage بالولايات الاميركية المتحدة ، الذي يجري من شرقي ولاية كانساس الى نهر الميسوري ، ويتخذ منه المزارعون أسبجة أو وشائع لحماية اراضيهم من الواغلين والمتطفلين . (المعرب)

التي يتم بها القتال اذا كان ثمة من يتوق الى معرفة ذلك ، وهو ما أشك فيه .

« انه يجري هكذا : الساعة الثالثة عشرة « ريد أس ثري » Red S - 3 :
لقد وثب « هوايت » (الابيض) في الميقات المعين . وقال « ريد » (الاحمر)
انهم كانوا ينتظرون ريثا يندفعون في آثار هوايت . وفي الساعة ١٣ و ٠٥
(يعني الساعة الواحدة وخمس دقائق بعد الظهر ، اذا استطعت ان
تتذكرى ذلك ، يا بنيّتي) يقول « بلو » (الازرق) اس ثري « Blue S - 3 -
واحسب انك تعرفين ماذا تعني S-3 هذه - : « دعونا نعرف متى ينبغي ان
نتحرك » فيقول « ريد » انهم كانوا ينتظرون ريثا يندفعون في آثار هوايت .
« في ميسورك ان ترى ان ذلك هين جداً . » كذلك قال الكولونيل
للفتاة . « كان على كل امرئ ان يفعل ذلك قبل فطور الصباح . »

فقالت له الفتاة في رقة : « ليس في استطاعتنا كلنا ان نكون
مشاة مقاتلين . انا احترم سلاح المشاة اكثر من اي شيء آخر ، ما عدا
الطيارين البارعين الامناء . تحدث ، ارجوك ، إني أعنى بك . »

فقال الكولونيل : « الطيارون البارعون بارعون ، ويجب ان يحترموا
بهذا الوصف . »

ورفع بصره الى الضياء المضطرب على السقف ، واستبد به الغم لتذكره
كيف خسر كتائبه ، وأناساً بأعيانهم . وعلى اية حال ، فإنه لم يحلم بأن
تكون له مثل تلك السرية . إنه لم ينشئها إنشأاً . لقد ورثها وراثته .
ولكنها كانت ، الى حين ، مبعث ابتهاجه الأعظم . وما إن واحداً من
كل اثنين من رجالها قد مات ، على حين اصيب سائرهم تقريباً ، بجراح
مختلفات في البطن ، في الرأس ، في القدمين او اليدين ، في العنق ، في
الظهر ، في العَجْزُ المحظوظ ، في الصدر النكيد الطالع ، وفي مواطن
اخرى . لقد أدى انفجار القنابل خلف الاشجار الى اصابة رجاله بجراح
في حيناً نجواً من تلك الجراح في الارض الفضاء . ولقد كانت جراح

الجرحى كلهم مرمدية .

وقال : لقد كانت سرية حسنة . بل ان في امكانك ان تقولي انها كانت سرية ممتازة الى ان اهلكتها بتنفيذي اوامر اصدارها الآخرون إلي . »

— « ولكن ما الذي حملك على تنفيذ كل الأوامر ما دمت مدركاً خطئها ؟ »
فأجابها الكولونيل موضحاً : « في جيشنا ينفذ القائد الأوامر كالكلب .
ان أحداً ليتوهم دائماً ان سيده رجل طيب . »

— « ومن أي نوع اسياذك ؟ »

— « لقد حظيتُ حتى الآن بسيدين صالحين . بعد أن بلغت مستوى ما في القيادة ، حظيت بكثير من الجنود الممتازين ، ولكنني لم أحظ بغير سيدين اثنين صالحين . »

— « وهل هذا هو السبب الذي من أجله لست الآن جنرالاً ؟ لقد كنت اوتر أن اراك جنرالاً . »

فقال الكولونيل : « وانا ايضاً كنت اوتر أن ارى نفسي جنرالاً .
ولكن ليس بهذه الشدة كلها ، في أغلب الظن . »

— « هل لك أن تحاول الاستسلام للرقاد ، لكي تدخل السرور على نفسي ؟ »

فقال الكولونيل : نعم . »

— « الذي يترأى لي هو انك إن نمتَ تخلصت منهم جميعاً ، لمجرد استغراقك في الرقاد . »

فقال : « نعم » ، اشكرك شكراً جزيلاً . »

لم يكن في اليد حيلة ، أيها السادة . كل ما على المرء أن يفعله هو الطاعة .

.. « لقد نمتَ نوماً عميقاً جداً فترةً من الزمن ، » كذلك قالت الفتاة له في محبة ورفق . « هل ثمة أيما شيء تريدني ان أفعله ؟ » فقال الكولونيل : « لا شيء . شكراً . »

ثم إن السخرية اللاذعة غلبت عليه فجأة ، فقال : « في استطاعتي ، يا بنيّتي ، ان أنام نوماً عميقاً حتى على الكرسي الكهربائي وقد شقّ بنطالي^١ بالطول ، وُجِزَ شعر رأسي جزاً . انا أنام كيفما احتجت الى النوم واينما احتجت . »

فقالت الفتاة وقد داعب النعاس جفניה : « انا لا استطيع ان اكون هكذا البتة . انا انام حين يستبد بي النعاس . » فقال لها الكولونيل : « انتِ فاتنة . وإنك لتنامين خيراً مما نام ايما امريء في أيما يوم . »

فقالت الفتاة جداً ناعسة : « انا لست فخوراً بذلك . انه مجرد شيء أقوم به ليس غير . »

— « قومي به ، أرجوك . »

— « لا . حدثني في كثير من الاثارة والرقّة ، وضع يدك الشائنة

في يدي . »

فقال الكولونيل : « الى الجحيم بيدي الشائنة . منذ أن أمست

شائنة الى هذا الحد . »

١ - البنطال: البنطلون .

فقلت الفتاة : « انها شائعة . اشدّ شَوْهاً مما سوف تعلم في أي يوم من الأيام ، ارجوك ان تحدّثني عن القتال من غير ان تكون وحشياً اكثر مما ينبغي . »

فقال الكولونيل : « مهمة سهلة . سوف أطوي الزمان على نحو خاطف : الجو غائم ، والمكان هو ٩٨٦٣٤٢ . ما الموقف ؟ نحن نُدْخِنُ العدوَّ بقنابل المدفعية والهاون . ويُعلّنا « اس ثري » S-3 أن « اس سيكس » S-6 يريد من « ريد » أن يضرب ضَرْبته في الساعة السابعة عشرة . إن « اس سيكس » S-6 يريدك أن تضرب ضربتك وأن تستخدم عدداً كبيراً من المدافع . ويبحث « هوايت » بتقرير يقول فيه ان وضعهم حسن . ويحيطنا « اس سيكس » S-6 علماً بأن السَّريّة « أ » A سوف تستدير وتنضم الى السرية « ب » B .

« لقد صدّ العدو السَّريّة « ب » B ، باديء الأمر ، عن سبيلها ؛ ومن ثمّ لبثت هناك بطَوْعها . ان أحوال « اس سيكس » S-6 ليست على يرام . ولكن هذا نبأ غير رسمي . انه يريد عدداً من المدافع اكبر ، ولكن لم يعد ثمة مزيد من المدافع .

« لماذا اردت ان تسمعي حديث القتال ؟ انا لا أدري ، في الواقع ، لماذا . أو ادري ، في الواقع ، لماذا . ومن ذا الذي يرغب في القتال الحقيقي فعلاً ؟ ولكن اليك به ، على التلفون أولاً ، وبعد ذلك سوف أضيف الاصوات والروائح والحكايات عن اولئك الذين 'قتلوا' ومتى واين ، اذا اردت ذلك . »

— « انا لا اريد إلا ما سوف تنبئني به . »

فقال الكولونيل : « سوف انبئك كيف كان ذلك . والجنرال والتر بيدل سميث لا يزال جاهلاً ، حتى اليوم ، كيف كان ذلك . ولكن من الراجح ان اكون مخطئاً ، كما كنت مراتٍ كثيرة . »

فقلت الفتاة : « أنا سعيدة لعدم اضطرارنا الى معرفته او الى معرفة الرجل النايلونيّ النعومة . »

فأكد لها الكولونيل : « لن نكون مضطرين الى معرفتهم في هذا الجانب من الجحيم . ولسوف أقيم على أبواب الجحيم حرساً لكي يحولوا بين شخصيات كهذه وبين الدخول . »

فقلت ناعسة : « في كلامك هذا ما يذكرني بدانتي . »

فقال : « أنا مستر دانتي . مؤقتاً على الأقل . »

ولقد كان كذلك ، في الحق ، طول برهة قصيرة ، ورسم جميع الدوائر . كانت جائزةً كدوائر دانتي ، ولكنه رسمها .

وقال الكولونيل : « سوف أغفل الجزء التفصيلي مادمت - وهذا من حقك بل من واجبك - قد غلب عليك النعاس » وراقب ، كرة اخرى ، اضطراب الضوء العجيب على السقف . ثم نظر الى الفتاة التي كانت أجمل من ايما فتاة قدر له ان يراها عمره كله .

كان قد رآهن يبحثن ويرحن ، وانهن ليرحن - حين يرحن - بأسرع مما يروح أيما شيء من ذوات الاجنحة . ان في استطاعتهم أن يرحن من الجمال النضر الى البشاعة المسنة بأسرع من ايما حيوان آخر ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكنني أعتقد ان هذه الفتاة قادرة على كبح جماح الخطى ، ومواصلة السير حتى النهاية . إن السمراوات ليحتفظن بجمالهن أكثر من غيرهن ، كذلك قال في ذات نفسه . وانظر الى التكوين المعروق في ذلك الوجه . وهذه الفتاة ذات محتد كريم ، وفي استطاعتها أن تتخلد على الدهر . إن الكثرة الكبرى من جميلاتنا الفاتنات يتحدرن من الحاجز الخشي في مشارب الصودا ، ولسن يعرفن الجزء الأخير من اسم جدتهن ، إلا اذا كان شولتز Schultz أو ربما شليتز Schlitz ؛ كذلك قال في ذات نفسه .

- « هذا هو الموقف الخاطيء يتخذه المرء » ، كذلك خاطب نفسه ، اذا لم يكن راغباً في التعبير عن اي من هذه المشاعر للفتاة ، التي لن

تحببها على أية حال ، والتي كانت الآن مستغرقة في نوم عميق ، شبيه بنوم الهرة حين ترقد ملتفة على نفسها .

- « نامي نوماً جيداً ، يا اعز حبيب ، ولسوف أتابع حديثي على غير طائل . »

كانت الفتاة نائمة ، وهي لا تزال ممسكة بيده الشائبة ، التي ازدرأها ، ولقد كان في ميسوره أن يستشعرها تتنفس ، كما يتنفس الصغار حين يستسلمون للرقاد في سهولة ويسر .

وحدثها الكولونيل بكل شيء عن القتال ، ولكنه لم ينطق به نطقاً .

ومكثا بعد أن حظينا بسماع الجنرال والتر بيدل سميت يشرح سهولة الهجوم ، قمنا به . كان ثمة « الفريق الأحمر الكبير » الذي آمن بشعبيته الخاصة . وكان ثمة الفرقة التاسعة ، التي كانت أفضل منا نحن . وكان ثمة نحن ، الذين قمنا دائماً بالهجوم كلما سئلنا ان نقوم به .

ولم يكن لدينا متسع من الوقت لقراءة الكتب الهزلية المصورة ، ولم يكن لدينا متسع لأيا شيء تقريباً ، لأننا كنا نزحف دائماً قبل بزوغ الفجر ، وهذا أمرٌ عسير ، وإن عليك ان تنبذ « الصورة العظمى » وان تكون فرقة عسكرية .

وارتدينا شارة البرسيم ذات الورقات الأربع ، التي لم تكن لتعني شيئاً عند احد من الناس ، ما عدانا نحن الذين أحبينها كلنا . وكنت أنا كلما وقع نظري عليها يحدث في احشائي شيء لا يتبدل البتة . لقد حسبنا بعض الناس لبلاً ، ولكنها لم تكن كذلك . لقد كانت برسيمياً ذا ورقات أربع متكرراً في صورة لبلا .

وكانت الأوامر تقتضينا ان نشن الهجوم مع « الفريق الأحمر الكبير »

فرقة المشاة الاولى في جيش الولايات المتحدة الاميركية ، وكانوا ومنشدم
المُطْلِق أغنية «برو» Pro لا يدعونك تنسى ذلك ابد الدهر . لقد كان
غلاماً ظريفاً ؛ ولقد كانت تلك هي مهنته .

ولكنك مرعان ما تضيق ذرعاً بروث الخيل ، إلا اذا كنت تحب
شذاه او طعمه . أما أنا فلم اكن احب ذلك . برغم اني أحبيت ان
أسير ، وانا غلام ، عبر روث البقر وان أستشعره بين أصابع رجلي .
ولكن روث الخيل يضجر المرء . وهو يضجرني انا في سرعة بالغة ،
وفي استطاعتي أن استروحه من على مسافة الف ياردة ونيف .

وهكذا شنتا الهجوم ، وثلاثتنا في خط النار ، حيث ارادنا الألمان
أن نشنه تماماً . إننا لن نشير الى الجنرال والتر بيدل سميث بعد الآن .
إنه ليس الرجل الوغد في تلك المسرحية . لقد أغدق علينا الوعود
ليس غير ، وشرح كيف يُنتظر أن تسير الامور . وليس ثمة ، في ما
احسب ، اي اوغاد في ايام دولة ديموقراطية . كل ما في الأمر انه كان
كان مخطئاً الى حد جهنمي . علامة وقف ، كذلك اضاف بينه وبين
نفسه .

وكانت العصائب الدالة على هويتنا قد نُزعت كلها حتى عن أذرع
جنود المؤخرة القصوى لكي لا يتمكن اياما ألماني من معرفة من نحن ،
وكانوا يعرفون الفرق الثلاث التي ستقوم بالهجوم احسن معرفة . وكنا
نعتمد ان نشن الهجوم مندفعين كلنا الى خط النار غير مُبقين احداً
بعيداً عنه على سبيل الاحتياط . أنا لن احاول أن أشرح لك ما الذي
يعنيه ذلك ، يا بنيّتي . ولكنه ليس بشيء صالح البتة . وكان الموطن
الذي سنقاتل فيه ، والذي كنتُ قد ألقيت نظرة مليّة عليه ، هو
باشيندايل بالالغام المنشورة حول أشجارها . أنا اكرر هذا أكثر مما
ينبغي . ولكنني أفكر فيه أكثر مما ينبغي أيضاً .

وكانت الفرقة الثامنة والعشرون ، تلك الفرقة المسكينة الزاحفة الى
يميننا ، قد دبقت أقدامها في الاراضي السبخة فترة من الزمان ، وهكذا
تيسرت لنا معلومات دقيقة الى حد غير قليل عن الأحوال التي ستواجهنا
في تلك الغابة . وأحسب ان في استطاعتنا ان نصفها ، في اعتدال ،
فنقول انها كانت غير ملائمة .

ثم إتنا أمرنا بأن نقذف بإحدى الكتائب الى خطوط العدو قبل
بدء الهجوم . وهذا يعني أن العدو سوف يأسر جندياً واحداً على
الأقل ، مما يجعل نزع العصائب الرامزة الى الفِرَق عملاً أبسّ ساذجاً .
إنهم سوف يتربصون الدوائرَ برجالنا حاملي شعار البرسيم ذي الورقات
الأربع ، أولئك الرجال الذين يخلُقُ بهم أن يندفعوا الى الجحيم مباشرة
مثل بغل من البغال ، وأن يفعلوا ذلك طوال مئة وخمسة ايام . ان
هذه الأرقام لا تعني شيئاً عند المدنيين ، طبعاً . لا ، ولا تعني شيئاً
عند شخصيات « القيادة العليا للقوات الحليفة الموجهة الى اوروبة » الذين
لم نرهم قط في هذه الغابة . وتشاء المصادفة - ولا ريب في أن
هذه الأحداث تكون دائماً تصادفيةً بالنسبة الى القيادة العليا - أن تُفنى
الكتيبة عن بكرة أبيها . ولم تكن هذه غلطة أحد ، ولم تكن - بخاصة -
غلطة الرجل الذي أَمَرَ بها . فقد كان رجلاً يحذر بي أن أسعد بانفاق
نصف عمري معه في الجحيم . ومن يدري ، فقد أفعل ذلك ذات يوم .
ولا ريب في أنه سوف يكون عجبياً اذا ما تعين علينا بدلاً من أن
نذهب الى الجحيم ، كما كنا نأمل دائماً ، ان نذهب الى واحدة من تلك
الحانات النمساوية الرخيصة الشبيهة بـ « الفاهالا »^١ ، وان لا نوفق الى
الانسجام مع القوم . ومن يدري ، فقد نستطيع أن نفوز بمائدة منزوية

١ - الفاهالا Valhalla ، في الميثولوجيا السكنديناوية ، حجرة الخلود التي تستقبل فيها
ارواح الابطال الذين سقطوا في ميدان القتال ،

نجلس اليها مع «رومل» و «اوديت» ، ولسوف يكون ذلك الموطن أشبه شيء بأيما فندق من فنادق الرياضة الشتوية . وأغلب الظن انه سيكون جحيماً ، برغم اني لا اؤمن بالجحيم .

وعلى أية حال ، فقد رُمّت هذه الكتيبة ، كما تَرَمَّمُ الكُتائب الأميركية دائماً ، من طريق نظام الاستبدال . أنا لن أصف ذلك ، لأن في استطاعتك دائماً أن تقرأي عنه في ايما كتاب ألفه رجلٌ كان هو نفسه جندياً مستبدلاً . وهو يتلخص في هذه الحقيقة : انك تبقى هناك حتى تصاب اصابة خطيرة او تُصرَع ، أو تُخَبَّلَ ، أو تُمزَّقَ أقساماً ثمانية . ولكنني أحسب انه نظام منطقي ، ولا يقلّ صلاحاً عن ايما نظام آخر ، اذا أخذنا مصاعب المواصلات بعين الاعتبار . وأياً ما كان فإنه يخلف نواةً من بعض الشخصيات التي لم تُصرَع في الميدان ، والتي تعرف نتائج المعركة ، وليس بين هؤلاء من احب طلعة هذه الغابة كثيراً .

وفي استطاعتك أن تجعل موقفهم في هذه العبارة : « لا تمسّني ... يا جاك . »

وإذ كنت شخصية لم تُصرَع في الميدان طوال ثمان وعشرين سنة فقد كان في استطاعتي أن أفهم موقفهم . ولكنهم كانوا جنوداً ، وهكذا فإن أكثرهم صُرع في تلك الغابة وعندما احتلنا تلك المدن الثلاث التي في غاية البراءة والتي كانت في الواقع قلاعاً ومعاقل . لقد بُنيت على هذا النحو بالذات لاغرائنا ، ولم نكن قد سمعنا أية كلمة عنها البتة . ولكي اواصل اصطناع لغة صناعتي السخيفة اقول : ان هذا قد يكون مثلاً على «الاستخبارات الخاطئة» وقد لا يكون .

« ان قلبي ليتفطر حزناً على تلك الكتيبة . » كذلك قالت الفتاة . كانت قد استيقظت وتكلمت والنوم في عينيها .

فقال الكولونيل : « أجل ؛ وكذلك أنا . دعينا نشرب نخبها مرة » .
وبعد ذلك تستسلمين للرقاد ، يا بنيّتي ، أرجوكِ . لقد انتهت الحرب
وأُمسّت خبراً منسياً . »

« أرجوك أن لا تتوهمي انني مغرور ، يا بنيّتي » ، كذلك قال من
غير أن يتكلم . كانت فتاته التي يحبها حباً صادقاً قد استغرقت في
النوم كرة أخرى . لقد نامت بطريقة تختلف عن طريقة فتاته المحترفة .
ولم يجب أن يتذكر كيف كانت فتاته المحترفة تنام ؛ بل لقد أحب .
ولكنه أراد أن ينساها . إنها لم تكن تنام على نحو عذب ، كذلك قال
في ذات نفسه . لم تكن تنام مثل هذه الفتاة التي رقدت وكأنها
يقظى مفعمة بالحياة ؛ مع فارق واحد وهو انها كانت نائمة . نامي
نوماً عميقاً ، أرجوك ، كذلك قال في ذات نفسه .

ومن أنتِ ، بحق الجحيم ، حتى تنتقد الفتيات المحترفات ؟ كذلك
تسأل الكولونيل بينه وبين نفسه ، وأية حرفة بائسة حاولتها أنت
وأخفقت فيها ؟

لقد رغبت في ان اكون ، ولقد كنتُ ، جنرالاً في الجيش الاميركي .
ولكنني اخفقت ، فأنا أغمر من قناة جميع اولئك الذين نجحوا .

ولم تدم توبته طويلاً ، فقال في ذات نفسه : « باستثناء ذوي الانوف
السمراء » ، وأصحاب الخمسة بالمئة والعشرة بالمئة والعشرين بالمئة ، وجميع
اولئك الأغرار الآتين من كل مكان والذي لم يقاتلوا قط ولم يتولوا
القيادة قط .

لقد قتلوا رجالاً كثيرين من الأكاديمية في جيتيسبورغ . وكان ذلك
يوم مجزرة المجازر ، يوم كان ثمة قدر من المقاومة من الفريقين جميعاً .
لا تكن كئيباً . لقد قتلوا الجنرال ماك نير Mc Nair خطأ يوم أقبلت

الطائرات البريطانية التي دعوناها « اكسبريس فالهالا »^١ . إخلعُ عنك
هذه الكآبة . لقد قُتِلَ ناسٌ من الأكاديمية ، وثمة احصاءات تثبت ذلك .
كيف أستطيع أن أتذكر ان لم اكن كئيباً ؟
كن كئيباً ما شئت ، وحدثِ الفتاة الآن في صمت ، فلن يؤذيها
ذلك أبداً لأنها نائمة نوماً فاتناً جداً . ولقد قال « قاتناً » في ما بينه
وبين نفسه لأن تفكيره كان في كثير من الأحيان غيرَ نحويّ .

نامي نوماً رقيقاً ، يا من أحبها في صدق ، وعندما تفيقين يكون حديثي هذا قد انتهى ، ولسوف اعتلمك كيف تقلعين عن محاولة الاطلاع على تفاصيل «صناعة الحرب الكئيبة» ، وسنذهب لنشتري الزنجي الصغير ، او المراكشي الصغير المنقوش على الآبنوس ، بِسِمَاتِهِ الساحرة وعمامته المرصعة بالجواهر . وعندئذ تعلقينه بالدبوس على صدرك ، ولسوف نخفي لنشرب كأساً في حانة هاري ، او نعود الى هنا ، ولسوف احزم امتعتي استعداداً للرحيل . اتنا سنتبادل كلمات الوداع ، ولسوف اركب السيارة مع جاكسون ، وأرشق المايسترو الاعظم بمزحةٍ بهيجة ، والوَّح بيدي الى ايما عضو آخر من اعضاء «منظمتنا» ولن يُقدَّر لأحدنا - ألفاً في المئة ، كما اشعر في هذه اللحظة - أن يرى الآخر ، بعدد ، أبد الدهر .

يا للجحيم ، كذلك قال للأحد وفي صوت غير عال طبعاً ، لقد استشعرت مثل هذا الشعور قبل كثير من المعارك ، وفي فترة من خريف العام ، دائماً تقريباً ، ولدُنْ مغادرتي باريس دائماً . واغلب الظن انه لا يعني شيئاً .

ومن ذا الذي يبالي ، على اية حال ، غيري وغير المايسترو الاعظم وهذه الفتاة ؟ أعني على صعيد القيادة .
إني انا نفسي ابالي اكثر مما ينبغي .. ولكن عليّ من غير ريب ،

بعد أن بلغت هذا السن ، أن اروض نفسي على اللامبالاة بأي شيء .
مثل تعريف البغي : المرأة التي لا تبالي ... الخ .
ولكننا لا تفكر في ذلك الغلام ، الملازم الاول ، الرئيس ، العقيد ،
الكولونيل ، الجنرال يا سيدي سوف ننساه كرة اخرى ، والى الجحيم
به ، وبوجهه القبيح الذي رسمه هيرونيوموس بوش فعلاً . ولكن في
استطاعتك أن تغمد منجلك ، يا اخي العجوز الذي يسمونك الموت ،
إذا كان لديك غمدٌ له . بل ان في استطاعتك ، كذلك اضاف وقد
فكر الآن في معركة هورتجن ، ان تحمل منجلك وتحصد به ماشئت .
لقد كانت هي باشيندايل بقنابلها المتفجرة من خلف الاشجار ، كذلك
قال لأحد باستثناء الضوء العجيب المضطرب على السقف . ثم انه رنا الى
الفتاة ، ليتيقن من انها نائمة نوماً عميقاً بحيث لا تؤذيها أفكاره
وبعد ذلك نظر الى اللوحة ، وقال في ما بينه وبين نفسه : اني
لأراها في وضعين اثنين ، مضطجعةً ومستديرة بعض الشيء ناظرة الى
مواجهةً على نحو مباشر . اني ابن عاهرة محظوظ ، ويتعين عليّ أن لا
أحزن لشيء .

في اول يوم من أيامنا هناك خسرنا ثلاثة من قادة الكتائب . فاما الأول فقُتِل خلال العشرين دقيقة الاولى ، وأما الآخران فصرعا بعد ذلك . ان هذا ليس غير احصاء يقدم الى صحافيّ ، ولكن قيادة الكتائب الصالحين لم يَنموا في يوم من الأيام على الأشجار ، حتى ولا على شجرات عيد الميلاد التي كانت الشجرة الرئيسية في تلك الغابة . انا لا ادري كم مرة خسرنا قادة سرايا أيضاً . ولكن في استطاعتي أن استقصي ذلك .

انهم لا يُصنعون ، ولا يُتَمَوّن ، بمثل السرعة التي يُصنع بها او يُتَمَى محصولُ بطاطا . لقد فزنا ببعض الأمداد ، ولكنني اذكر اني فكرتُ آنذاك ان اطلاق النار عليهم في البقعة التي ترجلوا عندها من الشاحنات أسهل وأكثر فعاليةً من محاولة اعادتهم من المكاتب الذي سيُضرعون فيه ومواراتهم الثرى . ان اعادتهم هذه لتحتاج الى جند ، والى بنزين ، والى رجال يدفنونهم . وقد يكون هؤلاء الجند واولئك الرجال يخوضون غمار المعركة حيث يلقون مصرعهم ايضاً .

وكان ثمة تلج ، او شيء ما ، مطرٌ او ضباب ، طوال الوقت ؛ وكانت الطرق قد لُغِمت على نحو عميق يتسع لاربعة عشر لغماً في بعض البقاع . فما تكاد السيارات تهبط مضطربة نحو سلسلة اخرى اعماق ، في جزء آخر من الارض الموحلة ، حتى نخسر دائماً ، بعض تلك السيارات ، ونخسر طبعاً

مَنْ تَقِيْلُهُ مِنْ الرِّجَالِ .

وبالإضافة الى مجرد ضربها بقنايل المورتر ضرباً جهنمياً ، وجعل
خطوط النار كلها 'مشرطة' للمدفعية الآلية السريعة ونيران الاسلحة
الاوتوماتيكية ، فقد رتبوا كل شيء وقنّوه^١ بحيث يتحتم عليك ، مهما
تكن تبرزهم اصالة رأي وحصافة ، ان تقع في الشرك المتصوب . ليس
هذا فحسب ، بل لقد كانوا يقصفونك ايضاً بقنايل المدفعية الثقيلة ، وبمدفع واحد
من مدافع السكة الحديدية على الاقل .

كان مكاناً من اعسر العسير على المرء ان يبقى فيه حياً ، حتى ولو
كان كل ما عَمِلَهُ ان « يكون » هناك . وكنا نهاجم على نحو موصول ،
وكل يوم .

فلنكفّ عن التفكير في ذلك . الى الجحيم به . ولعل ثمة شيئين سوف
افكر فيها ، واتخلص منها . أحدهما هضبة جرداء يتعين عليك أن
تجتازها لتبلغ « غروסהاو » Grosshau .

وقبيل اجتياز هذه المسافة ، التي كانت تحت هيمنة نيران من عيار
٨٨ ، كان ثمة قطعة من الارض الموات حيث لم يكن في استطاعتهم أن
يصيبوك بغير مدافع الحصار ، او النيران المعوّقة ، او من ناحية اليمين
بمدافع المورتر . وحين انجزنا ذلك ، وجدنا أن ما لديهم من مدافع
المورتر كان يهيمن على الموقع هيمنة حسنة ايضاً .

كان ذلك موطناً آمناً نسبياً ؛ أنا لست اكذب في الواقع ، لا انا
ولا ايما امرئ آخر . إنك لا تستطيع ان تخدع اولئك الذين كانوا في
هورتجن ، واذا ما كذبت اكتشفوا ذلك حالاً تفتح فمك ، سواء اكنت

١ من « قنّى » ، « يقنّى » الشيء اي اجراه في قناة ونظّمه ، وقد استعملناها مقابل
قوله canalized في الاصل .

كولونيلا ام لم تكن .

وفي هذا المكان التقينا شاحنة ، وخففنا سرعتنا . وكان وجهه رمادياً كالعادة ، وقال : « سيدي ، هناك جندي اميركي ميت وسط الطريق أمامكم ، وكلما مرت به سيارة تعين عليها أن تجري فوقه ، وأخشى أن يخلف ذلك انطباعاً سيئاً في نفوس الجنود . »

- « سوف نرفعه من الطريق . »

وهكذا رفعناه من الطريق .

وفي استطاعتنا أن نتذكر كيف كان ملمسه ، وكيف سطّح وسوّي بالأرض ، وغرابة تسطحه .

ثم كان هناك شيء آخر ، في ما اذكر . كنا قد ألقينا على المدينة مقداراً رهيباً من الفوسفور الأبيض قبل أن نستولي عليها نهائياً ، ولك ان تستبدل بلفظ « نستولي » هذا ايّ فعل تشاء . وكانت هذه هي اول مرة رأيت فيها كلباً المانياً يأكل نمساوياً ألمانياً مشوياً . وفيما بعد بصُرْتُ بهرة تنهش من لحمه أيضاً . لقد كانت هرة جائعة ، هرة وسيمة جداً . أنت لا تحسبين ان ايما هرة المانية صالحة قد تنزع الى نهش جندي الماني صالح ، أليس كذلك ، يا بنيّتي ؟ أو ان ايما كلب الماني صالح قد ينزع الى نهش حمار لجندي الماني صالح ، حمار شوي بالفوسفور الأبيض .

كم من مشهد مماثل تستطيع أن ترسمه ؟ مشاهد كثيرة من غير ريب ، ولكن اية فائدة ترتجى من ذلك ؟ ان في امكانك ان تروي الف حكاية من هذا الضرب ، فلن يفضي ذلك الى منع نشوب الحرب . ان الناس سوف يقولون اننا لا نقاتل النمساويين ، والى هذا فاهرة لم تأكلني انا ولم تأكل أخي غوردون ، لأنه كان في المحيط الهادئ . ومن يدري ، فلعل سراطين البرّ قد أكلت غوردون . او لعله ذاب وماغ

ليس غير .

وفي هورتجن انجمد الجند انجهاذا ؛ كان الجو قارساً الى درجة جعلتهم
ينجمدون بوجوه متوردة . شيء غريب جداً . لقد كانوا كلهم شاحبين
صُفراً مثل المصنوعات الشمعية ، في الصيف . ولكن ما إنت أقبل
الشتاء حقاً حق امست وجوههم متوردة .

ان الجنود الحقيقيين لا يخبرون احداً ، البتة ، كيف بدأ موتهم ،
كذلك قال مخاطباً اللوحة الفنية . ولقد انتهت من هذا الموضوع كله .
ولكن ماذا عن تلك السرية التي أُفْنِيَتْ عن بكرة أبيها عند الجزء
الأعلى من الوادي ؟ اجل ، ماذا عن أولئك الجنود المحترفين ؟

لقد ماتوا ، كذلك قال في ذات نفسه . وفي استطاعتي أن اضرب
وان اذهب الى الجحيم .

والآن من ذا الذي يرغب في ان يقاسمني كأساً من الفالبوليشيلا ؟
في اي وقت تظنين ان علي ان اوقف صنوك ، أيتها الفتاة ؟ ان علينا
ان نمضي الى ذلك الجوهرى . واني لأتطلع منذ الآن الى ارسال النيكات
والى التحدث عن ادعى الاشياء الى البهجة .

ولكن ما البهجة ، أيتها اللوحة الفنية ؟ ينبغي لك ان تعرفي .
فأنت أذكى مني ، برغم انك لم تطوّقي في الارض بقدر ما
طوّفت .

حسن ، أيتها الفتاة القماشية - كذلك قال لها الكولونيل من غير
ان يجهر بالصوت - سوف تُغفل هذا كله ، وبعد احدى عشرة
دقيقة سأوقف الفتاة الحية وعندئذ نمضي الى المدينة ، وتأخذ بأسباب
البهجة ، ونختلفك هنا لكي يلفسوك .

انا لم اقصد ان اكون فظاً . كل ما في الامر اني كنت امزح
في شيء من الخشونة . اني لا اريد ان اكون فظاً أبداً الدهر ،
لأنني سوف احيا معك منذ اليوم . انا ارجو ذلك ، هكذا أضاف ،
وتجرّع كأساً من الخمر .

كان يوماً مشرقاً ، بارداً ، لاذعاً ، ووقفا قبالة واجهة دكان الجوهري
وتأملًا رأسيّ وجسميّ الزنبيين الصغيرين المنقوشين على الابنوس ،
والمرصعين بالجواهر . إن أحدهما لا يقل روعة عن الآخر ، كذلك
قال الكولونيل في ذات نفسه .

— « ايها تفضلين يا بنيّتي ؟ »

— « الذي الى اليمين ، في ما احسب . ألا تعتقد معي أنه ذو
الوجه الأجل ؟ »

— « ان لكل منها وجهاً جميلاً . ولكنني كنت اؤثر أن اكلفه
بخدمتك لو كنا نعيش في العصور الغابرة . »

— « حسن . سوف نشتره . فلندخل ونرى اليها . يتعين عليّ أن
اسأل عن الثمن . »

— « سوف ادخل معك . »

— « ولكن دعني أنا اسأل عن الثمن . فخليقٌ بالجوهري أن يتقاضاني
ثمناً أقلّ مما قد يتقاضاك . فأنت على اية حال ، اميركي موسر . »

— « وأنتِ ؟ رامبو ؟ »

فقالت له الفتاة : « في استطاعتك ان تنتحل شخصية فيرلين على
نحو مضحك الى حد رهيب . ولسوف ننتحل شخصيات مشاهير آخرين . »
— « هيا ادخلي ، يا صاحبة الجلالة ، وسنشترى الجوهرة الذهبية
اللعيّنة . »

- « وأنت لن تصلح كثيراً جداً لانتحال شخصية لويس السادس عشر ايضاً . »

- « أنا مستعد لأن أركب العربية القلابة ^١ معك ، وأظلّ مع ذلك قادراً على ان ابصق . »

- « دعنا ننسى جميع العربات القلابات ، وأحزان الناس كلهم ، ونشتري ذلك الشيء الصغير ، وعندئذ نستطيع ان نتصل تلفونياً بمنزل سيبرياني ، ونصبح من مشاهير القوم . »

وفي داخل المحل نظرا الى الرأسين ، وسألت عن الثمن ، ثم دار حديث جدّ سريع ، وخفض الثمن تخفيضاً كبيراً ، ومع ذلك فقد ظل اكثر مما كان في جيب الكولونيل من المال .

- « سوف اذهب الى منزل سيبرياني واجيء ببعض المال . »

- « لا ، » كذلك قالت الفتاة . ثم التفتت الى المستخدم وازافت : « ضعه في علبة ، وابعث به الى بيت سيبرياني ، وقل ان الكولونيل يريد منهم ان يدفعوا ثمنه ويحتفظوا له به . »

فقال المستخدم : « من فضلك . كما تقولين تماماً . »

وغادرا المحل الى الشارع ، وضياء الشمس ، والريح التي ما تهدأ .

- « وبالمناسبة ، » كذلك قال الكولونيل ، « ان احجارك الزمردية هي موضوعة على اسمك في الصندوق الحديدي بفندق غريتي . »

- « احجارك الزمردية . »

- « لا ، » كذلك قال لها ، ليس في خشونة ، ولكن لكي يجعلها تفهم على نحو حاسم . « ان ثمة أشياء لا يستطيع المرء أن يقدم عليها . إنك تعرفين هذا . فأنت لا تستطيعين ان تتزوجيني ، وانا ادرك ذلك ، »

١ - Tumbril وهي العربية التي كان ينقل بها ضحايا الثورة الفرنسية الى المقصلة وكان المؤلف قد شبه الفتاة بماري انطوانيت في العربية القلابة . راجع الفصل الثاني عشر (المعرب)

على الرغم من اني لا اقرؤه . «
فقلت الفتاة : « حسن جداً . فهمت . ولكن ألا نستطيع أن
تأخذ واحداً منها استجلاً للحظ ؟ »
- « لا . لست استطيع . انها ثينة اكثر مما ينبغي . »
- « ولكن للوحة الفنية ثناً ايضاً . »
- « هذا شيء مختلف . » .

فأقرته على ذلك قائلة : « اجل ، أظن ذلك ، يخيل اليّ اني بدأت
أفهم . »
- « لقد كان خليقاً بي أن أقبل منك فرساً ، لو كنت فقيراً او
شاباً أو شديد البراعة في ركوب الخيل . ولكني لا استطيع أن أقبل
منك سيارة . »

- « الآن فهمتُ المسألة فهماً جيداً . ان نستطيع ان نذهب ،
الآن ، في هذه الدقيقة ، حيث يكون في ميسورك ان تقبلني ؟ »
- « فلنذهب الى هذا الزقاق الجاني ، ان كنت لا تعرفين احداً من
المقيمين فيه . »

- « لست ابالي بمن يقيمون فيه . أنا اريد ان أحسّ بك تضمني في
شدة وتقبلني . »

وانعطفا الى الشارع الجاني ، ومشيا نحو نهايته غير النافذة .

وقالت : « اوه ، ريتشارد ! اوه ، يا عزيزي ! »

- « أحبك . »

- « ارجوك ان تحبني . »

- « انا افعل . »

وكانت الريح قد طيرت شعرها الى فوق وحول عنقه ؛ وقبلها
كرة اخرى وشعرها يلطمه ، حريري الحواشي ، على خديه كليهما .
ثم انها تلمست منه ، فجأة وفي قوة ، ورّنت اليه وقالت : « احسبُ

ان من الخير لنا ان نذهب الى حانة هاري . «
- « احسبُ ذلك . هل تريدن أن يثُل كل منا شخصية من شخصيات
التاريخ ؟ »
فقلت : « أجل ، فلنزع انكَ أنتَ أنتَ وأني أنا أنا . »
فقال الكولونيل : « فلنزع ذلك . »

لم يكن في حانة هاري احدٌ غير بعض المصطحبين^١ المبكرين الذين لم يعرفهم الكولونيل ورجلين يعقدان صفقة تجارية في مؤخرة المشرب .

كانت تمر بحانة هاري ساعات تغصّ فيها بأناسٍ تعرفهم ، في النظامية المندفعة نفسها التي يُقبل بها الكمد عند «مونت سانت ميشيل» . مع فارق واحد ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وهو ان ساعات المد والجزر تختلف كل يوم تبعاً للقمر ، على حين أن الساعات في حانة هاري مثل خط هاجرة غرينتش ، او المتر القياسي في باريس ، او حُسْن رأي العسكريين الفرنسيين في انفسهم .

وسأل الفتاة : « هل تعرفين أياً من هؤلاء المشرب الصباحيين ؟ »
 - « لا . أنا لست ممن يالفون الاصطباح ، ومن اجل ذلك لم ألتق بهم البتة . »

- « سوف يُكنسون عندما يُقبل المد . »
 - « لا ، انهم سوف يفارقون الحانة ، عندما يُقبل ، من تلقاء انفسهم . »
 - « هل تعارضين في الاختلاف الى هنا في غير اوان الاختلاف ؟ »
 - « أتحسبني محدثة نعمة لأنني انتمي الى اسرة عتيقة ؟ إننا نحن الذين ليسوا بمحدثي نعمة . ان محدثي النعمة هم اولئك الذين تدعوم أغراراً

١ - الشاربين الخمر صباحاً .

حقيرين واولئك الذين يملكون كل الثروة الجديدة . هل قدر لك ان ترى ثروات جديدة ضخمة الى هذا الحد ؟ »

فقال الكولونيل : « اجل . لقد رأيتها في « كانساس سيتي » عندما كان من دأبي ان أفد اليها من «فورت رايلي» لألعب البولو في نادي الاقليم . »

- « هل كانت تجربتك هذه رديئة كما هي هنا ؟ »
- « لا . لقد كانت سائغة جدا . لقد احببتُ هذا ، وإن ذلك الجزء من «كانساس سيتي» لجميل جداً . »

- « أهو كذلك فعلاً ؟ لشدّ ما اتمنى لو نستطيع الذهاب الى هناك . وهل لديكم هناك ، أيضاً ، تلك المعسكرات التي نعتزم ان ننزل فيها ؟ »

- « من غير ريب . ولكننا سوف ننزل في فندق «موليباخ» حيث توجد اضخم السرر في العالم ، وسوف تتظاهر بأننا من اصحاب الملايين . »
- « وأين سنترك الكاديلاك ؟ »

- « أهي كاديلاك الآن ؟ »
- « أجل ، الا اذا اردت ان تأخذ الـ «بيوويك» ، طراز « سيد

الطرق » Roadmaster « ذات القيادة الديناميكية الدافقة » Dynaflo drive
لقد قدّتها مجتازة بها طرق اوروبة كلها . ولقد رأيت اعلاناً عنها في آخر عدد بعثت به اليّ من مجلة « فوغ » vogue . »

فقال الكولونيل : « لعل من الخير لنا أن يقودها كلٌ منا في آنٍ . وسواء أقررنا الكاديلاك او البيوويك فسوف نبيتها في المرأب المحاذي لفندق موليباخ . »

- « وهل فندق موليباخ فخم جداً ؟ »
- « إنه رائع . وسوف تحبّينه . وعندما نغادر البلدة سنقود السيارة الى سانت جو ، ونحتسي كأساً في المشرب ، في «الروبيدو» ، وربما

كأسين ، ثم نعبّر النهر وننطلق في اتجاه الغرب ؛ وفي استطاعتنا أن نتناوب . »

— « وما معنى هذا ؟ »

— « معناه ان تقودي انت حيناً واقود انا حيناً . »

— « اني اقود السيارة الآن . »

— « فلنَجْتَزُ الجزء الرتيب ، ونمضي الى «تشيمني روك» ثم الى «سكوتس

بلاف» و «تورينغتون» ، وبعد ذلك يقع ناظرك عليه . »

— « لديّ خرائط الطرق ، وكتب ارشاد المسافرين ، وذلك الرجل

الذي يهديك الى حيث تتناول الطعام ، ودليل A.A.A. الى المعسكرات والفنادق »

— « هل تنفقين في هذه الدراسة وقتاً طويلاً ؟ »

— « اني اقوم بها في الأمسيات ، مستعينة بالأشياء التي زودتني بها .

اي نوع من الاجازة سوف يكون لنا ؟ »

— « ميستوري . ولسوف نشترى السيارة في كانساس سيتي . اننا نركب

الطائرة الى كانساس سيتي ، ألا تذكرين ؟ أو ربما استطعنا ان نقصد اليها

على متن قطار فخم حقاً . »

— « لقد حسبتُ اننا ركبنا الطائرة الى آل بوكيرك . »

— « كان ذلك في مناسبة اخرى . »

— « ولسوف نقف في ساعة مبكرة من الأصيل عند افضل فندق

مذكور في دليل A.A.A. ، من تلك الفنادق التي تؤوي السياح وتؤدي

سياراتهم ايضاً ، ولسوف أُعِدَّ لك ايما شراب ترغبين فيه ، وانت تطالعين

الصحيفة أو تقرئين مجلة «لايف» أو «تائم» أو «نيوزويك» ، في حين اقرأ

أنا العدد الجديد من «فوغ» أو «هاربرز بازار» . »

— « اجل ، ولكننا سوف نرجع الى هنا : ايضاً . »

— « طبعاً مع سيارتنا . على باخرة ايطالية . افخم باخرة تقع

- عليها آنذاك . ولسوف نركب السيارة من جنوا الى هنا مباشرة . «
- « ألا تريدان ان نبني بيتنا تلك في ايما مكان ؟ »
- « لماذا ؟ اتنا نريد ان ننضي الى بيتنا على التو . »
- « واين سيكون بيتنا ؟ »
- « في ميسورنا ان نقرر ذلك في ايما وقت . ان ثمة دائماً عدداً وافراً من البيوت في هذه البلدة . هل تحب ان تقيم في الريف ايضاً ؟ »
- « اجل ، ، كذلك قال الكولونيل . « لم لا ؟ »
- « عندئذ يكون في استطاعتنا ان نرى الاشجار حين نستيقظ . ايّ ضرب من الاشجار سوف نرى في هذه الرحلة ؟ »
- « الصنوبر في الأعم الأغلب ، والقطن على ضفاف الجداول ، والرجاج^١ . انتظري حتى ترَيَ الرجّاج يصفرّ في الخريف . »
- « أنا منتظرة . أين سنقيم في ويومنغ ؟ »
- « سوف نذهب الى شيريدان ، أولاً ، ثم نقرر بعد ذلك . »
- « هل شيريدان جميلة ؟ »
- « إنها فاتنة . ومنقود السيارة الى حيث جرت معركة عربات نقل البضائع ، ولسوف احدثك عن ذلك . ثم نواصل انطلاقنا ، في الطريق الى بيلينغر ، الى حيث قتلوا ذلك المعتوه جورج آرمسترونغ كاستر^٢ ، وفي استطاعتك ان ترَيَ شواهد القبور حيث مات القوم جميعاً ، وسأشرح المعركة لك . »
- « سوف يكون هذا رائعاً . اي المدن أشبه بشيريدان : ماتتوفا ، أم فيرونا ، أم فيسينزا ؟ »
- « ان شيريدان لا تشبه أياً من هذه . انها قائمة قبالة الجبال

١ - ضرب من الحور .

٢ - Custer جنرال اميزكي قاتل الهنود الحمر ١٨٣٩ - ١٨٧٦ . (المغرب)

مباشرة ، مثل سكيو تقريباً . »

— « أهى تشبه كورتينا اذن ؟ »

— « لا ، لا ، هي لا تشبهها بأية حال . ان كورتينا وادٍ في الجبال .
أما شيريدان فتقع قبالة الجبال تماماً . وليس ثمة ايما هضاب مُفضية
الى « القرن الكبير »^١ . انها تنبثق سامقةً من النجد . وفي ميسورك ان
تري قمة السحاب . »^٢

— « وهل ستسلكها سيارتنا كما ينبغي ؟ »

— « انا واثق من ذلك . ولكنى اوثر ان لا نصطنع ايما سيارة
هيدروماتيكية القيادة . »

فقلت الفتاة : « في استطاعتي ان استغني عن ذلك . » ثم انها تماسكت
لكي لا تتفجر الدموع من عينيها ، وازافت : « كما استطيع ان استغني
عن اي شيء آخر . »

وقال الكولونيل : « ما الذي تشربين ؟ اننا لم نطلب حتى الآن
شيئاً ما . »

— « لست احسب انني سأشرب شيئاً . »

فقال الكولونيل للمشري : « كأسين من المارتيني الصّرف ، وزجاجة
ماء بارد . »

ومد يده الى جيبه ، وأدار لولب زجاجة الدواء ثم هزها متناولاً
بيده اليسرى اثنين من اقراصها الضخمة . وبعد ذلك أعاد ادارة اللولب
والقرصان في يده . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة الى رجل ذي
عين معطوبة .

١ - Big Horns سلسلة من الجبال في شمال ويومنتج بالولايات المتحدة (المغرب)
٢ - Cloud's peak هي اعلى قمة في سلسلة جبال «القرن الكبير» ويبلغ ارتفاعها ١٣١٦٥
قدماً . (المغرب)

- « لقد قلت اني لا اريد ان اشرب شيئاً . »
- « ادري ، يا بنيّتي . ولكنني حسبت انك سوف تحتاجين الى كأس . في استطاعتنا ان نبقىها فوق المشرب . او لعل في استطاعتي ان اشربها انا . » ثم اضاف : « ارجوك . أنا لم أرِد أن اكون فظاً . »
- « نحن لم نسأل عن الزنجي الصغير الذي سيُعنى بأمرى . »
- « لا . لأنني لم أرِد أن أسأل عنه الا بعد ان يعود سيبرياني وأصبح قادراً على دفع ثمنه . »
- « أيكون كل شيء صارماً الى هذا الحد ؟ »
- فقال الكولونيل : « عندي أنا ، في ما احسب . أنا آسف ، يا بنيّتي . »
- « قل يا بنيّتي ثلاث مرات في الحال . »
- « هيجا Hija ، فيغلّيا figlia بنيّتي . »
- فقالت : « لست ادري . يخيل اليّ ان علينا ان نغادر هذا المكان . انا احب أن يرانا الناس ، ولكنني لا اريد أن أرى احداً . »
- « اللعبة المشتعلة على الزنجي موضوعة فوق الآلة الحاسبة . »
- « ادري . لقد رأيته منذ فترة . »
- وأقبل المشربيّ حاملاً الكأسين ، مثلوجتّين من برودة الزجاج المثلجة ، والى جانبيهما كأس ماء .
- وقال الكولونيل : « أعطني تلك الرزمة الصغيرة التي جاءت باسمي ، والموضوعة فوق الآلة الحاسبة . قل لسيبرياني اني سوف ابعث اليه بثمانها على صورة شيك . »
- « هل تريدن كأسك ، يا بنيّتي ؟ »
- « اجل ، اذا لم يكن لديك مانع بحول بني وبين تغيير رأيي أيضاً . »
- وشربا ، بعد ان قرعا كأسيهما قرعاً رفيقاً .. رفيقاً الى درجة جعلت احتكاكها لا يكاد يُلاحظ .

- « لقد كنتَ على حق » ، كذلك قالت مستشعرة دفتها وقضاءها المؤقت على الأسى .

- « وكنتِ أنتِ على حق أيضاً » ، وخبأ القرصين في راحة يده .
لقد بدا له ، الآن ، ان أخذهما مع الماء ينمّ عسن ذوق سقيم .
وهكذا لم تكد الفتاة تدير وجهها لحظة لتراقب احد المصطبحين يغادر المكان حتى ازدردهما مع المارتيني .
- « هل تنصرف ، يا بنيتي ؟ »
- « نعم . من غير ريب . »

ونادى الكولونيل المشربيّ وقال : « ما ثن هاتين الكأسين ؟ ولا تنس
أن تخبر سيبرياني اني سأرسل اليه شيكاً مقابل هذا الهراء . »

وتناولوا طعام الغداء في فندق «غريتي» ، وكانت الفتاة قد نزعَت
الغطاء عن الزنجمي الأبنوسي الصغير وعَلَّقته بدبوس على كتفها اليسرى .
كان طوله نحواً من ثلاث بوصات ، وكان رائعاً في عينيك إذا كنت
مولعاً بمثل هذا الضرب من الأشياء . وإذا لم تكن فأنت أبله ، كذلك
قال الكولونيل في ذات نفسه .

وخاطب نفسه بقوله : ولكن عليك ان تقلع حتى عن مجرد التفكير
اللفظ . ان الواجب يقتضيك الآن ان تكون دمثاً في كل شيء الى ان
تلفظ كلمة الوداع . وفكّر : يا لها من كلمة ... كلمة «وداعاً» هذه !
انها تبدو مثل شعار غرامي .

١ ' good bye bonne , chance , hasta la vista . . لقد كان من دأبنا دائماً
ان نكتفي بقول merde ٢ وينقضي الأمر ان كلمة farewell ، كذلك قال
في ذات نفسه ، لفظة حلوة . إن لها في الآذان لوقعاً حسناً ، كذلك
فكر ، اذن farewell ٣ بل farewell طويلة ، تأخذينها معك حيثما تذهبين .
والى أقصى درجة ممكنة ، كذلك فكر .

١ - هذه التعابير كلها تفيد تمني الخير عند الفراق ، الاولى انكليزية . والثانية فرنسية ،
والثالثة اسبانية . (المعرب)

٢ - لفظة فرنسية من معانيها «بش» و «البراز» و «الغائط» . (المعرب)

٣ - تعبير انكليزي بمعنى «وداعاً» (المعرب)

وقال : « يا بني ا منذ متى قلت لك اني احبك آخر مرة ؟ »

— « ليس منذ ان جلسنا الى المائدة . »

— « اني اقول لك ذلك الآن . »

وكانت قد سرتحت شعرها في أثاءة عندما وفدا على الفندق ، وكانت قد شخصت الى الحجرة المخصصة للنساء . كانت تبغض تلك الحجرات .

وكانت قد اصطنعت اصبع الشفاء لتكون الفم الذي عرفت انه يحبه اكثر من اي فم آخر ؛ وكانت قد قالت لنفسها وهي ترسم ذلك الفم على الوجه الصحيح : « لا تفكري البتة . وفوق كل شيء لا تحزني لأنه سوف يمضي الآن لسيله . »

— « انت تبدين جميلة . »

— « شكراً . اني لأحب ان اكون جميلة من اجلك اذا استطعت ،

واذا استطعت ان اكون جميلة . »

— « الايطالية لغة حلوة . »

— « اجل ، هكذا كان يظن مستر دانقي . »

وقال الكولونيل : « ايها المايسترو الاعظم . ماذا عندك من طعام في

هذه الـ wirtchaft ؟ »

وكان المايسترو الاعظم يلاحظ ، من غير ملاحظة ، في محبة ومن غير حسد .

— « هل تريد لحماً ام سمكاً ؟ »

فقا الكولونيل : « اليوم يوم سبت ، السمك ليس إلزامياً . وهكذا

سوف آخذه . »

فقال المايسترو الاعظم : « إنه سمك موسى . ماذا تريد يا سيدتي ؟ »

— « ايما شيء تقرره انت . انت أعلم مني بشؤون الطعام ، وأنا أحب

كل ما تختاره لي . »

... « اتخذي قراراً ، يا بنيّتي . »
- « انا اوثر أن أترك ذلك لمن هو أعلم مني . إن لي شهوة الى
الطعام كشهوة تلميذ في مدرسة داخلية . »

- « سوف اجعلها لك مفاجأة ، » كذلك قال المايسترو الاعظم بوجه
الطويل المحبّ ، وحاجبيه الاشبيين فوق عينين مُقلّنتيّين^١ ووجهه
سعيد ابداً كوجه الجندي العتيق الذي لا يزال على قيد الحياة ، والذي
يقدر هذه الواقعة حق قدرها .

وسأله الكولونيل : « هل لديك أية أنباء عن المنظمة ؟ »
- « ليس ثمة شيء باستثناء ان زعيمنا ، إياه ، في محنة . لقد صادروا
كل ما يملك أو لقد تدخلوا ، على الاقل . »
- « ارجو أن لا يكون ذلك جدّيّاً . »
- « سوف نمنح زعيمنا الثقة . لقد خرج ظافراً من عواصف اسوأ
من هذه . »

فقال الكولونيل : « فلنشرب نخب زعيمنا ! »
ورفع كأسه ، التي كانت قد أترعت بنحمر فالبوليشيلا حقيقية جديدة
مروّقة . و اضاف : « إشربي نخبه^٢ ، يا بنيّتي . »
فقالت الفتاة : « انا لا استطيع ان اشرب نخب ذلك الخنزير . والى
هذا فأنا لست عضواً في المنظمة . »
فقال المايسترو الاعظم : « انت الآن عضو فيها . بفضل الحرب
« Por merito di guerra

فقالت : « سوف اشرب نخبه اذن . هل أنا عضو في المنظمة حقاً ؟ »
فقال المايسترو الأعظم : « نعم . انتِ لما تتلقّي وثيقة عضويتك ،

١ - كان كلا منها تعتمر بقلنسوة .

ولكني اعيتنك سكرتيرة شرف عليا . أدل اليها بأسرار المنظمة ، أرجوك ، يا زعيمي . »

فقال الكولونيل : « سوف أدلي . أليس حولنا ايّ رجل مجدور ؟ »
- « لا . لقد انصرف مع سيدته . مسّ بيديكر . »

فقال الكولونيل : « حسن ، اذن . سوف أدلي بالأمرار . ان ثمة
مرأ رئيسياً واحداً يتعين عليك ان تعرفيه . سددني ، ايها المايسترو
الأعظم ، اذا ما تورّطت في خطأ ما . »

فقال المايسترو الأعظم : « هيا ، استهلّ حديثك . »

فقال الكولونيل : « سوف استهل . إنتبهني جيداً ، يا بنيّتي . هذا هو
السر الأعظم . اسمعي : الحب حبّ والمزاح مزاح . ولكن الهدوء الساجي
يرين كلما ماتت السمكة الذهبية . »

فقال المايسترو الأعظم : « لقد أدلي بها . »

فقالت الفتاة : « انا جد فخورة وسعيدة بأن اكون عضواً في المنظمة .
ولكنها ، بطريقة ما ، منظمة قطة بعض الشيء . »

فقال الكولونيل : « انها كذلك حقاً . والآن ، ايها المايسترو الأعظم ،
ما الذي نستطيع أن نأكله ، فعلاً ، من غير أسرار ؟ »

- « بعض انشيلادا السراطين ، على طريقة هذه البلدة ، ولكنها باردة ،
أولاً . ومسكوبة في الصّدفة . وبعد ذلك تطعمُ انت سمك موسى ،
وتطعمُ سيدتي شيئاً من اللحم المشويّ المخلّط . ما الخضر التي تفضلها ؟ »
فقال الكولونيل : « أيما ضرب موجود عندك . »

ومضى المايسترو الأعظم لسبيله ، ورنّا الكولونيل الى الفتاة ، ثم الى
القناة العظمى خارج النافذة ، ورأى البقع السحرية وتغيرات الضوء
المضطربة حتى هنا ، في أقصى المشرب ، الذي كان قد حوّل بيد ماهرة
صناعٍ ، الى حجرة طعام ، وقال : « هل قلت لك ، يا بنيّتي ، اني

احبك ؟ »

— « انت لم تقل لي ذلك منذ فترة طويلة . ولكنني احبك . »

— « ما الذي يحلّ بالذين يحبون بعضهم بعضاً ؟ »

— « أحسب أنهم يُصيبون ما يصيبونه ، وانهم أعظم سعادة من غيرهم .

ثم ان واحداً منهم يستشعر الفراغ الى الأبد . »

فقال الكولونيل : « لن اكون فظاً . كان في ميسوري ان أُطلق

جواباً خشناً . ولكن ارجوك ، لا تستشعري أيّ فراغ . »

فقالت الفتاة : « سأحاول . ولقد حاولتُ منذ أفقتُ من نومي . بل

لقد حاولت منذ أن عرف احداً الآخر . »

فقال الكولونيل : « تابعي المحاولة ، يا بنيتي . »

ثم التفت الى المايسترو الاعظم ، الذي عاد الى الظهور بعد ان

اصدر اوامره ، وقال : « زجاجة من تلك الخمر الصرف *Vino secco* ،

من فيزوف^١ ، من أجل سمكات موسى الصغيرة . ان عندنا خمر الـ

«فالبوليشيلا» للأشياء الأخرى . »

فسأله الفتاة : « ألا تستطيع أن احتسي خمر فيزوف مع اللحم المشوي

المخلط ؟ »

فقال : « طبعاً ، يا ريناتا ، يا بنيتي . في استطاعتكِ ان تفعلي

اي شيء . »

— « انا احب ان احتسي عين المسكرات التي تحتسيها انت ، اذا ما

احتسيتُ الخمر . »

فقال لها الكولونيل : « الخمر البيضاء ، الجيدة سائغة مع اللحم المشوي ،

في سنّك . »

— « كنت اتمنى لو لم يكن بيننا مثل هذا الاختلاف في السن . »

١ — بركان «فيزوف» الشهير ، قرب نابولي . (المعرب)

فقال الكولونيل : « أنا احب ذلك كثيراً . » ثم اضاف : « باستثناء ... »
ولكنه لم يتم ما كان يريد ان ينص عليه . وقال : « فلنكن ناضرين متوردين
كشأننا يوم المعركة fraîche et rose comme au jour de bataille
- « من قال هذا الكلام ؟ »

. « ليس لديّ اقل فكرة . لقد تلقفته يوم تلقيت بعض الدروس
في « كلية المارشالات » Collège des maréchaux . انه اسم ينم عن شيء
من الادعاء . ولكنني تخرّجت . إن ما اعرفه احسن المعرفة تعلمته من
النمساويين .. من دراستي ايام ومقاومتي لهم . انهم خير الجنود .
ولكنهم يضيعون النصر ، دائماً لفرط اجهادهم النفس من اجل الفوز به . »
- « فلنكن مثل ما قلت ، وارجوك ان تقول لي انك تحبني . »
فقال : « احبك . ذلك شيء تستطيعين ان تثقي به . فأنا أصدّقك »
القول . »

وقالت : « اليوم السبت ، ما سيكون السبت القادم ؟ »
- « السبت القادم عيد غير ثابت التاريخ ، يا بني . أعطيني رجلاً
يستطيع أن يحدثني عن السبت القادم . »
- « كان في استطاعتك ان تحدثني لو شئت . »
- « سأسأل المايسترو الاعظم ، فلعله يعرف . أيها المايسترو الأعظم ،
متى سيقع السبت القادم ؟ »

فقال المايسترو الاعظم : « في الفصح او في عيد الثالوث الأقدس . »
- « لماذا لا تصلنا من المطبخ اية روائح تنعشنا ؟ »
- « لأن الريح تهب من الوجهة المعاكسة . »
أجل ، كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه . ان الريح
تهب من الوجهة المعاكسة ، ولم كان خليقاً بي أن اسعد لو حظيت بهذه
الفتاة بدلاً من تلك المرأة التي ادفع لها نفقة ، والتي عجزت حتى عن
انجاب ولد . لقد أجرت نفسها من اجل ذلك . ولكن من ذا الذي

يجب ان ينتقد «أنايب» الآخر ؟ انا لا انتقد غير «غودريتش» ، او «فايرستون» او «جنرال..»

وقال لنفسه : احتفظ بنظافة تفكيرك . وأحبّ فتاتك .
كانت الآن الى جانبه ، تتمنى لو تُحَبّ ، اذا ما كان لديه شيء
من الحب يمنحه .

وعاودته ، كما عاودته دائماً ، عندما رآها ، وقال : « كيف انتِ بشعر
جناح الغراب وبالوجه الذي يكسر القلب ؟ »
— « انا في أحسن حال . »

فقال الكولونيل : « ايها المايسترو الاعظم . أنفحنـا ببعض الروائح أو
بشيء من مطبخك الخلفي المحجوب ، حتى ولو كانت الريح ضدنا . »

كان بواب الردهة قد تلفن ، بأشارة من بواب الفندق ، وكان الزورق البخاري هو عين ذلك الذي امتطيا متنه من قبل . وكان جاكسون في الزورق ، ومعه الامتعة والصورة الزيتية ، ملفوفة على نحو حسن محكم . وكانت الريح لا تزال تهب عاصفة . وكان الكولونيل قد دفع فاتورته ومنح البخاشيش المناسبة . وكان مستخدمو الفندق قد حملوا الامتعة والصورة الى الزورق ورأوا ان جاكسون قد استوى قاعداً فيه . ثم انقلبوا الى الفندق .

وقال الكولونيل : « حسناً يا بنيقي . »

— « ألا تستطيع أن أمضي معك الى المرأب ؟ »

— « سوف يكون الوضع على مثل هذا السوء في المرأب . »

— « ارجو أن تجيز لي ركوب الزورق الى المرأب . »

فقال الكولونيل : « حسن جداً . انها فرصتك المتاحة ، حقاً . إنزلي . » ولم يتحدث قط . وكانت ريحاً خلفية بحيث بدا ، أيا ما كانت السرعة التي انطلق بها المحرك العجوز التالف ، وكأنه لم يكن ثمة ريح البتة . وعند المهبط ، حيث راح جاكسون يدفع الامتعة الى احد المحالين ويُعني بالصورة الزيتية بنفسه ، قال الكولونيل : « هل تريدان ان نقولي لي كلمة الوداع هنا ؟ »

— « أيتعين علي ذلك ؟ »

— « لا . »

— « هل تسمح لي أن أمضي الى مشرب المرأب ريثما تنزلون السيارة ؟ »

- « سوف يكون هذا أشد سوءاً . »

- « لست. أبالي . »

- « إحمل هذه الأشياء الى المرائب وكلّف شخصاً ما بالمحافظة عليها
ريثاً تُنزل السيارة ، » كذلك قال الكولونيل لجاكسون . « افحص بنادقي
واحزم هذه الأشياء بحيث تُبقي أكبر حيز ممكن في المقعد الخلفي . »
فقال جاكسون : « سمعاً وطاعة ، يا سيدي . »

وسأله الفتاة : « أنا ذاهبة اذن ؟ »

فقال لها الكولونيل : « لا . »

- « لماذا لا أستطيع ان اذهب ؟ »

- « انت تعرفين جيداً . انك غير مدعوة . »

- « لا تكن خبيثاً ، ارجوك . »

- « يا للمسيح ! ليتك ، يا بني ، تعرفين كم احاول ان لا اكون
كذلك . إنه لمن اليسير على المرء ان يكون خبيثاً . والآن ، فلندفع الى
هذا الرجل اجرتة ، ولنمض فنجلس على المقعد الذي هناك ، تحت
الشجرة . »

ودفع الاجرة الى صاحب الزورق البخاري وقال له انه لم ينسَ ما
كان قد وعدهُ به من تزويده بمحرك سيارة « جيب » . وقال له ان لا
يتكل عليه كل الاتكال ، ولكن أمه كبير في أن يوفق الى الفوز
بالمحرك .

- « سوف يكون محركاً مستعملاً . ولكنه سيكون خيراً من ركوة

القهوة هذه التي تدير زورقك الآن . »

وارتقيا درجات السلم المبريئة ، ومشيا عبر الحصى ، وجلسا على مقعد
تحت الاشجار .

كانت الاشجار سوداء ، وكانت تتأيل مع الريح ، ولم يكن عليها
اوراق البتة . كانت الاوراق قد تساقطت في وقت مبكر ، تلك السنة ،

وكانت قد كُنِست منذ عهد بعيد .
وأقبل رجلٌ فعرض عليها شراء بعض البطاقات البريدية ، ولكن
الكولونيل قال له : « اغرب من هنا ، يا بني . لسنا الآن في حاجة اليك . »
كانت الفتاة تبكي ، اخيراً ، برغم أنها كانت قد عقدت العزم على ان
لا تبكي ابداً .

وقال الكولونيل : « انظري ، يا بنيّتي . ليس ثمة شيء نقوله .
إنهم لم يضعوا «ممتصات الصدمات» في هذه العربة التي نركبها الآن . »
فقالت : « لقد كففتُ عن ذلك . انا لست هستيرية المزاج . »
— « لست انزع الى القول انك كنتِ كذلك . لا ، يخيّل اليّ
أنك أبهى فتاة ، وأجمل فتاة ، قدّر لها أن تحيا على ظهر هذه الارض .
في ايما زمان . وايما مكان . »

— « لو صحّ هذا فأنيّ فرق يُحدثه ؟ »
فقال الكولونيل : « لقد غلبتني في ذلك . ولكنه صحيح . »
— « والآن ما الذي سنفعله ؟ »
— « الآن سوف تنهض ، وتبادل القُبَل ، ونقول وداعاً ! »
— « وما ذاك ؟ »

فقال الكولونيل : « لست ادري . يخيّل اليّ أنه احد الأشياء
التي يتعين على كل امرئ أن يتصورها بنفسه . »
— « سأحاول أن أتصوره . »

— « ليس عليك إلا أن تهوّئي عليك ، جهد طاقتك ، يا بنيّتي . »
فقالت الفتاة : « اجل ، في العربة غير المزوّدة بممتصات صدمات ! »
— « لقد كنتِ طعاماً للعربة القلابة منذ البدء . »
— « ألا تستطيع أن تفعل ايما شيء بلطف ودماثة ؟ »

١ — هي العربة التي كانت تنقل ضحايا الثورة الفرنسية الى المقصلة (المعرب)

- « احسب اني لا استطيع . ولكني حاولت . »
- « ارجوك ان تواصل المحاولة . ذلك هو كل الأمل الذي لنا . »
- « سوف اواصل المحاولة . »
وهكذا شدّها اليه وشدته اليها في احكام ، وتبادلا القُبَل في قوة
وحرارة ، وقاد الكولونيل الفتاة عبر المجاز المفروش بالحصى ومن ثم الى
السلم الحجرية .
- « يتعين عليك أن تأخذي زورقاً جيداً . لا ذلك الزورق البخاري
العتيق ذا المحرك المنفي من وطنه . »
- « اني لأوثر ان آخذ الزورق البخاري العتيق اذا لم يكن لديك
مانع . »
فقا الكولونيل : « مانع ؟ لست انا من يمانع . انا اصدر الاوامر
وأطيع الأوامر ليس غير . لا ، لست امانع . وداعاً ، يا حلوتي العزيزة
الفاتنة ! »
فقلت : « وداعاً ! »

كان في البرميل السندياني الغائر الذي كان من دأبهم ، في البندقية ، أن يتخذوا منه حجاباً واقياً . والحجاب الواقى هو كل أداة تصطنعها لكي تخبىء القانص عما يحاول أن يقنصه . اى عن البط في هذه الحالة . كانت رحلة مائة مع الفتية ، منذ أن التقوا في المرأب ، وليلة سعيدة مع طعام ممتاز مطهو في المطبخ ذي المستوقد العتيق المكشوف . وركب ثلاثة من القناصة في المقعد الخلفي ، في طريقهم الى موطن القنص . وكان الذين لم يكذبوا قد اجازوا لأنفسهم مقداراً من المبالغة ، على حين كان الكذابون في أوج ازدهارهم .

ان الكذاب ، في اوج ازدهاره ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، بديع مثل شجرات الكرز ، او شجرات التفاح ، حين تكون منورة . ومن ذا الذي ينزع الى تثبيط كذاب من الكذابين ، كذلك فكر ، إلا اذا كان يعين لك موقع نقطة او خط وما اليهما ؟

كان الكولونيل قد جمع الكذابين طوال حياته ، كما يجمع بعض الناس طوابع البريد . انه لم يصنفهم الا مؤقتاً ، ولم يكنزهم في حرص حريص . لقد اكتفى بمجرد الاستمتاع ، على نحو كامل ، بسماعهم يكذبون في اللحظة العابرة ، الا اذا شمل الكذب شيئاً ذا صلة بالواجب ، طبعاً . واللية البارحة راجت للكذب الصالح سوق حسنة بعد أن اديرت الـ « غرابتا » ؛ ولقد استمتع الكولونيل بذلك .

وكان الدخان المنبعث من نار الفحم المكشوفة قد انتشر في الحجرة ؛
لا ، لقد كان ثمة حطب ، كذلك قال في ذات نفسه . وعلى أية حال ،
فالكذاب يكذب على النحو الأفضل حين يكون ثمة قليل من الدخان ،
او حين تكون الشمس قد توارت بالحجاب . .

وكان هو نفسه قد حاذى الكذب مرتين اثنتين ، ثم استعصم ،
واجتزأ بمجرد المبالغة . اني ارجو هذا ، كذلك فكر .
والآن ها هو ذا اللاغون^١ المنجمد الذي يفسد كل شيء . ولكنه لم
يُفسد شيئاً .

وفجأة اقبل زوج من البلبول^٢ ، من لا مكان ، وانحدرا بسرعة في
ضرب من الغوص لم تقم بمثله ايا طائرة من الطائرات في ايام يوم ،
وسمع الكولونيل مسارهما الرئش وقتل الذئكر . لقد انطرح الطائر
الصريع على الجليد مرتطماً به كأقسي ما تستطيع بطة أن ترتطم
بالجليد . وقبل أن يمس الأرض كان الكولونيل قد قتل انثاه ، التي كانت
تصعد طويلة العنق بسرعة .

لقد سقطت في محاذاة الذكر .

واذن فهذه جريمة قتل ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .
واي شيء ليس جريمة قتل في هذه الأيام ؟ ولكنك لا تزال قادراً ،
ايها الغلام ، على اطلاق النار . يا للجحيم ، ايها الغلام ، كذلك فكر .
ايها النغل العجوز البالي . ولكن أنظر اليها الآن وهي تقبل .
كانت من ذلك البط المعروف بالبط الأصلع ، ولقد أقبلت في سرب

١ - Lagoon المستنقع او البحيرة الضحلة ، وخاصة ما اتصل منها بالبحر والنهر أو
كان قريباً منها . (المغرب)

٢ - Pin-tail وهو نوع من البط . (المغرب)

تراصت وحَداته ثم انتشرت على غير طائل ، ثم تراصت من جديد
وشرعت البطة الحادة التي على الجليد تتحدث اليها .

وقال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه : دعها تستدير كرة اخرى .
أبق رأسك منكساً ولا تحرك حتى عينيك . انها تعتزم أن تفيد .

ووفدت على خير وجه ، وقد تحدثت الخداع اليها .
وفجأة مالت أجنحتها الى الهبوط كشأنك حين تنخفض أهداب
شراع . ثم انها رأت انها انما تحط على جليد فنهضت ، مصعدة .

ونهض القانص - الذي لم يكن الآن كولونيلاً ، او ايما شيء آخر
غير صياد بندقية في البرميل الخشي وأصاب بناره بطتين . لقد سقطتا على
الجليد بمثل الصلابة التي تسقط بها البطات الضخام تقريباً .

وقال الكولونيل : « حسي اثنان من اسرة واحدة . أم انها كانت
قبيلة واحدة ؟ »

وسمع الكولونيل طلقة وراءه ، من حيث كان يعرف أنه لم يكن ثمة
اي حجاب آخر واقٍ ، فالتفت لينظر عبر اللاغون المنجمد الى الشاطئ
البعيد المكتنف بنبات الحلفاء .

إن هذه لتؤلف قبيلة ، كذلك فكر .
كان سرب من البط البري ، الوافد على ارتفاع منخفض ، يحلق
في السماء محنقاً غاضباً ، وقد بدت كل بطة منه في تصعيدها ، وكأنها
واقفة على ذيلها .

وبصر بواحدة تهوي ، ثم سمع طلقة اخرى .
كان المراكبي النكد يطلق النار على البطات التي كان خليقاً بها أن
تفيد على الكولونيل .

وقال الكولونيل : « كيف ، كيف أجاز لنفسه ان يفعل ذلك ؟ »
كانت لدى الرجل بندقية رشٍ يطلق منها النار على ايما طائر أعرج
يفر بنفسه الى حيث لا يستطيع الكلب أن يمسك به . وكان اطلاقه

النار على البطات الوافدة على حجاب الكولونيل الواقي يُعتبر ، في القنص ،
أسوأ شيء يستطيع امرؤ أن يغيظ به امرأ آخر .

وكان المراكبيّ أبعد من أن يسمع أيما صيحة . ومن أجل ذلك
أطلق الكولونيل النار تجاهه مرتين . ان الشقة أبعدُ من أن تجتازها
الرصاصات الصغار ، كذلك فكّر ، ولكنه سوف يعرف على الأقل أني
اعلم ما يفعل . علام هذا كله ، بحق الجحيم ؟ وفي قنص رائع التنظيم
مثل هذا ايضاً ؟ ان هذا القنص خير قنوص البط التي أُتيحت لي
عمري كله حسنَ تنظيم وبراعة تدبير . ولقد استمتعت هنا بالقنص
اكثر مما استمتعت به في ايما يوم من ايام حياتي . فما الذي عرا ابن
العاهرة ذاك ؟

كان يعلم مدى الغضب الذي استبد به . وهكذا أخذ اثنين من
الاقراص ، وازدردهما بشربة من «جن» غوردون من قارورته ؛ اذ لم
يكن ثمة ماء .

وكان يعرف ان الـ «جن» يؤذيه . وقال في ذات نفسه : كل شيء
يؤذيني ما عدا الراحة وبعض التمرينات الرياضية الخفيفة جداً . حسن ،
الراحة والتمرينات الرياضية الخفيفة ، ايها الغلام . هل تحسب هذا تمريناً
رياضياً خفيفاً ؟

أنتِ يا تمثال الجمال ، كذلك قال في ذات نفسه . لشدة ما أتمنى لو
كنتِ هنا الآن ، ولو كنا ضمن الحجاب المزدوج ، ولو استطعنا ان
نستشعر أعقاب منكبينا تماسّ وتلاقى ! إذن لكان خليقاً بي أن التفت
وأرنب اليك ، وإذن لسدّدت النار الى البطات المحلقات تسديداً موفقاً ،
إظهاراً لبراعتي وتباهياً بها ، وإذن لحاولت أن أسقط واحدة منها
في الحجاب الواقي من غير أن أدعها تمسك . سوف احاول ان أسقط
واحدة هكذا ، كذلك قال ، سامعاً حفيف الأجنحة في الهواء . ونهض

واستدار ، وبَصُرَ بالذكر المفرد ، طويل العنق وسباً ، وقد صفق بجناحيه مندفعاً في سرعة مرتحلاً نحو البحر . لقد رآه رشيقاً جلياً وفي السماء وقد بدت الجبال وراءه . وواجهه ، وسدّد بندقيته اليه ، وضغط على زنادها ، فيما كان يرتد الى الوراء ما وسّعه الارتداد .

وهوى ذكر البط على الجليد ، خارج حدود الحجاب الواقى تماماً ، ولقد كسر الجليد عندما هوى . كان هو ذاك الجليد الذي سبق ان كُسِرَ لاقتلاع الطيور الخشبية الخادعة ، وكان قد انجمد كرة اخرى انجماداً خفيفاً . ونظرت البطة الداعية اليه وهو ينطرح على الجليد ، وازاحت قدميها .

وقال الكولونيل للبطة : « أنتِ لم تربيهِ في حياتكِ قط من قبل ، بل لست أعتقد انكِ رأيتهِ يُقبل . برغم انكِ ربما رأيتهِ . ولكنكِ لم تقولي شيئاً . »

كان ذكرُ البط قد هوى فاكس الرأس ، وكان رأسه تحت الجليد . ولكن الكولونيل استطاع ان يلمح الريش الشتوي الجميل على صدره وجناحيه .

لشدّ ما أتمنى لو اقدم اليها صورة مصنوعة من كامل ريش البط ، على نحو ما كان اهل المكسيك القدامى يفعلون تزييناً لآلهتهم ، كذلك قال في ما بينه وبين نفسه . ولكنني احسب ان هذه البطّات يجب ان تمضي الى السوق ، ولن يكون ثمة من يعرف كيف يسلخها ، وكيف يدبغ جلودها على اية حال . ومع ذلك ، فخليق بتلك الصورة ان تكون جميلة ، وقد جعل ظهرها من جلد ذكور البط البري ، ورسم على صدرها غصنٌ طريٌّ موشحٌ بخطّين طوليين من جلد الحذف^١ الشتوي . وكل خط منها ينحدر فوق واحد من الثديين . انها سوف تكون صدرة فاتنة الى حد جهنمي ! أنا على اتم اليقين من انها سوف تعجبها .

١ - ضرب من البط البري .

وفكر الكولونيل : اني لأتمنى لو تطير . إن بعض البطات المحقاوات قد تفيد : ويتعين عليّ أن أبقى مستعداً لها اذا ما فعلت . ولكن أياً منها لم تفيد . فكان عليه ان يفكر .

ولم تنطلق من الحُجُب الاخرى اية طلقات نارية ، على حين انطلقت بين الحين والحين ، من البحر طلقات معدودات .

ومع سطوع الضياء امسى في استطاعة الطير أن ترى الجليد ، فكفت عن الوفود منطلقة - بدلاً من ذلك - الى عرض البحر لكي تشكل طوفاً عائماً . وهكذا لم يعاود اطلاق النار ، وأنشأ يفكر من غير قصد ، محاولاً ان يكتشف ما الذي اوقع في قلبه حبها ، أول ما أوقعه . لقد عرف أنه لا يستحقه ، ولقد قبله بقبول حسن ، وعاش به ، ولكنه حاول - دائماً - أن يفهمه .

لقد كانت السبب في ذلك ، مرةً ، جنديين من جنود الاسطول ، فيما كان يتمشى مع الفتاة في موهن من الليل . كانا قد «عاكساها» بالصفير ، وكان هذا - كذلك فكر - شيئاً لا ينطوي على كبير أذى ، وكان عليه ان يغض الطرف عنه .

بيد انه كان في ذلك الصغير معنى لا يدعو للارتياح . لقد أحس به قبل أن يعرفه . ثم عرفه معرفة اليقين ؛ ذلك بأنه وقف تحت مصباح ما لكي يكون في ميسورها أن يريا ما الذي يزّين كتفيه ، عساه يضيان الى الجانب الآخر من الطريق .

كان ما زّين كتفيه نسرأ صغيراً مبسوط الجناحين . كان مطرّزاً على السترة التي ارتداها بنحيط فضي . انه لم يكن جلياً ، ولقد كان ثمة منذ عهد بعيد . ولكنه كان مرثياً .

وصفّر الجنديان البحريان كرة اخرى .

وقال الكولونيل للفتاة : « إبقى هنا في محاذاة الجدار اذا كنت راغبة في رؤية ما سيحدث ، وإلا أشيحي بوجهك . »

- «إنهما ضخمان فتیان .»
- «لن يظلاّ ضخمين طويلاً ،» كذلك وعدما الكولونيل .
وتقدم الكولونيل نحو الصافرين .
وسألها : «أين خفركما الساحلي ؟ .»
فقال اضخم الرجلين : «ومن أين أعلم ؟ كل ما أريده هو نظرة»
طويلة الى السيدة .»
- «هل لأمثالكما من الناس أسماء وأرقام متسلسلة ؟»
- «وكيف لي أن أعرف ؟» كذلك قال واحد منها .
وقال الآخر : «حتى لو عرفت لما انبأت بذلك كولونيلاً غراً .»
إنه جندي عتيق ، كذلك فكر الكولونيل قبل أن ينقض عليه .
محامٍ بحري . يعرف حقوقه كلها .
ولكنه لكه بيسراه لكات قاسية ، ولكه ثلاث مرات فيما هو
ينصرف لسبيله .
أما البحري الآخر ، الصافر الأول ، فردّ على الكولونيل بضربات
مكنة ، بالنسبة الى رجل ثمل ، فأقحم الكولونيل مرفقه في فمه ، ثم
سدّد إليه - على ضوء المصباح - لكّة قوية بيده اليمنى . حتى اذا تم له
ذلك نظر الى الصافر الثاني ، ورأى ان كل شيء حسن .
ثم انه لكه بيسراه ، وغرس ذراعه اليمنى في جسده ، وبعد ذلك
سدّد اليه كفه الأيسر لكّة اخرى ، ثم استدار ، وتقدم نحو الفتاة ،
لأنه لم يرد ان يسمع الرأس يرتطم بحصباء الطريق .
وألقى نظرة على الذي تلقى لكّاته أولاً ولاحظ انه يرقد في سلام ،
فاكس الذقن ، وان الدم كان يتفجر من فمه . ولكنه كان لا يزال طبيعياً ،
كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه .
وقال للفتاة : «حسنًا» ، هكذا تضيع حياتي . أياً ما كان معنى ذلك .
ولكن هؤلاء الناس يرتدون سراويل مضحكة .»

- فسأله الفتاة : « كيف انت الآن ؟ »
- « انا في حالة رائعة . هل شهدت المعركة ؟ »
- « نعم . »
- « سوف أشكو ألماً في اليدين غداً صباحاً ، كذلك قال الكولونيل شارد الذهن . » ولكنني أحسب ان في استطاعتنا ان ننأى بنفسينا عن هذا المكان . ولكن فلنمشِ على مهل . »
- « ارجوك ان تمشي على مهل . »
- « انا لم اقصد الى ذلك . لقد قصدت ان اقول : يحسُن بنا أن لا تتعجل الرحيل . »
- « سوف نمشي بأبطأ ما يستطيع شخصان أن يتحدثا . »
- ومشيا على ذلك النحو .
- « هل تريدان أن تقومي بتجربة ما ؟ »
- « طبعاً . »
- « فلنمشِ بحيث تبدو حتى أعقابُ أقدامنا خطرةً خيفة . »
- « سأحاول . ولكنني لا احسب اني أستطيع ذلك . »
- « حسن . فلنكتفِ بمجرد المشي اذن . »
- « ولكن ألم يسدّدا إليك ضربة ما ؟ »
- « أجل ، ضربة قوية واحدة خلف الأذن تماما . سدّدها اليّ الغلام الثاني حين أقبل . »
- « أعلى هذا النحو يجري القتال ؟ »
- « حين يكون المرء محظوظا . »
- « وحين يكون غير محظوظ ؟ »
- « عندئذ تلتوي ركبتيك أيضاً . إما الى الأمام وإما الى الوراء . »
- « ألا تزال تبالي بي بعد أن خضت غمار تلك المعركة ؟ »

« انا احبك الآن اكثر مما احببتك من قبل بكثير ، اذا كان ذلك ممكناً . »

« أهو أمر متعذر ؟ لو أمكن هذا اذن لكان رائعاً ! لقد أصبحت احبك اكثر منذ رأيت ذلك الشيء . أسائرة ؟ أنا ببطء كافٍ ؟ »

« أنت تسيرين مثل أيل في الغابة ، وفي بعض الاحيان تسيرين مثل ذئب ، او مثل قيوط^١ ضخمة عجوز حين لا يكون 'معجلاً' . »

« لست متأكدة من اني احب ان اكون قيوطاً ضخماً عجوزاً . »
فقال الكولونيل : « انتظري حتى ترَي واحدأ . وعندئذ ستترغين في ان تكوني مثله . انت تسيرين مثل جميع الحيوانات الضارية الكبرى حين تسير في رفق . ولست انتِ بحيوان ضارٍ . »

« هذا شيء استطيع ان اعدك به . »

« تقدميني في المشي ، بعض الشيء ، حتى أستطيع ان ارى . »

ومشت أمامه ، فقال الكولونيل : « انت تسيرين مثل بطل رياضي قبل ان يصبح بطلاً رياضياً . ولو قد كنتِ فرساً اذن لاشتريتكِ ولو تعين عليّ أن اقترض المال بفائدة مقدارها عشرون بالمئة في الشهر الواحد . »
« لن يتعين عليك أن تشتريني . »

« اعرِف ذلك . لم يكن هذا هو موضوع نقاشنا . كنا نتحدث عن

مشيتكِ . »

فقالت : « قل لي ما الذي سيحل بدينك الرجلين ؟ هذا واحد من الاشياء التي لا اعرفها عن القتال . ألم يكن من واجبنا أن نبقي ونُغنى بها ؟ »
فأجابها الكولونيل : « لا ، على الاطلاق . تذكري هذا : على الاطلاق . ارجو ان يتقاسما صدمة عنيفة . ان في استطاعتها ان يُنتِنَا . انها هما اللذان سببا الحادث . وليس ثمة قضية من قضايا المسؤولية المدنية . لقد

١ - cayote ضرب من الذئب الاميركية . (المرب)

كنا كلنا مؤمنين . ليتني استطيع ان اخبرك شيئاً واحداً ، يا رينا ، عن القتال !

— « اخبرني ، ارجوك . »

— « اذا ما قدّر لك ، ذات يوم ، ان تقاتلي فعندئذ يتعين عليك ان تكسي المعركة . هذا هو الشيء الوحيد ذو القيمة . وكل ما بقي فهو كرنب او ملفوف ، كما عثر صديقي القديم الدكتور روميل . »

— « هل احببت روميل حقاً ؟ »

— « حباً جداً . »

— « ولكنه كان عدوك . »

— « انا احب اعدائي ، في بعض الأحيان اكثر من اصدقائي . الاسطول كما تعلمين ، يكسب جميع المعارك التي يخوضها . ذلك شيء تعلمته في مكان يدعى مبنى البانتاغون^١ ، عندما كان لا يزال مجازاً لي ان ادخل ذلك المبنى من الباب الامامي . ان في استطاعتنا ، اذا شئت ، ان نتمشى عائدين في هذا الشارع ، او ان نجتازه في سرعة ونطرح هذا السؤال على ذينك الرجلين . »

— « اصدقك القول ، يا ريتشارد . لقد رأيت من القتال مقداراً يكفيني لهذه الليلة . »

— « وأنا ايضاً ، اذا اردت ان اصدقك القول . » قال الكولونيل ذلك ، ولكنه قاله بالاطالية ، ولقد استهل كلامه بـ Anche io^٢ ثم أضاف : « دعينا نذهب في جملة الأماكن التي نذهب اليها الى فندق هاري ، وبعد ذلك سأوصلك سيراً على الاقدام الى بيتك . »

١ — هو المبنى الذي يضم معظم دوائر الجيش الاميركي ، (المعرب)

٢ — وتعني بالاطالية: «وانا ايضاً» (المعرب)

- « ألم تؤذِ يدك المعطوبة ؟ »
فأوضح قائلاً : « لا . لقد قذفتُ بها مرةً الى الرأس ليس غير . أما
في المرات الأخيرة فقد لكتُ بها الجسد . »
— « هل تجيز لي ان المسها ؟ »
— « إذا وعدتني بلمسها في رفق . »
— « ولكنها متورمة على نحو رهيب . »
— « ليس فيها ايما شيء مكسور ؛ وهذا الضرب من الورم من دأبه
دائماً ان يتطامن^١ . »
— « هل تحبني ؟ »
— « نعم . انا احبك بيدين متورمتين في اعتدال ، وبكل قلبي . »

١ — ينخفض وتزول حدته .

واذن فقد كان ذلك الحادث ، وربما كان ذلك اليومُ او ربما يومٌ آخر ، هو الذي اجترح المعجزة .^١ انك لم تكن في أيما يوم واثقاً من هذا ، كذلك قال في ذات نفسه . كانت المعجزة الكبرى قائمة ، ولم يكن هو قد عمل على تحقيقها شعورياً ، البتة . لا ، ولكنك يا ابن العاهرة ، كذلك فكر ، لم تقاومها قط .

كان الجو ابرد منه في ايما وقت مضى ، وعاد الجليد المحطّم فأنجمد كرة اخرى ، ولم ترفع البطة المغرورة حتى بصرها الآن . كانت قد هجرت الخداع ، في محاولة التماس السلامة .

يا لك من عاهرة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . برغم ان هذا ظلم . انها حرقتك . ولكن ما الذي يجعل البطة اقدر على التغيرير من ذكر البط ؟ ذلك امرٌ ينبغي ان لا يغيب عن فطنتك ، كذلك قال في ذات نفسه . وحتى هذا غير صحيح . ولكن اي شيء ، بحق الجحيم ، هو صحيح ؟ ان ذكور البط ، في الواقع ، أقدر على التغيرير والخداع .

والآن لا تفكر فيها . لا تفكر في ريناتا ، لأن ذلك لن يعود عليك بأي خير ، أيها الغلام . بل انه قد يكون مؤذياً لك ايضاً . ثم انك قلت لها كلمة الوداع . وما اروعها من كلمة وداع اكانت كاملة بكل ما

١ - يقصد معجزة حبها له . (المعرب)

في الكمال من معنى . ولقد كان خليقاً بريئاً أن تصعد معك ايضاً الى
العربة القلابة اللعينة . ما دامت عربة قلابة حقيقية . إنها صناعة جد وعرة ،
كذلك قال في ذات نفسه ، ان يجب المرء ثم يرحل . فالتاس قد يصابون
من جراء ذلك بأذى .

من الذي اعطاك حقاً في معرفة فتاة مثل هذه ؟
لا احد ، كذلك اجاب . ولكن آندريا قدمني اليها .
ولكن كيف استطاعت ان تحب ابن عاهرة كئيباً مثلك ؟
لست ادري ، كذلك فكر صادقاً مع نفسه . اني ، في الحق ، لست
ادري .

انه لم يكن يدري ، في جملة ما كان يحمله ، ان الفتاة احبته لأنه لم
يكن في ايما صبح من أصباح حياته محزوناً ، سواء أكان ثمة هجوم أم
لم يكن ثمة هجوم . لقد ذاق الألم المبرح والأسى . ولكنه لم يكن في
ايما يوم من الايام محزوناً في الصباح .

ان الألم والأسى نادراً ما يجعلان المرء كذلك . ولقد عرفت الفتاة ،
برغم انها كانت فتاة صغيرة ، واحداً من هؤلاء عندما رأت واحداً .

وقال الكولونيل في ذات نفسه : انها الآن في البيت ، مستسلمة
للرقاد . ذلك هو المكان الذي ينبغي لها أن تكون فيه ، لا في أي من
حُجُب الصيد اللعينة هذه ، وقد انجمدت الطيور الخشبية الخادعة
من حولنا .

ومع ذلك ، فلشد ما أتمنى لو انها كانت هنا ، لو كان هذا الحجاب
الواقى مزدوجاً ، ولشد ما أتمنى لو كانت الى جانبي ترنو الى الغرب ،
لحظة وقد سرب من اسراب البط . ولسوف يكون كل شيء جميلاً
اذا ما استشعرت دفئاً كافياً ، ومن يدري ، فلعلني استطيع ان اشترى

من امرىء ما احدى هذه السرات الحقيقية التي لم يبعمها قط احدٌ
من فاز بها . تلك السرات التي وزعوها ذات يوم ، خطأ ، على رجال سلاح
الطيران .

في استطاعتي ان اكشف طريقة تضريب تلك السرات ، وان اصنعَ
واحدةً من جلد البط المصيد هنا ، كذلك قال في ذات نفسه . ولسوف
اعهد في تفصيلها الى خياط بارع ، ولسوف نجعلها بصّفيّ أزرار ، من
غير ما جيب في الجانب الأيمن ، ونضع فوقها عصاية صيد من جلد
الشّموه لكي لا يعلق عقِبُ البندقية بها البتة .

سوف اصنعها ، كذلك قال مخاطباً نفسه . سوف اصنعها ، وإلا اخذت
واحدة من بعض المجّان وفصلتها لها . ولكم اتمنى لو آتيتها ببندقية جيدة من
نوع بوردي عيار ١٢ ، ليست بالحنيفة الى حد لعين اكثر مما ينبغي ،
أو بزوج من نوع « بوس » احدهما فوقيّة والأخرى تحتيّة . يجب ان
ازودّها ببندق لا تقل جودةً عنها هي ؛ أنا احسب ان زوجاً من بوردي
هو خير ما ازودّها به ، كذلك فكر .

وفي تلك اللحظة بالذات سمع حفيف الأجنحة الرفيق ، وهي تصفق
في الهواء خفيفةً رشيقه . فنظر الى فوق . ولكنها كانت محلقةً اكثر
مما ينبغي . لقد نظر الى فوق بعينه ليس غير . ولكنها كانت من
الارتفاع بحيث استطاعت ان ترى البرميل وتراه هو فيه وترى الطيور
الخشبية الخادعة المنجمدة مع البطة المكتئبة التي رأت هي ايضاً البطات
المحلقة فراحت تبطبط بقوة في مخادعتها الوفيّة . أما البطات ، وكانت
من بط البلبول ، فواصلت طيرانها نحو البر .

★ ★ ★

أما لم أعطيها في أي يوم شيئاً ، كما لاحظت هي ذات مرة . كان

ثمة رأس المغربي الصغير . ولكن هذا لا يفيد اي معنى . انها هي اختارته وانا اشتريته . وليست هذه هي الطريقة التي تقدم بها الهدايا .

ان ما احب ان اقدمه اليها هو الأمن ، الذي لم يعد يوجد البتة ؛ كل حي ، الذي هو شيء ثاقف ؛ كل ممتلكاتي الدنيوية ، التي هي شيء لا وجود له عملياً باستثناء بندقيتي صيد جيدتين ، وبذلاتي العسكرية ، والمدايات والاسمة مع الاشارات بالبسالة وبعض الكتب . وراقب كولونيل متقاعد ايضاً .

إني أهبك كل ممتلكاتي الدنيوية ، كذلك قال في ذات نفسه . ولقد اعطتني هي حبها . وبعض الحجارة الصلبة ، التي ارجعتها ، والصورة الزيتية . حسناً ، ان في ميسوري دائماً أن أرجع الصورة اليها . كان في امكاني ان اقدم اليها خاتمي من V-M-I ، كذلك فكر ، ولكن اين بحق الجحيم أضعت ذلك الخاتم ؟

انها لن تكون في حاجة الى وسام «صليب الخدمة الممتازة» (D.S.C) مع نموذج المعدني او الى مداليات وطنها . لا ، ولا الى مداليات فرنسة أو مداليات بلجيكة . او المداليات الزائفة . اذ لو احتاجت اليها لدل ذلك على انحراف عقلي .

من الخير لي ان أهبها حي ليس غير . ولكن كيف تستطيع ، بحق الجحيم ، ان تبعث به اليها ؟ وكيف تبقى غصاً طرياً ؟ انهم لا يستطيعون ان يرزموه بجليد جاف .

لعلهم يستطيعون . يتعين عليّ ان استطلع ، ولكن أنتى اجيء بمحرك الـ «جيب» اللعين ذاك الذي وعدت به ذلك الرجل العجوز ؟

«حل» عقدة هذا ، كذلك قال في ذات نفسه لقد كان حل عقيد الأشياء هو صناعتك . ثم أضاف . حل عقيد الأشياء حين كانت العدو يطلق النار عليك .

كنت أتمنى لو كان مع ابن العاهرة ذاك الذي يُفلسي صيد البط
غدارة . وعندئذ كان في إمكاننا ان نكتشف على جناح السرعة أينما
يستطيع حل عقدة الاشياء . حتى في برميل حقير في ارض سبخة حيث لا
يقوى المرء على المناورة . سوف يكون عليه ان يقترب لكي يصيبي
بناره .

كُفَّ عن هذا ، كذلك قال في ذات نفسه ، وفكّر في فتاتك .
انت لا تريد ان تقتل ايما امرئ بعد اليوم . البتة .

لمن تلمّح بهذا ، كذلك خاطب نفسه . هل تريد ان ترشح نفسك
كمسيحي ؟ في استطاعتك ان تقوم في هذه السبيل بمحاولة أمينة . وخلق
بفتاتك ان تحبك اكثر لو سلكت هذه الحطة . ولكن هل انت واثق
من ذلك ؟ لست ادري ، هكذا قال في صراحة . انا اقسم بالله اني لا
ادري .

لعلك سوف تصبح مسيحياً في خاتمة المطاف . اجل ، كذلك قال ،
لعلك أن تصبح مسيحياً . من ذا الذي يريد أن يراهن على ذلك ؟
- « أتريد ان تراهني على ذلك » كذلك سأل البطة الحادة . ولكنها
كانت رافعة بصرها الى السماء ، خلفه ، وكانت قد استهلت الصغير
المُقسّوقي .

وأقبلت اسراب البط محلقة اكثر مما ينبغي ، ولم تحوّم البتة . لقد
اكتفت بأن خفضت أبصارها وواصلت اندفاعها نحو البحر الفضاء .
لا ريب في انها تنجو بنفسها الى هناك ، كذلك فكر الكولونيل .
لعل قانصاً في زورق مسطح القعر يحاول الآن أن يصبوب اليها النار
خلسة . ولسوف تكون محجوبة عن الريح ، حين تهبّ ، وليس من
شك في أن شخصاً ما يصبوب الآن اليها النار خلسة . حسناً ، وعندما
يطلق ذلك الشخص رصاصه سيرتد بعضها عائداً من هنا . ولكن ما دام

الجليد مُهَيِّمًا فَأَحْسِبْ أَنْ عَلَيَّ أَنْ أَنْصَرَفَ بَدَلًا مِنْ أَنْ أَمُكِّثَ هُنَا
مِثْلَ رَجُلٍ مَعْتَوِهِ .

لَقَدْ قَتَلْتُ عِدَدًا مِنْهَا كَافِيًا ، وَلَقَدْ رَمَيْتُ أَحْسَنَ مَا اسْتَطِيعَ الرَّمَايَةُ
أَوْ أَحْسَنَ مِمَّا اسْتَطِيعَ الرَّمَايَةُ . إِلَى الْجَحِيمِ بِـ «أَحْسَنَ» الثَّانِيَةِ هَذِهِ . أَنْ
أَحَدًا لَا يَرْمِي أَحْسَنَ مِنْكَ ، هُنَا ، مَا عَدَا آلْفَارِيتُو ، وَهُوَ شَابٌ
وَيُطْلِقُ النَّارَ فِي سُرْعَةٍ اعْظَمَ . وَلَكِنَّكَ تَصِيدُ عِدَدًا مِنَ الْبَطِّ أَقْلَ مِمَّا
يَصِيدُهُ كَثِيرٌ مِنَ الرَّمَاةِ الْإِرْدِيَاءِ وَغَيْرِ الْبَارِعِينَ .

أَجَلْ ، أَنَا أَدْرِي ذَلِكَ ، وَأَدْرِي لِمَاذَا ، وَنَحْنُ لَمْ نَعُدْ بِمَجْرَدِ جُنُودِ ذَوِي
أَرْقَامَ ، وَلَقَدْ اطَّرَحْنَا الْكِتَابَ أَيْضًا ، هَلْ تَتَذَكَّرُ ؟

لَقَدْ تَذَكَّرْتُ كَيْفَ شَاءَتْ مَعْجَزَةٌ مِنْ مَعْجَزَاتِ الْحِظِّ فِي الْحَرْبِ أَنْ
يَكُونَ مَعَ أَحِبِّ أَصْدِقَائِهِ إِلَيْهِ ، فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي «الْأَرْدَنِّ» Ardennes
وَكُنَّا يَطَارِدَانِ الْعَدُوَّ .

كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَائِلِ الْخَرِيفِ ، فَوْقَ مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ شَامِخٍ ذِي
طَرَقٍ وَشُعَابٍ^١ ، وَكَانَتْ الْأَشْجَارُ صَفْصَافًا قَصِيرًا وَصُنُوبَرًا . وَكَانَتْ
آثَارُ دَبَابَاتِ الْعَدُوِّ وَعِجَلَاتِ سَيَارَاتِهِ تَبْدُو جَلِيَّةً فِي الرَّمْلِ النَّدِيِّ .

كَانَ الْمَطَرُ قَدْ هَطَلَ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ ، وَلَكِنْ السَّمَاءُ كَانَتْ الْآنَ قَدْ
أَخَذَتْ تَصْفُو ، وَكَانَتْ الرُّؤْيَا حَسَنَةً ، وَكَانَ فِي اسْتَطَاعَتِكَ أَنْ تَرَى جَيِّدًا
عَبْرَ الرِّيفِ السَّامِقِ الْمَتَمَوِّجِ كُلِّهِ ، وَكَانَ هُوَ وَصَدِيقُهُ يَسْتَكْشِفَانِ أَرْجَاءَهُ
بِمَنْظَارِيهَا فِي دَقَّةٍ بَالِغَةٍ وَكَأَنَّهَا مِنْهُمَا كَانَ فِي صَيْدٍ مِنَ الصَّيْدِ .

وَكَانَ الْكُولُونِيلُ ، الَّذِي كَانَ آنَذَاكَ جُنْرَالًا وَمُسَاعِدَ قَائِدٍ لِفِرْقَةٍ
عَسْكَرِيَّةٍ ، يَعْرِفُ الْآثَارَ الْفَرْدِيَّةَ لِكُلِّ عَرَبَةٍ مَقْطُورَةٍ مِنَ الْعَرَبَاتِ الَّتِي
كَانُوا يَقْتَفُونَهَا .

١ - جَمْعُ شُعْبٍ ، بِكَسْرِ الشَّيْنِ ، وَهُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ .

ولقد عرف ايضاً متى خرجت العربات العدو من حقول الالغام وعدد الطلقات الجماعية التي بقيت لها تقريباً . وكان قد تصور ايضاً ان تعين عليهم ان يقاتلوا قبل ان يبلغوا خط زيغريد . كان واثقاً من انهم لن يقاتلوا في اي من هذين الوطنين ، ولكنهم سوف ينطلقون الى طيبتهم^١ في سرعة جنونية .

وقال لصديقه الأعز : « لقد أوغلنا في التقدم بأكثر مما يليق بأمثالنا من أصحاب الرتب العسكرية العليا ، يا جورج . »
- « لقد تخطينا الحد ، أيها الجنرال . »

- « لا بأس » كذلك كان الكولونيل قد اجابه . « والآن سوف نطرح الكتاب ونطارده العدو الى الابد . »

فقال صديقه الأعز : « ليس في ميسوري ان اوافق على شيء اكثر من موافقتي على هذا . لأنني وضعت الكتاب بنفسني . ولكن لنفرض انهم تركوا شيئاً هناك ؟ »
وأشار الى موطن الدفاع المنطقي .

وكان الكولونيل قد قال : « انهم لم يتركوا اي شيء هناك . فلم يبق لديهم ذخيرة كافية حتى للقتال بالاسلحة النارية . »
- « كل امرئ يظل على صواب حتى يثبت خطأه » ، كذلك قال صديقه الأعز ، ثم اضاف : « ايها الجنرال . »

فقال الكولونيل : « انا على صواب . » وكان هو على صواب ، ايضاً برغم انه في حصوله على معرفته المضبوطة لم يحقق الروح الكاملة لميثاق جنيف الذي زعم انه يهيمن على عملية الحرب .
وكان صديقه الأعز قد قال : « فلنطاردهم مطاردة حقيقية . »

- « ليس ثمة ما يعوقنا البتة » ، وانا زعيم لك بأنهم لن يتوقفوا في اي من فينك الوطنين . أنا لم أفز بذلك من اي جندي نمساوي

١ - طية المرء : المكان الذي يقصد اليه .

أيضاً . هذا من نبات افكاري . »

وسرّح طرفه في الريف كرة أخرى ، وسمع حفيف الريح تخلل الأشجار ، واستروح نبات الخلنج تحت حذاءيهما العسكريين ، وألقى نظرة أخرى على آثار العجلات في الرمل النديّ ، وكان هذا هو خاتمة تلك القصة .

ليت شعري ، هل ستحب ريناتا ذلك ، كذلك قال في ما بينه وبين نفسه . لا ، انه يظهرني امامها بمظهر الالمية ، اكثر مما ينبغي . ومع ذلك ، فمن الخير ان اكلف شخصاً آخر رواية ذلك على مسمعيها وتعزيز اعتباري لديها . ان جورج هو الشخص الوحيد الذي كانت في إمكانه ان يرويها لها ولكنه لا يستطيع ذلك . انا واثق ، ثقني من الجحيم ، انه لا يستطيع ذلك .

لقد كنت على جادة الصواب اكثر من خمسة وتسعين بالمئة من الوقت ، وهذه نسبة من الاصابة عالية الى حد جهنمي حتى في شيء هين كالحرب . ولكن تلك الخمسة بالمئة التي هي نسبة الخطأ تستطيع من غير ريب أن تكون شيئاً .

أنا لن احدثك أبد الدهر عن ذلك ، يا بني . انها مجرد ضجة مسموعة خلف المسرح في قلبي . قلبي الدجاجي الحقيق . ان ذلك القلب النفل لم يستطع أن يحاري خطواتي .

ومن يدري ، فلعله ان يستطيع ، كذلك قال في ذات نفسه ، واخذ قرصين من تلك الاقراص وجرعة من الـ «جن» ، ونظر عبر الجليد الرمادي .

اني سوف ادعو ، الآن ، تلك الشخصية المتجهمة الى الاقتراب من الشاطئ ، وجمع ادوات الصيد ، وسأمضي الى البيت الريفي او الى الكوخ ، كما احسب ان عليّ ان اسميه . لقد انتهى القنص .

وكان الكولونيل قد اوعز الى المراكبي بالتقدم الى الشاطئ بآت نهض واقفاً في البرميل الغائر ، مطلقاً عيارين نارين نحو السماء الخالية ، ثم ملوِّحاً له بيده نحو الحجاب الوافي .

وأقبل المركب وثيداً ، كاسراً الجليد طوال الطريق . وجمع الرجل الطيور الخشبية الخادعة ، وأمسك بالبطة الداعية ، ووضعها في كيسها ، والكلب ينزلق على الجليد ، ثم جمع البط المقتنص . كان غضب المراكبي قد خمد في ما يبدو ، وحل محله ارتياحٌ حقيقي . وقال للكولونيل : « لقد اصطدت عدداً قليلاً جداً . »

— « بمساعدتك . »

كان ذلك كل ما قالاه ، ووضع المراكبي البطات في عناية ، وصدورها إلى أعلى ، فوق مقدم الزورق . وناول الكولونيل بنادقه وصندوق الخرطوش ومقعد القنص فوضعها في الزورق .

ودخل الكولونيل الزورق ، واستلم المراكبي الحجاب الوافي ، وفكّ الأداة المُجَيِّبة الشبيهة بالمتزر والمدلاة في داخل الحجاب الوافي لمن القذائف . ثم إنه دخل الزورق أيضاً ، وشرعاً يبتعدان عن الشاطئ في ببطء وجهد ، مجتازين الجليد الى مياه القناة السمراء الجارية . وجذّف الكولونيل بمثل النشاط الذي جذّف به حين أقبل للقنص . ولكنها عملاً معاً الآن — في أشعة الشمس الساطعة ، وجبال الثلج إلى شمالها ،

وخطُ نبات الحلفاء الذي يميز القناة امامها - في تناغم كامل .
ثم إنها انتهيا الى القناة ، مبتعدين على نحو متكسرٍ عن بقية الجليد
الباقية . وفجأة غمرها الضياء ، ودفع الكولونيل المجذاف الكبير الى
المراكبي ، وقعد . كان العرق يتصبَّب من جسمه .

واتخذ الكلب ، الذي كان يرتعد عند قدمي الكولونيل ، سبيله فوق
حافة المركب متشبِّثاً بها ببرائته حَذَر السقوط ، وسبح الى ضفة
القناة . ثم انه نفّض الماء عن سترته البيضاء المتسخة ، واندفع نحو أجرة
نبات الحلفاء الأسمر ، وراقب الكولونيل تقدمه الى موطنه من خلال
حركة الأجرة . إنه لم يتناول لقائقه البتة .

وإذ استشعر الكولونيل العرق يتصبَّب من جسده ، برغم ادراكه انه
كان في نجوة من الريح بفضل سترته العسكرية ، فقد تناول من العلبة
قرصين اثنين ، واخذ رشفة «جن» من قارورته .

وكانت القارورة مسطحة ذات كساء فضي وغطاء من جلد . وتحت
الغطاء الجلدي ، الذي كان بالياً وملطخاً ، نُقِشت في جانبٍ ما ، هذه
الكلمات : « الى ريتشارد من ريناتا ، مع الحب » . إن أحداً لم يرَ هذا
النقش قط غير الفتاة ، والكولونيل ، والرجل الذي نقشه . والقارورة
لم تُنقش حيث اشترت . لقد كان هذا في الأيام الاولى ، كذلك
فكر الكولونيل . أما الآن فمن يبالي ؟

وفي أعلى سداة القارورة اللولبية نُقِش : « من ر . الى ر . س . »
وقدم الكولونيل القارورة الى المراكبي الذي نظر اليه ، والى القارورة ،
وقال : « ما هذا ؟ »

— « غراباً انكليزية . »

— « سوف أجربها . »

وأخذ منها جرعة طويلة ؛ ذلك النوع من الجرعة التي تعود الفلاحون

أخذه من قارورات الحجر .

— « شكراً . »

— « هل وُفِّقت الى صيد سمين ؟ »

— « لقد اقتنصت أربع بطات . ووجد الكلب ثلاث بطات تصيدها

اناس آخرون . »

— « لماذا اطلقت النار ؟ »

— « انا آسف لإطلاق النار . لقد فعلت ذلك في سورة غضب . »

لقد فعلت انا ذلك في بعض الأحيان ، هكذا قال الكولونيل في

ذات نفسه . ولم يسأله علام كان غضبه .

— « يؤسفني انها لم تطرُ على نحو أفضل . »

فقال الكولونيل : « تلك هي الطريقة التي تجري بها الأشياء . »

وكان الكولونيل يراقب الحركة التي قام بها الكلب في العشب العالي

ونبات الحلفاء . وفجأة لمح يتوقف ؛ لقد جمد في مكانه لا يريم .. ثم

إنه وثب . كانت وثبة عالية ، وغوصة الى أمام وإلى أدنى .

وقال للمراكبي : « لقد عثر على بطة جريح . »

وناداه المراكبي : « بوبي ! إيتِ بها ، إيتِ بها ! »

وتحرك نبت الحلفاء ، وانقلب الكلب عائداً وبين فكّيه ذكرُ بطّ

برّي وكان عنقه الأبيض الرمادي ورأسه الأخضر يترنحان علواً وسفلاً

كما يتحرك ثعبان من الثعابين . لقد كانت حركة من غير أمل .

واندفع المراكبي بزورقه نحو الشاطئ اندفاعاً قوياً .

— « سوف أخذه أنا ، كذلك قال الكولونيل . ثم اضاف : « بوبي ! »

وأخذ ذكر البط من بين فكّتي الكلب المسكين به في غير

إحكام فألفاه سليماً لم يُمس ، ورفع به بإحدى يديه فوجده وسيماً بهي

الطلعة ، وقد راح قلبه يخفق وبدأ اليأس على عينيه الأسيرتين .

ونظر الكولونيل اليه في حنان ، ملاطفاً إياه كما بلاطف المرء جواداً .

وقال : « انه مصابٌ في جناحه ليس غير . سوف نحتفظ به لنستعين به على صيد امثاله او لنطلق سراحه في الربيع . هيا ، خذه وضعه في الكيس مع البطة . »

وأخذه المراكبي في رفق ووضع في الكيس الخيشي الذي كان تحت مقدم السفينة . وسمع الكولونيل البطة تتحدث اليه . او لعلها كانت تحتج ، كذلك قال في ذات نفسه . انه لم يستطع ان يفهم حديث البط من خلال كيس خيشي .

— « خذ جرعة من هذا . » كذلك قال للمراكبي . « إنه يوم قارس الى حد لعين . »

وتناول المراكبي القارورة ، واخذ جرعة أخرى طويلة . وقال : « أشكرك . إن هذه الغرابا جيدة جداً ، جداً . »

وعند المهيبط ، أمام البيت الحجري الطويل المنخفض القائم على ضفة القناة ، كان البط ملقى على الأرض في صفوف منظمة .

لقد رُصِفَ مجموعاتٍ غير متكافئة . وكان ثمة عدد قليل جداً من الفصائل ، ولم يكن سرايا البتة ، أما أنا - كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه - فلا أكاد املك شزيمة صغيرة .

وكان كبير حرس الصيد واقفاً على الضفة بجذائه العالي الساق ، وسارقه القصيرة ، وقبعته العتيقة المردودة الى الوراء ، ولقد ألقى نظرة ناقدة على عدد البطات التي كانت فوق مقدم المركب فيما هما يتقدمان في محاذاة الشاطئ .

وقال الكولونيل : « كان الجليد غالباً على موقعنا . »

وقال كبير الحرس : « لقد قدّرت ذلك . أنا آسف . لقد 'ظن' أنه افضل المواقع . »

- « من كان مجتلياً في القنص ؟ »

- « لقد قنّص البارون اثنتين واربعين . كان ثمة تيارٌ ضعيف هناك أبقي المياه جارية فترة من الزمن . ولعلك لم تسمع اطلاق الرصاص لأنه كان مضاداً للريح . »

- « وأين افراد الجماعة ؟ »

- « لقد مضوا جميعاً ما خلا البارون الذي ينتظر عودتك . ان
سائقك نائم في البيت الريفي . »
فقال الكولونيل : « لست أستغرب ذلك . »
- « أنشر هذه نشرأ حسناً ، » كذلك قال كبير الحرس للمراكي الذي
كان هو أيضاً حارس صيد . « اريد أن اذكرها في سجل القنص . »
- « هناك ذكر بط أخضر الرأس في الكيس . وهو غير مصاب إلا
في جناحه . »
- « حسن ، سوف أعنى به عناية جيدة . »
- « سوف ادخل وأرى البارون . إني سأراك في ما بعد . »
فقال كبير الحرس : « يتعين عليك ان تدفئ نفسك . لقد كان نهراً
قارساً جداً ، يا زعمي . »
واتخذ الكولونيل سبيله الى باب البيت الريفي .
وقال للمراكي : « سوف اراك في ما بعد . »
فقال المراكى : « نعم ، يا زعمي . »



كان ألفاريتو ، البارون ، واقفاً على مقربة من نار المستوقد المكشوفة
في وسط الحجرة . فابتسم ابتسامة الخجول وقال في صوته ذي الطبقة
الخفيضة :
- « أنا آسف لأنك لم توفّق إلى صيد أفضل . »
- « لقد استبد بنا الصقيع استبداداً كاملاً . وعلى اية حال فقد
استمتعت بالذي كان ثمة الى حد بعيد . »
- « هل تستشعر برداً شديداً ؟ »
- « ليس اكثر مما ينبغي . »
- « في ميسورنا أن نطعم شيئاً ما . »

- « شكراً . انا لست جائعاً . هل أكلت ؟ »
- « نعم . لقد مضى الآخرون ولقد تركتهم يأخذون سيارتي . هل تستطيع ان تنقلني بسيارتك الى لاتيزانا او الى ما وراءها بقليل ؟ ان في استطاعتي ان اجد هناك وسيلة من وسائل المواصلات . »
- « من غير ريب . »
- « كان من العار ان يغلب الصقيع على موقعك . فقد كانت الآمال كبيرة في ان توفق الى صيد سمين . »
- « لا بد انه كان ثمة في الخارج عالمٌ من البط كامل . »
- « نعم . ولكن اسراب البط هذه لن تلبث بعدُ وقد اصاب الصقيع طعامها . انها سوف تكون اللية في سبيلها الى الجنوب . »
- « هل ستذهب كلها ؟ »
- « ستذهب كلها . ما عدا بطننا المحلي الذي يتوالد هنا . إنها سوف تلبث ما بقي ثمة ايما مياه غير منجمدة . »
- « انا آسف لإخفاق رحلة القنص . »
- « وأنا آسف لأن تكون قد قطعت هذه المسافة كلها من أجل هذا العدد الضئيل من البط . »
- فقال الكولونيل : « أنا احب القنص دائماً . وأحب مدينة البندقية . وأشاح البارون ألفاريتو بوجهه وبسط يديه نحو النار . وقال : « اجل . نحن كلنا نحب البندقية . ولعلك تحبها اكثر منا جميعاً . »
- ولم يسترسل الكولونيل في الحديث عن هذه النقطة ، بل قال : « انا احب البندقية كما تعلم . »
- فقال البارون : « اجل ، أعلم . » ولم ينظر الى ايما شيء . ثم اضاف : يتعين علينا أن نوقظ سائقك . »
- « هل اكلَ ؟ »
- « لقد اكل ونام ، واكل ونام . ولقد قرأ بضع صفحات من بعض

المجلات المصورة التي حملها معه . »

فقال الكولونيل : « بعض المجلات الهزلية المصورة . »

فقال البارون : « يتعين علي أن اروض نفسي على مطالعتها . » وابتسم ابتسامته الحية القائمة . « هل تستطيع أن تأتيني ببعضها من تريستا ؟ »

فأجابه الكولونيل : « أيّ مقدار منها تشاء . ابتداءً من تلك التي تصوّر الانسان الأمثل الى تلك التي تصوّر كل ما هو متعذر التصديق . طالعها بالنيابة عني . اسمع ، يا ألفاريتو ، ما خطب مراقب الصيد ذاك الذي جذّف مركبي ؟ لقد بدا وكأنه يكنّ لي بعض الحقد ، منذ البدء . وخلال الرحلة كلها أيضا . »

— « مردّة ذلك الى السترة العسكرية القديمة . إن بزة الحلفاء تثيره على

هذا النحو . »

— « تابع . »

— « حين اقبل المغاربة الى هنا اغتصبوا زوجته وبنته . »

فقال الكولونيل : « من الخير لي ان آخذ جرعة . »

— « هناك شيء من الغرابا على المائدة . »

كانا قد انزلا البارون من السيارة في دارة ذات بوابة ضخمة ، ومجاز
معبد ، وبیت شاء حسن حظه - اذ كان على مبعدة ستة اميال أو
يزيد عن اياما هدف عسكري - ان ينجو من قذف القنابل .
وكان الكولونيل قد قال كلمة الوداع ، وكان ألفاريتو قد دعاه الى
الوفود عليه والاستمتاع بالقنص في اياما «ويك أند»^١ يشاء ، أو في كل
«ويك أند» .

- « اوافقك انت من انك لن تعرج علينا الآن ؟ »
- « لا يتعين علي أن ارجع الى تريستا . هل لك ان تحمل حيي
الى رينانا ؟ »
- « سوف افعل . هل هذا الذي لففته في مؤخرة السيارة صورتها
الزيتية ؟ »

- « نعم . »
- « سأقول لها انك وفقت الى صيد سمين وان الصورة الزيتية في
حال جيدة . »
- « وحيي ايضاً . »
- « وحبك ايضاً . »

- « وداعاً Ciao ، يا ألفاريتو ، واشكرك شكراً جزيلاً . »
- « Ciao ، يا زعمي . اذا كان في امكان المرء ان يقول ciao

١ - نهاية الاسبوع .

- لكولونيل . «
- « لا تعتبرني كولونيلا »
- « ذلك عسير جداً . الى اللقاء ، يا زعيمى . »
- « فى حال اىما طارىء غير مرتقب هل لك ان تسألها ان تسترد الصورة الزيتية من فندق غريتي ؟ »
- « نعم يا زعيمى . »
- « هذا كل ما هنالك فى احسب . »
- « الى اللقاء ، يا زعيمى . »

- كانا قد أمسيا على الطريق ، الآن ، وكان الغسق قد اخذ يهبط .
وقال الكولونيل : «إنعطف يساراً .»
فقال جاكسون : « هذه ليست الطريق المفضية الى تريستا ، يا سيدي .»
- « الى الجحيم بالطريق المفضية الى تريستا . لقد أمرتك بأن تنعطف يساراً . هل تحسب ان هناك طريقاً واحدة ، في العالم ، للذهاب الى تريستا ؟ »
- « لا ، يا سيدي . كل ما اردته هو أن ألفت نظر الكولونيل الى ... »
- « لا تلفت نظري الى شيء لعين . وريثاً اصدر اليك أمراً مغايراً لا تخاطبني إلا اذا خاطبتك . »
- « نعم ، يا سيدي »
- « انا آسف ، يا جاكسون . ما اعنيه هو اني اعرف الى اين انا ذاهب ، واني اريد ان افكر . »
- « نعم يا سيدي . »

كانا الآن ينطلقان في الطريق القديمة التي عرفها جيداً ، وقال الكولونيل في ذات نفسه : حسناً ، سوف ابعث بأربع من البطات التي وعدتُ بها الى من وعدتهم بها في فندق غريتي . إن الصيد لم يكن غزيراً بحيث

يتوفر لزوجة ذلك الغلام قدر من الريش تستطيع ان تفيد منه .
ولكنها كلها ضخمة وسمينة ، ولا ريب في ان القوم سيجدون في اكلها
متعة بالغة . لقد نسيت ان اقدم اللقائى الى «بوبي» .

ولم يكن لديه متسع من الوقت لكتابة مذكرة الى ريناتا . ولكن
ما الذي استطيع ان اقله ، في مذكرة ، بما لم تنقله مشافهة ؟

ومد يده الى جيبه ، فوجد إضمامة ورق وقلماً . وأضاء المصباح
الخاص بقراءة الخرائط ؛ وبيده المعطوية راح يكتب رسالة صغيرة
بحروف كبيرة منفصلة .

« ضع هذه في جيبك ، يا جاكسون ، واعمل وفقاً عند الضرورة .
واذا ما حدثت الظروف الموصوفة فيها يصبح ذلك واجب التنفيذ» .
فقال جاكسون : « نعم ، يا سيدي » ، وبأحدى يديه أخذ الأمر
المطوي ووضع في جيب سترته العلوي الأيسر .

والآن هوّن عليك ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . إن كل
همّ إضافي قد يستبد بك سوف تكون انت محوراً ، وهذا مجرد عرف .
انت لم تعد ذا غناء لجيش الولايات المتحدة . لقد أوضح لك ذلك
إيضاحاً لا لبس فيه .

ولقد قلت كلمة الوداع لفتاتك ، ولقد قالت لك هي كلمة الوداع .
وهذا بسيط من غير ريب .

لقد اجدت القنص ، وألفاريتو يفهم . هذا واضح .

وإذن ، فأني شيء بحق الجحيم يتعين عليك أن تقلق من اجله ، أيها
الغلام ؟ انا ارجو أن لا تكون مثل اولئك الاغرار الذين يقلقون
لما قد يصيبهم حين لا يكون في اليد حيلة . فلنرج ذلك حقاً .

وفي تلك اللحظة بالذات ألمّت به النوبة ، وكان على مثل اليقين من
انها سوف تفعل ، منذ أن جمعا البطات الخشبية الخادعة .

ان ثلاث نوبات قلبية لقادرة على وضع حد لحياة الانسان . ولقد منحوني اربعاً . لقد كنت دائماً ابن عاهرة محظوظاً . «
وألّمت به من جديد عنيفة قاسية .

وقال : « جاكسون ، هل تعلم ما قاله الجنرال توماس ج . جاكسون في احدى المناسبات ؟ ... في مناسبة موته المنكود : لقد حفظته عن ظهر قلب ذات يوم . انا لا استطيع أن أتحمل مسؤولية دقة ذلك القول ، طبعاً ، ولكنهم يروونه على هذه الصورة : « مُروا أ . ب . هيل بالاستعداد للمعركة . » وتلا ذلك هذان اضافي . ثم قال : « لا ، لا ، دعونا نعبّر النهر ونرقد في ظل الاشجار . »

فقال جاكسون : « هذا جدّ طريف ، يا سيدي . ولا بد ان يكون ستونول جاكسون^١ هو صاحب ذلك القول ، يا سيدي . »

وشرع الكولونيل يتكلم ، ولكنه أمسك عن ذلك بينا اصابته النوبة للمرة الثالثة ، واستبدت به استبداداً عرف معه انه لن يستطيع الحياة بعد .

وقال الكولونيل : « جاكسون . انعطّف الى جانب الطريق وأُنرِ اضواءك الخاصة بالوقوف . هل تعرف الطريق الى تريستا من هنا ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي ، عندي خريطة . »

ـ « حسن . سوف امضي الآن الى المقعد الخلفي الواسع من هذه السيارة اللعينة ، المترفة ، الضخمة الى حد التطرف . »

وكانت هذه الكلمات هي آخر ما قاله الكولونيل في حياته . ولكنه بلغ المقعد الخلفي في غير مشقة وأوصد الباب . لقد أوصده في عناية وإحكام .

١ - هو توماس جوناثان Thomas jonathan المعروف بستونول جاكسون Stonewoll jackson (١٨٢٤ - ١٨٦٣) وكان قائداً اميركياً اتحادياً في الحرب الاهلية الاميركية .
(المعرب)

وبعد فترة ، قاد جاكسون السيارة هابطاً الخندق والطريق المكتنفة من جانبيها بشجرات الصفصاف ، وقد أثار أضواء السيارة الكبيرة ، وانشأ يبحث عن مكان ينعطف عنده . وأخيراً اهتدى الى مكان ، فانعطف في أناة . حتى اذا أمسى على الجانب الأيمن من الطريق ، منعطفاً جنوباً نحو ملتقى الطرق الخلق به ان 'يبلغه الطريق العامة المفضية الى تريستا ، تلك الطريق التي كان يألفها ، أضواء مصباح الخرائط واخرج الأمر المطوي من جيبه وقرأ :

« في حال وفاي تعاد الصورة الزيتية الملفوفة وبندقيتي
« الرش » التي في السيارة الى فندق غوتي ، البندقية ،
« حيث ستطالب بها مالكتها الشرعية :
« التوقيع : ريتشارد كانتنويل ، كولونييل ، سلاح
« المشاة ، الولايات الاميركية المتحدة » .

— « انهم سوف يعيدونها ، على احسن وجه ، من طريق بعض القنوات . »
كذلك قال جاكسون في ذات نفسه ، وأطلق العنان للسيارة .

(انتهت)

روايات عالمية

اصدرتها دار الطليعة - بيروت

ص . ب ١٨١٣

- شارع السردين المقلب تأليف جون شتاينبك ترجمة منير بعلبكي
- حين فقدنا الرضا » » » ترجمة سميرة عزام
- طريق التبغ » » » ارسكين كالدويل » منير بعلبكي
- هكذا خلقت جيبي » » » » سلمى الجيومي
- رواي افرقيا الخضراء » » » ارنست همنغواي » يوسف خطيب
- بالتازار » » » لورنس داريل ترجمة سلمى الجيومي
- جوشيبي » » » » » » »
- فونتارا » » » انبانيوسيلونه » عيسى الناعوري
- ليالي بيضاء » » » فيدوردسترفيسكي » حمد الجندي

هذه الرواية

● لعل همنغواي اعظم شخصية أطلعها الادب الحديث ، في حقل الرواية ، ذلك بأنه صوّر مأساة الانسان الجديد تصويراً بارعاً نابضاً بالحياة .

● «وعبر النهر ونحو الأشجار» تمثل تجربة همنغواي في الحرب العالمية الثانية بقدر ما تمثل «وداع للسلاح» تجربته في الحرب العالمية الاولى. وهي تمتاز عن «وداع للسلاح» بالنفس الشعري والعريق الفلسفي الذي ينتظمها كلها .

● وفي «عبر النهر ونحو الاشجار» سخرية لاذعة، وبراعة في ادارة الحوار آسرة، وشجب للحرب صارخ ، وسمو انساني يثير أشجان النفوس. انها مأساة بشرية قلّ ان جادت بمثلها براعة اديب في تاريخ القصة العالمية كلها .

● ان كل من قرأ «الشيخ والبحر» و «وداع للسلاح» لا بدّ أن يجد في قراءة «عبر النهر ونحو الاشجار» متعة بالغة .

الشنن : ٥٠٠ ق. ل. او ما

منشورات دار الطليعة - بيروت

Bibliotheca Alexandrina



0357226